

ابن زنبيل الرمال

آخرة المماليك

أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني



تحقيق: عبد المنعم عامر
أشرف على إعداد هذه الطبعة وقدم لها
د. عبد الرحمن الشيخ

الأعمال
المختارة

الألف
كتاب



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

يطالعنا هذا الكتاب بصورة شائقة للأيام الأخيرة لدولة المماليك الجراكسة قبل أن تطوى صفحاتها وتدخل مصر فى ظلام الليل العثماني. وأهمية هذا العمل تتبع من كاتبه، فهو شاهد عيان عاصر تلك الأحداث التى يرويها، وشاهد وقائع المعارك الحربية التى دارت فى الشام ومصر قبل أن يحكم العثمانيون قبضتهم على أرضهم. وروى كيف لعبت الخيانة دورها فى هزيمة المماليك، وكيف أسلمت يد الغدر آخر سلاطينهم العظام، طومان باى، إلى يد عدوه سليم الأول ليلقى حتفه مشنوقاً على باب زويلة. ثم يسترسل الكاتب فى سرد قصته الدرامية الدامية ليروى كيف سعى هؤلاء الأمراء الخونة إلى خيانة العثمانيين بعدها، وكيف كانت عاقبتهم. ولما كان الشيخ أحمد الرمال مؤلف الكتاب يعمل فى الأساس فى مجال ضرب الرمل وقراءة الطالع، فقد كان تتاوله للأحداث بسيطاً شعبياً، لكنه لا يخلو من أصالة وعمق فى الوقت نفسه. وقد توفر على تحقيق هذا العمل الأستاذ عبد المنعم عامر بهمة ونشاط، وأضاف له الكثير من التعقيبات والهوامش. واستكمالاً لعمله، حرصنا فى تلك الطبعة على أن نقدم لها بدرستين هامتين أعدهما الدكتور عبد الرحمن الشيخ، تناول فيهما شخص ابن زنبيل والمصادر التاريخية للعصر، والأسلحة والنظم العسكرية المستخدمة آنذاك. حيث حرص المؤلف على أن يتطرق لوصف الحياة الاجتماعية أحياناً، كما أشار للتركيب الاجتماعى للقوات العسكرية على الجانبين العثماني والمملوكي.

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الأشرف العام

الدكتور / سليم سرخان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

سكرتير التحرير

علياء أبو شادي

المشرف الفني العام

محسنة عطية

آخِرَةُ الْمَالِيكَ أَوْ

وَاقِعَةُ السَّلاطَانِ الْغُورِيِّ مَعَ سَلِيمِ الْعُثْمَانِيِّ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ

تَأَلَّفَ

ابْنُ زَيْنَبِ

الْشَيْخِ أَصْحَرُ الرَّمَالِ (١٩٦٠ هـ)

تَحْقِيقُ

عَبْدُ الْمُنْعَمِ عَامِرُ

أَشْرَفَ عَلَى إِعْدَادِ هَذِهِ الطَّبْعَةِ وَقَدَّمَ لَهَا

د. عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ اللَّهِ الشَّيْخُ



المطبعة المركزية العامة للكتاب

الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

والحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٧

تقديم

القسم الأول

ابن زنبيل الرمال ودخول العثمانيون لمصر

- ١ - ابن زنبيل بين مصادر العصرين المملوكي والعثماني . . . ١٩
٢ - الأسلحة والنظم العسكرية في عصر ابن زنبيل . . . ٤٤

القسم الثاني

وقعة السلطان الغورى

- ٦٥ مقدمة
٧٧ ذكر خروج السلطان الملك الأشرف قانصوة الغورى من مصر
للاقاء السلطان سليم بمرج دابق
٧٩ ذكر نواب البلاد التى كانت فى حكمهم
٩١ ذكر ارسال القاصد من السلطان سليم الى الغورى
٩٢ ذكر ارسال الغورى الى السلطان سليم قاصدا
٩٧ ذكر التقاء الجمعين
١٠٣ ذكر قطع رأس السلطان الغورى
١١٥ ذكر اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر
١١٩ ذكر كتابة مرسوم الى السلطان طومانباى
١٢٢ ذكر خروج السلطان سليم الى مصر

١٤٩	• • • • •	ذكر التقاء طومانباي مع جانم السيفي
١٨٦	• • • • •	ذكر تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة
٢٥٣	• • • • •	ذكر صلب السلطان طومانباي على باب زويلة
٢٥٦	• • • • •	ذكر صفة السلطان طومانباي ، رحمة الله تعالى
٢٥٨	• • • • •	ذكر تولية الكشف ومشايخ العربان
٢٧٠	• • • • •	ذكر خروج الغزالي نائب الشام وسلطنته بها
٢٨٢	• • • • •	ذكر تاريخ قطع رأس الغزالي الخائن
٢٩٢	• • • • •	ملحق مصر والقاهرة
٣٠٥	• • • • •	مسرد مصطلحات
٣٠٩	• • • • •	كشفاف

تقديم

بقلم : د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

العنوان الاصلى لكتابنا هذا كما وضعه مؤلفه الشيخ أحمد الرمال (اى ضارب الرمل) هو (وقعة الفورى والسلطان سليم وما جرى بينهما) لكن — ربما لدواعى الاختصار — جعل له عنوان (آخره الممالك) ، فاذا كان المقصود آخره السلطنة المملوكية الرسمية التى بدأت سنة ١٢٥٠ وانتهت بهزيمة جيوشها فى معركة مرج دابق بالشام سنة ١٥١٦ ومعركة الريدانية شمال القاهرة سنة ١٥١٧ ، لكان الامر صحيحاً ، اما اذا كان المقصود بآخره الممالك آخره العنصر المملوكى (التركى والشركسى والجورجى أو الكرجى ٠٠٠ الخ) ، فالأمد غير صحيح اطلاقاً ، والا فمن هم الذين واجهوا حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ اليسوا هم الممالك ! ثم ليست هناك جماعة من المؤرخين تطلق على الحقبة القالية لسقوط السلطنة المملوكية اسم الحقبة العثمانية المملوكية ! بمعنى أنها حقبة كان للعثمانيين فيها الشعار والخطبة والسكة ، وللممالك مشيخة البلد ، والكشوفية والالتزام .. الخ أو بتعبير أكثر شعبية ، كان للعثمانيين (الصيت) وللممالك الفنى ، بل ان ابن زنبيل الرمال يحدثنا ان طائفة من الممالك كان من رأيها عدم مقاومة السلطان سليم ، فهو يعد قلبل سيرحل « ونفعل نحن ما نشاء » . ولم يقض نابليون على الممالك كسلطة عسكرية ، والا فمن هم الذين نصب لمحمد على مذبحه شهيرة فى القلعة سنة ١٨١١ ؟ اليسوا هم الممالك .. لقد قضى محمد على على عدد كبير من الرعوس المملوكية .. لكن سرعان ما نبقت لهم رعوس جديدة ، فالممالك كما هم (عرق) أو (عنصر) فانهم نظام يصعب بل يستحيل القضاء عليه بمجرد معركة أو بمجرد اصدار قانون أو غلبة من القوانين . واذا كان محمد على قد قضى عليهم تماماً ، فمن هم اذن الذين واجههم ابنه ابراهيم سنة ١٩١٢ فيما عرف بمذبحة الممالك الثانية

في صعيد مصر ، التي يحدثنا عنها المستشرق الفرنسي بريس دافين المعاصر للأحداث والذي تسمى باسم ادريس أفندي . يقول دافين (*) : « التجأ الممالك الذين فروا من مذبحة القلعة — حيث قتل ١٢٠٠ منهم — إلى النوبة ودفنوا . واضطروا مكروبين من ناحية بمعقات الطبيعة ، ومن ناحية أخرى بتعقب « ابراهيم بك » اياهم — وقد انهكهم قتال أقدموا عليه هنا وهناك دون ظفر — إلى أن يلتبسوا المأوى في الجبال التي يقطنها العبادة والبشارية . واجبرتهم هذه القبائل الهجيرة على أداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيمة . وقد أنفق البكوات لامداد جنودهم بالقوت اللازم في قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت أيديهم . وعلى الرغم من النضحية بفخائره فقد هلك جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

فلما ألقى الممالك من راحة الحياة وأصبحوا يعانون ما لا يطاق من الضيق ، قبلوا أن يستمعوا لعروض الصلح التي أرسل ابراهيم الماكر مندوبيه يقترحونها عليهم وسط كريتهم . ولم يعدهم سلامة حياتهم فحسب ، بل وأن يعيدهم إلى مثل المناصب التي في مستوى رتبهم وأن يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط أن يعترفوا بحكومة محمد علي .

ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فأنستهم الدرس القاسي الذي تلقوه منذ عام خلا ، وكان على رأسهم بكوات مختلفون ، فقبلوا المقترحات . وفي نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال قوافل صغيرة واتجهوا نحو اسنا حيث كان مقر قيادة ابراهيم . فلما اجتمع الممالك ، ورأى ابن محمد علي أنه لا ينبغي انتظار قدوم آخرين تستدرجهم تلك الوعود المغرية ، أصدر أمره بالاجهاز على أشنات هؤلاء الجند الذين كانوا نوى صولة فيما مضى . وفي ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقى مائتا عبد أسود مصير سائتهم .

(*) دافين ، بريس (ادريس أفندي) ، ادريس أفندي في مصر ١٨٠٧ - ١٨٧٩ .

القاهرة ، كتاب اليوم ، جمعها وترجمها د. أنور لوقا . ص ٩٩ .

وانقذت وساطة طبيب ابراهيم الفرنسى ملوكين فرنسيين من طائلة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة ملوك آخر لقيته في إسنا يدين بنجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجهال . »

وإذا كان محمد على وابنه ابراهيم قد قضيا بغير رجعة على الممالك عنصرًا ونظامًا ، فعلى من اعتمد محمد على في إدارة البلاد في جانب منها على الأتق ، وأين ذهب (أولاد الناس) وهم أولاد الممالك الذين كانوا يعملون بالتجارة ، وإدارة المشروعات الصغيرة والكبيرة معتمدين على صلات النسب والقربى بالعناصر العسكرية المملوكية الحاكمة ؟! قد يقال ان محمد على اعتمد أيضا على عناصر من أهل البلاد ، وهذا صحيح بل ان الحركة الشعبية التي أوصلته للسلطة كانت في غالبها من علماء الأزهر ، وهم في غالبهم فلاحون عرقا وتراثا (١) كما اعتمد على عناصر جلبها معه - وهذا صحيح لكنه لا يستطيع - حتى لو أراد - أن يجتث كل القائمين على البنية الاقتصادية الأساسية في المدن ، كما لا يستطيع أن يشغل كل العناصر الإدارية القائمة على جمع الأموال من الريف بعناصر جديدة مرة واحدة ، وعلى هذا بقى الحباك المملوكى كما هو مسيطرًا على طائفة الحباكين ، وبقي الصيرفى ، والحماسى ... الخ وليس المقصود هنا أن ابن الناس كان يعمل بنفسه في هذه المهنة أو تلك وانما كان يدير هذا المشروع الصغير أو الكبير لحسابه ، وطبعًا لم يكن كل أولاد الناس على هذه الشاكلة نفسها فقد كان منهم العلماء ، والتجار وأصحاب الأراضى ، وبطبيعة الحال أيضا لم يكونوا هم العنصر الوحيد ، فقد كان هناك عرب المغرب وعرب المشرق ، والعربان عامة .

اتفقنا إذن ان الممالك عنصرًا ونظامًا لم ينتهوا سنة ١٥١٧ ، وعلى هذا يجب أن نحمل عنوان هذا الكتاب على مفهوم سقوط أو أخرة السلطنة المملوكية الرسمية فقط .

(١) عن العرق الغالب فى الأزهر انظر :

ونتر ، ميكال ، المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى ، ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم -
سحت الطبع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويشير ابن زنبيل الى قضية مهمة طال جدال المؤرخين حولها وهى : هل كان اتجاه السلطان سليم العثمانى الى مصر مجرد صدفة ، وانها لم تكن هى هدفه الأساسى بخروج جيشه من الأناضول ، وهل كان خروج الغورى بجيشه الى الشام مسألة فيها تسرع ؟

والواقع أن مثل هذا السؤال فى محله نهائى ، وتحتاج الاجابة عليه لبعض التفاصيل التاريخية قبل تحليل اقوال ابن زنبيل .

لقد كان الاتجاه الأساسى للدولة العثمانية منذ نشأتها اتجاهها أوربيا ، بل لقد كان الاتجاه الأساسى للعناصر التركية حتى قبل قيام إمارة أورخان اتجاهها أوربيا كذلك . لقد كان الاسلام ديناً له وجود حقيقى فى شرق أوربا حتى قبل سقوط القسطنطينية فى يد جيوش محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ ، بل لقد كان التوجه العام لبعض جماعات السلاجقة — وهم أيضاً أتراك — كان فى اتجاه الأناضول وشرق أوربا ، ومنذ أيام أورخان الأول (١٣٢٦ م) ، كانت القوات العثمانية فى البر الأوروبى (٢) ، وفى عهد مراد خان الثانى (تولى ١٣٦٠ م) كان الصراع الأساسى للعثمانيين مع الصرب (٣) ، وفى عهد بايزيد الثانى (تولى ١٣٨٨ م) كانت الفتوحات العثمانية الأساسية فى شرق أوربا (٤) . واستمر الحال على هذا المنوال حتى السلطان الثامن بايزيد خان الثانى (تولى ١٤٨١) . بل اننا نكاد نحس فى عهده أن الدولة العثمانية اضحت أكثر ارتباطاً بأوربا من خلال علاقاتها الخارجية السلمية بالإضافة لحركة فتوحها ، وتواجدها الفعلى فى أوربا . لنقرأ هذه السطور الموجزة فى كتاب محمد فريد بك :

« وفى عهد هذا السلطان ابتدأت علاقات الدولة العلية مع مملكة الروس ، وذلك انه بعد تفرق مملكة الروس الأولى عقب اغارة المغول على بلادهم وتسليمهم عليها مدة استخلصها ايوان الثالث Ivan

(٢) معلومات متداولة ومعروفة - انظر على سبيل المثال تاريخ الدولة العلية العثمانية للأستاذ محمد فريد بك ، تحقيق د. احسان حقى ، ص ١٢٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٤) نفسه ، ص ١٣٩ وما بعدها .

وكان يلقب (دوق موسكو) ، وأعاد لها بعض مجدها السابق في سنة ١٤٨١ م وابتدأت العلاقات بينها وبين الدولة في سنة ١٤٩٢ حيث وصل الى القسطنطينية أول سفير روسي ومعه جملة هدايا للسلطان . وبعد ذلك بأربع سنوات أتى اليها سفير آخر واستحصل من الدولة على بعض امتيازات لتجار الروس .

وكذلك ابتدأت في عهده المواصلات الحبية مع مملكة (بولونيا) نعمتت معاهدة بين الملكين في سنة ١٤٩٠ وتجددت في سنة ١٤٩٢ ، لكن لم يلبث هذا الوفاق أن تكرر صفائه بسبب ادعاء كل من الدولتين حق السيادة على بلاد البغدان واغارة ملك بولونيا عليها فالتزم العثمانيون بطرد المجر منها والاغارة على حدود بولونيا بمساعدة امير بغدان نفسه الذي قبل حماية الباب العالي عليها .

وكذلك ابتدأت المخابرات بين الدولة العلية في ذلك الحين وبين البابا اسكندر السادس (بورجيا) وملك نابولي ودوق ميلانو وجمهورية فلورنسا فكان كل منهم يجتهد في محالفة الدولة العلية والاستعانة بجنودها البرية ومراكبها البحرية لمحاربة من عاداه وفي قطع علائق الاتحاد بينها وبين من خالفه . وبذلك المساعي تمكن الايطاليون من ايجاد الففرة بين الدولة وبين جمهورية البنادقة حتى تسبب عنها حرب عوان بينهما فأرسل السلطان جيوشه من البر والبحر لفتح مدينة ليننه من بلاد اليونان وكانت تابعة للبنادقة ففتحت بكل سهولة عقب انتصار المعارة العثمانية على مراكب البنادقة التي اعترضتها عند مدخل الخليج المسمى باسم هذه المدينة . وفي الوقت نفسه اغار والى بلاد البشناق على اقليم فريول ثم اجتاز نهر ايزونطو ووصلت طلائعه الى ارباض مدينة فيشنسا وأوقف القتال بسبب اشتداد البرد . وفي السنة التالية احتل العثمانيون ثغور مودون وكورون وناورين من بلاد اليونان وكانت من أملاك البنادقة في هذه البحار .

فخافت جمهورية البندقية ؛ بسبب تقدم الاتراك الى مركز حكومتها ، من ضياع استقلالها واستغاثت بممالك أوروبا المسيحية فأتجدها البابا وملك فرنسا ببعض مراكب حربية ، وساعدها على محاصرة جزيرة

ميدللى لاشغال الدولة عن بلادها فلم تنجح بل فتح العثمانيون مدينة (رونتسو) الواقعة على بحر الادرياتيک . ولولا عصيان اولاد السلطان عليه ببلاد الاناضول كما سيجىء ، لفتحت باقى بلاد البنادقة لكن اضطرت احوال المملكة الداخلية السلطان ، الى ابرام الصلح مع محاربيه بأوروبا وهم المجر والبنادقة ، فتم الصلح بينه وبين الجمهورية سنة ١٥٠٢ وفى السنة التالية تم الصلح كذلك مع ملك المجر .

فما الذى حدث بعد ذلك مباشرة وجعل الدولة العثمانية تستدير الى الخلف ، وتستدير تاركة أوروبا مستقبلية المشرق العربى ؟ ان هذه الاستدارة ، أو تغير الاتجاه وبهذا الاتساع يبدو ملجأ أو على الأقل يبدو غير واضح تمام الوضوح . حقيقة لقد واجهت الدولة العثمانية منغصات خطيرة من الدولة الصفوية الايرانية التى احتضنت منافسى السلطان سليم على العرش ، بل وحاولت فيما تقول بعض المراجع (٥) التحالف مع الممالك لضرب الدولة العثمانية ، وهو أمر مستبعد لاختلاف المذهب الدينى وهى مسألة كان لها تأثير كبير فى هذا العصر ، وعملت الدولة الصفوية الايرانية على نشر المذهب الشيعى فى شرق الأناضول واستولت على العراق . . هنا كان لابد أن يسارع السلطان سليم لدرء هذا الخطر ، فهزم بالفصل جيوش الفرس بزعماء الشاه اسماعيل الصفوى فى وقعة تشالديران (أو جالديران) شرق الأناضول سنة ١٥١٤ م ، وغر الشاه الى داخل بلاده .

وهنا نجد خلافا واضحا بين رواية محمد فريد ورواية ابن زنبيل ، فمحمد فريد يقدم لنا الفتح العثمانى لمصر كعمل مقصود انتقاما من مشروع تحالف (لم يتم) بين الفرس الصفويين وبينهم ضد العثمانيين بينما لابن زنبيل يذكر أن السلطان الغورى آوى قرقورد أخا سليم ومنافسه على العرش « . . فهرب أخوه قرقورد الى مصر واستجار بالغورى . فأبى أن يمكنه منه فاشتدت العداوة بين الغورى وبينه حتى وقع ما وقع » ويذكر ابن زنبيل ايضا أن علاء الدولة عامل الغورى على

مرعش في الشام رفض أن يبيع الأعلاف والمؤن لجيوش السلطان سليم التي كانت تتقدم في معركة دفاعية ضد الشاه اسماعيل الصفوي ، مما أدى الى خسائر كبيرة في الدواب والعسكر العثمانية .

« قال الراوى : ومما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليما لما غزا على اسماعيل شاه سلطان العجم وجاء — أى السلطان سليم — بالعساكر على البيرة (بين حلب والثغور العثمانية) وكسان نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى ، فأمر علاء الدين أهل مرعش الا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئا من المأككل ولا من غيرها ، فهات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بين الغورى وسليم .. وحصل للسلطان سليم من ذلك غم لا مزيد عليه .. فأشار عليه وزراؤه أن يرسل يعلم الغورى بذلك .. فأجابه الغورى بأن علاء الدولة عاص أمره .. ثم كتب الغورى الى علاء الدولة خفية يشكره على ما فعل ويفريه على قتال السلطان سليم .. » . نحن هنا إزاء رواية تظهر السلطان سليما والجيوش العثمانية حريصة على علاقات سلمية مع الممالك ، فالجند العثمانيون يريدون شراء المؤن ولم ينهاها ، والسلطان سليم يشكو للغورى فعل عاقله . وكان كل عسكر الغورى عند خروجه من مصر يعتقدون أنهم انما خرجوا من مصر مدججين بالسلاح مع الغورى ؛ لأنه بنوى عقد صلح بين الشاه الصفوى وبين السلطان سليم فيما يقول ابن زنبيل ، وهو شاهد عيان ، وارسل الغورى عشرة من عسكره المدججين بالسلاح لمقابلة السلطان سليم فلما دخلوا عليه اصطفوا صفوا واحداً « فنظر اليهم السلطان سليم مليا وامتلأ بالغيظ ثم قال للأمير مغلباى : يا مغلباى ، استاذك (أى الغورى) ما كان عنده رجل من أهل العلم يرسله لنا ؟! وانما أرسلك بهؤلاء العشرة يرعب بهم تلوب عسكرى ويخوفهم برؤية أجناده ، لكن انا اكيد بمكيدة أعظم من مكيدته ، ثم أمر برمي رقبة مغلباى وجعاعته » وبعد وساطة « أمر بحبس مغلباى ورعى برقبة العشرة قدام أوطاته (خيمته) واحداً بعد واحد وهو ينظر اليهم .. ثم أحضر مغلباى وحلق ذقنه وألبسه طرطورا ، وأركبه حمارا

أعرج معقوراً ، وقال له : قل لأستاذك بجهده واه أنا حضرت
إليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف .. » وهكذا بدأت الحرب .

نحن إزاء رواية تظهر الغورى متحدياً مستفزاً وتظهر أنه كان يمكنه
تجنيب مصر والشام هذا الغزو العثماني ، خاصة أن الرمال يقول لنا
أنه — أي الرمال عندما تنبأ للغورى — من خلال ضرب الرمل — أن
ملكه سينتهي على يد من أول اسمه (سين) ، لم يخطر على بال الغورى
قط أن هذا الشخص يمكن أن يكون السلطان سليم ، إذ إن الغورى كان
مؤكداً أن هذا لا يمكن أن يكون لأن الروم (يقصد العثمانيين) لا يمكن
أن يجسروا على قتاله أو دخول مملكته ، وأنها كان الغورى يشك في
واحد من أمرائه الماليك هو الأمير سيباي ، لذلك كان السلطان الغورى
يرفض كل نصيحة من سيباي نائب الشام الذي نصحه بالبقاء في مصر
وأن يقوم هو بقتال ابن عثمان عنه لكن الغورى رفض ، وكان كلما كتب
سيباي إلى الغورى يحذره من خاير بك نائب حلب « وأنه ملاحى على
أبناء جنسه » لم يكن الغورى يسمع له لاعتقاده أن سيباي هو المقصود
بنبوءة العراف (الرمال) بأن زوال ملكه يكون على يديه .

« .. وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة هي من سيباي ،
وما قصده إلا أخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف البين ،
ولا يظن أو يخطر في فكره أن السلطان سليم يقدر يدخل أرض مصر أبداً
لما يعلم من شجاعة الجراكسة .. »

ما دام الأمر كذلك فلم كل هذه التحرشات والاستفزات !؟

ومن الباحثين الغربيين الذي هدته تحليلاته إلى شيء مما ذكره
ابن زنبيل ، الباحث ميكيل ونتر Michael Winter (٦) الذي يذكر
أنه « .. حين قاد سليم جيشاً قوياً في شمال الشام لم يكن واضحاً
ما إذا كان يوجه جيشه نحو الماليك أو الفرس . وكان تقدم الجيش
الملوكي بقيادة قنصوه الغورى خطوة غير عادية حتى لو كانت دفاعية
مخسب ، وكان لسليم مبررة في اعتبارها عملاً حربياً .. »

(٦) في كتابه : المجتمع المصري تحت الحكم العثماني . تحت الطبع . الهيئة المصرية
العامة للكتاب — ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم

ويقول في موضع آخر : « .. ومن الأمور بالغة الأهمية للتاريخ السياسى والاجتماعى لمصر تحت الحكم العثمانى أن العثمانيين سرعان ما قرروا الإبقاء على الممالك وتم دمجهم فى الحامية العثمانية ... وفى سبتمبر قبل أن يغادر سليم مصر مباشرة صدر عفو عن الممالك فخرجوا من مكانهم يرتدون ملابس الفلاحين .. » بل ويحدثنا ونتر أن العثمانيين كانوا قد قدموا المساعدة البحرية للممالك قبل سقوط دولتهم « وفى نهاية القرن الخامس عشر صارت العلاقات الدولية فى الشرق الأوسط أكثر تعقيداً فجأة ، اذ حرم اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح الى الهند مصر من عوائد التجارة فى التوابل ؛ فأسهم ذلك فى زيادة مصاعب الدولة الشديدة أصلاً ، كما أدى امتداد النشاط البرتغالى التجارى والعسكرى الى المحيط الهندى الى تهديد البحر الأحمر والأماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ، ولم يستطع الممالك أن يتخذوا موقفاً ضد البرتغال لأنه لم تكن لديهم قوات بحرية ؛ مما دعاهم الى الاتجاه للعثمانيين من أجل العون البحرى وحصلوا عليه .. » .

★★★

نحن فى هذا الكتاب نتعامل مع رجال أو قارىء للطالع ومن هنا فكل ما يحدث وما سيحدث مقدر ومكتوب أو بتعبير آخر يجرى بالقضاء والقدر خيره وشره من الله سبحانه ، وفى ظل هذا من المفروض انه لا يبحث عن « سبب » للأحداث ما دامت الأمور واثمة « حتماً » مهما كان ، وهى فكرة فى حقيقة الأمر شائعة ومسيطره فى مجتمعات الشرق ، لم تكن تمنع من إتيان الأسباب فى العصور الزاهرة وكانت فكرة باعثة على السلبية فى عصور الانحطاط (٧) .

إنه يعرض لنا الأحداث وكان الغورى يسعى لهزيمة بنفسه ، ويبحث عن حقه بظلمه ، ولا تخلو صفحة من الكتاب من عبارات على شكلة « إذا أراد الله بقوم خيراً وفق بينهم ، وإذا أراد بقوم شراً ففتنهم »

(٧) راجع مؤتمجمرى وات : القضاء والقدر فى فجر الاسلام وضياءه ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب - سلسلة الألف كتاب الثانى .

« واقع الخلف بينهم » ، « وكل ذلك حتى يجرى القضاء والقدر » ،
 « وإذا أراد الله بأمر بلغه » ، « فسبحان من يغير ولا يتغير » ، « فسبحان
 من لا يحول ولا يزول ولا تراه العيون » ، « ولا تعاند تغلب ولو أنك
 سلطان » ، « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » ، « ولا حول ولا قوة
 إلا بالله العظيم » ، « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملئ لهم ، ان
 كيدى متين - آية » ، « والله في هذه ارادة » ، « لكن اذا تم امر ترقب
 زواله اذا قيل تم » ، « والله يفعل ما يشاء » ، « والله التدبير » ، « الحى
 ما له قاتل » ، « اذا نزل القدر على البصر » ، « لكل شيء آفة من
 جنسه » ، « الله يخون الخائن » ، « من لم يمت بالسيف مات بغيره » . .
 وغير ذلك كثير .

ورغم هذا ، فالحق أن ابن زنبيل لم يغفل تناول الأسباب الحقيقية
 لهذه الهزيمة المنكرة فهو يؤكد في صفحات كتابه ان جيش الغورى كان
 عامراً بالصراع الداخلى ، وانه قدم فى معركة مرج دابق فئات العسكر
 المماليك التى كان يخشى بأسها أو التى كان بينه وبينها عداوة ، بينما احتفظ
 بمماليكه المجاليب بعيداً عن القتال ، مما أوغر صدر الفئة الأولى بل
 وامتنعت عن القتال ، ولم تطع الأوامر فى ميدان القتال ، كما يشير الى
 أن شراف المماليك كانت تنهب اموال المماليك القتلى ويفصل فى تناول
 الصراع الداخلى بين العناصر المملوكية المختلفة . والواقع ان معركة
 مرج دابق حسمت منذ اللحظات الأولى ، ولم يدخل المعركة ضد العثمانيين
 الا عدد قليل رغم ضخامة أعداد جيش الغورى . انها اشبه ما تكون
 بمعركة الساعات الست فى التاريخ المعاصر ، لقد حقق سليم نصراً
 بلا حرب فى معركة مرج دابق ، وكان ميدان المعركة على الجانب المملوكى
 فوضى هائلة ، انسحاباً ، وقامراً ، وفى أثناء الانسحاب نهب المماليك
 بعضهم بعضاً . . وما ذكرته بغض المراجع من قتال على الطرف المملوكى
 لم يكن الا حالات بطولة فردية ، تم التركيز عليها دون التفات للصورة
 العامة . وظهرت المقاومة المملوكية - الى حد ما - واضحة فى القاهرة ،
 على يد طومان باي ، ورغم استمرار الصراعات المملوكية ، وطمع كل
 مملوك فى أن يكون سلطاناً ، الا ان الصورة التى يقدمها لنا ابن زنبيل تظهر
 بطولات مملوكية .

وقد اشار ابن زنبيل لكثافة الفيران العثمانية كسبب من اسباب
 هزيمة المماليك .

القسم الأول

ابن زنبيل الرمال ودخول

العثمانيون المحصر

ولاية بقم: و. عبدالرحمن عبداللہ الشیخ

W. B. E. 1871

W. B. E. 1871

W. B. E. 1871

١ - ابن زنبيل

بين مصادر العصرين المملوكي والعثماني

الباحثون في التاريخ العثماني عامة ، وتاريخ مصر العثمانية خاصة لا غنى لهم عن الرجوع لمصادر الحقبة المملوكية الخالصة (١٢٥٠ - ١٥١٧) ، خاصة من يهتم منهم بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية للتاريخ ، لسبب بسيط وهو ان العناصر الحاكمة - كما سبق القول - كانت في الغالب هي العناصر نفسها في العصرين المملوكي والعثماني على سواء . بل وبعد ذلك ايضا ، كما أن التسيج الاجتماعي وعلاقات الانتاج كانت في غالبيتها واحدة مع اختلافات يسيرة ، رغم محاولات الدولة العثمانية فرض الإصلاح باصدار القوانين وهو امر غير مجد - كما سبق القول - ما لم يصاحبه تغيير في البنية الاجتماعية التي تعد القوانين أحد أساليب تغييرها لكنها بالتأكيد ليست الأسلوب الوحيد .

وقد انعكس التسيج الاجتماعي حتى على فئات المؤرخين أو أنوعهم ، فليس بين أيدينا المؤرخ الفلاح أو ذو الأصول الفلاحية في العصر المملوكي الخالص ، اللهم الا اذا اعتبرنا قصيدة أبي شادوف ذات جذور تمتد للعصر المملوكي . وهذه القصيدة شرحها في العصر العثماني يوسف الشربيني وهو فلاح ايضا فيها يبدو ، أو له أصول فلاحية على الأقل (١) ، وقد وصل الباحثون المؤرخون (٢) إلى أن أبي شادوف ليس شاعرا معروفا بعينه وإنما هو « صوت مجهول عن حال الفلاح » . انه شاعر شعبي مجهول » والمعروف أن الأشعار الشعبية المجهول قائلها ، عادة ما لا يكون واضعها مؤلفا واحدا ، وإنما هي بمثابة تراث تراكمي يضيف إليها كل من يصادفها اذا كانت لديه ملكة الشعر ،

(١) في كتابه « هن الخوف » في شرح قصيدة أبي شادوف .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني . الهيئة العامة للكتاب - سلسلة تاريخ المصريين .

ومن هنا فليس هناك ما يمنع ان يكون لهذه القصيدة الشهيرة اصول تعود الى العصر المملوكى الخالص (١٢٥٠ - ١٥١٧) وانها ان شاعت في العصر العثمانى ، فليس هناك ما يمنع من توغل جذورها عمقا الى ابعد من ذلك ، اما شارح القصيدة (يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربيني) فهو حقيقة تاريخية ، وأنه شرح قصيدة ابى شادوف هذه بناء على طلب الشيخ احمد السندوبى أحد علماء الأزهر (٣) .

وفيما عدا قصيدة ابى شادوف ان جاز استنتاجنا السابق ، فالمؤرخون في العصر المملوكى اما عسكر خالصون او عسكر اداريون ، او اولاد عسكر (اولاد ممالك) وهم المعروفون باسم (اولاد الناس) ، وان كان خاير بك قد اطلق عليهم في بداية العصر العثمانى (اولاد الصرمة) ووصفهم بأنهم صرم اولاد صرم (بضم الصاد وفتح الراء) وجعل لها الباحث مبل ووتر Michael Winter (٤) مقابلا انجليزيا Old Shoes ، أى الاحذية القديمة . ومن المعروف أن خاير بك هو أيضا مملوك وان كان من اصول عرقية مختلفة .

ومن هنا تأتى أهمية ابن زنبيل الرمال ، فقد كان الرجل ضارياً للرمال وليست هذه المهنة من المهن العسكرية او الإدارية ، كما انه لم يكن من (اولاد الناس) الذين هم اولاد الصرمة على حد تعبير خاير بك فيما بعد . وكان مهنة ابن زنبيل أثرها فى عرضه للأحداث التاريخية ، وطريقته فى تفسيرها كما سيتضح فى سياق هذه الدراسة .

وسنستعرض فى السطور التالية اهم الكتابات التاريخية فى العصر المملوكى (١٢٥٠ - ١٥١٧) ، مع نسبة كل مؤرخ للفئة التى ينتمى اليها (عسكرى خالص - عسكرى ادارى - ابن ناس ...) . ان اول من نلقاه هنا هو بيبيرس الدوادار الناصرى المنصورى (ت ١٢٢٥) وهو أمير كان من ممالك المنصور قلاوون ، ومن ممالك ابنه الناصر محمد بن قلاوون من بعده ، وكان بيبيرس الدوادار قائداً عسكرياً لامعاً ، بالإضافة

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فصول ، ص ٥٧ .
(٤) فى كتابه : Egyptian Society under ottoman rule 1517-1798.

الى وظائفه السياسية ، كما كان — كما هو واضح من اسمه — دوا دار ، أى شاغل وظيفة الدوا دارية ، أى حمل دواة السلطان وإبلاغه بالمراسلات الصادرة عنه وتقديم الشكاوى اليه (٥) . ولبيبرس هذا كتابان هما : (التحفة المملوكية فى الدولة التركية) و (زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة) والمقصود بالدولة التركية فى عنوان كتابه الأول دولة المماليك البحرية ، أو الدولة المملوكية الأولى ؛ لأن العرق الغالب على ممالك هذه الدولة كان هو العرق التركى ، وكتابه الثانى بمثابة تاريخ عام للإسلام يفتى سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م . ومن الطبيعى ان يكون الاهتمام الأول لبيبرس الدوا دار فى كتابيه هذين هو التاريخ العسكرى والسياسى ولم يشر الرجل فى قليل أو كثير لأوضاع الفلاحين ، ولا حتى البدو (العربان) .

والمؤرخ العسكرى الثانى هو أبو الفداء المشهور (ت ١٣٢١) وهو من سلالة أيوبية ولكنه اندمج فى الحياة العسكرية والسياسية للمماليك ، فقد صحب أباه مع جيش المنصور قلاوون للهجوم على حصن المرتقب الذى كان بأيدي الصليبيين سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م وكان أبو الفداء خيراً فى شئون الحرب ، فقد كان « يخرج مع جيوش المماليك سواء ضد المغول أو الأرمن ، كما كان عليماً بالأحداث العسكرية والسياسية التى كان هو شاهد عيان لها ، بل وشارك فى صنع بعض أحداثها » (٦) . وكتاب أبى الفداء المشهور هو (المختصر فى أخبار البشر) ومن الطبيعى أن يركز أبو الفداء على تفاصيل أخبار الشام التى فيها نشأ ، ومن الطبيعى أيضاً ألا يذكر شيئاً عن فلاحى مصر أو الشام أو حرافيش مصر أو زعر الشام (الزعر والمفرد ازعر ، هو ابن البلد غير المملوك ولا البدوى فى بلاد الشام) وان اهتم بأخبار العربان باعتبارهم عناصر عسكرية ، ويعرض أبو الفداء تاريخه منذ بداية التاريخ الإسلامى على النسق الحولى (عام فعام) ويركز على وفيات الأعلام حتى سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور . العصر المماليكى فى مصر والشام . القاهرة . النهضة العربية ، ١٩٦٥ ، ص ٤٦٦ .

(٦) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند المسلمين . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١ . ص ١٢٩ .

وعندما سئنا هذين المثالين على المؤرخين العسكريين ، كنا نقصد انهم عسكريون بالمفهوم المملوكي ، فلم يكن هناك فصل بين ما هو عسكري وما هو سياسي في هذا العصر ، فكل عسكري هو سياسي بالضرورة ، وهو عسكري في نطاق مصلحته الشخصية أو نطاق مصلحة مجموعته أو شرفه أو عرقه ، فهو يمارس السياسة لصالحه في نطاق مجموعته ، وهو يمارس السياسة في نطاق مجموعته ضد المجموعات الأخرى ، وهو يمارس السياسة اذا وصل الى السلطنة للاحتفاظ بمقعده خلال دوامة من الصراعات الداخلية ، وعينه في الوقت نفسه على الحدود مترقبة العدو الخارجي . . . انه بالضرورة (بتاع كله) . وهو مصطلح متغلغل في التاريخ المصري ، لكنه ان كان صالحاً لعصور مضت ، فقد اصبح مدعاة للتخلف في عصور لاحقة .



فاذا انتقلنا للمؤرخين الاداريين وهم ذوو خلفية عسكرية ودينية بالضرورة ، والاختلاف بينهم وبين المؤرخين العسكريين الآنف ذكرهم في الدرجة لا في النوع ، فقد فاق المؤرخون الاداريون زملاءهم الآنف ذكرهم في زيادة تبحرهم في علوم عصرهم ، وتوليهم مناصب متعلقة بالتنظيم والادارة ودواوين الإنشاء ، ومن هؤلاء ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) وهو من أسرة تولت ديوان الإنشاء بمصر لفترة تقرب من قرن من الزمان وكان تلميذا لابن تيمية المشهور ، وعمل بالقضاء وقد أصابه بعض مما يصيب القرييين من السلطان فأمر السلطان الناصر محمد بمصادرة أمواله وسجنه ثم عفا عنه ، وفي فترة لاحقة عزل من وظيفته ورسم أو فرض عليه الترسيم وهو مصطلح يعنى تحديد الاقامة . وكتاب ابن فضل الله العمري الذي يهتما هو (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) وهو كتاب موسوعي لكنه يحوى جزءاً تاريخياً حوليا يصل الى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ، ومن المتوقع أن يشير مثل هؤلاء المؤرخين الى عناصر المجتمع كله من فلاحين وعربان وأهل نمة بالإضافة طبعا للطبقة الحاكمة .

أما أبو العباس أحمد المعروف بالقلقشندى لنشأته في قرية قلقشندة (قرقشندة كما ينطقها العوام - في محافظة القليوبية مركز طوخ الآن) وصاحب كتاب (صبح الأعشى في صناعة الانشا) ، فقد التحق بالعمل في ديوان الانشا في عهد الظاهر برقوق واستمر في العمل فيه حتى وصل لدرجة رفيعة ووافته منيته سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، وهو لم يكتب كتابه هذا ليكون مرجعا للباحثين في التاريخ وإنما ليكون دليلا للعاملين في ديوان الانشاء (قريب من وزارة الخارجية الآن) ومن هنا ؛ فأننا نجد فيه فيضا من المعلومات عن المراسلات والألقاب والتواقيع كما تعرض لفئات المجتمع والقبائل وغير ذلك .

★★★

وفي فترة من الفترات ، كان من غير المقبول أن يعمل أبناء الممالك في السلك العسكري بحكم انتفاء مبدأ التوريث في المجال العسكري (مناصب أو اقتطاع) فلم يكن أمام هؤلاء إلا العمل في ميدان التجارة أو إدارة مشروعات حرفية وخدمية (حماية أو حباكية .. الخ) واتجهت طائفة منهم للعلم ، وقد عرف هؤلاء بأنهم (أولاد الناس) فهم ليسوا أرقاء كآبائهم وإنما لهم آباء معروفون وأمهات معروفات ، وكان أهل مصر يحترمونهم ربما أكثر من آبائهم على أساس انه « لم يمسسهم الرق » وإنما ولدوا أحرارا ، وربما لم يكن أهل مصر على وعى بأن (للرق) أو (للعبودية) أو « لجماعة الممالك » تراثا يورثونه لأبنائهم جيلا بعد جيل كما يورثونهم ملامح وجوههم وبياض بشرتهم .. الخ ، وثمة سمة اجتماعية أخرى لأولاد الناس هؤلاء هي أنهم نشأوا مدللين في (حجور النساء) على حد التعبير الشائع ؛ فلم يهتم آباؤهم بتعليمهم فنون القتال وانصرفوا عنهم لشراء ممالك جدد كانوا أداتهم في الحرب والصراع . ويلاحظ أن نظرة هؤلاء الممالك من أولاد الناس للتركيب الاجتماعي لم تكن تختلف عن نظرة المؤرخين العسكر ، فهم يهتمون بالتاريخ العسكري والسياسي ويسجلون وفيات المشاهير ، ولا يشيرون للتاريخ الاجتماعي إلا لما ، وعندما كنت أعد دراسة لرحلة عبد اللطيف البغدادى لمصر التي تعرض فيها لفترة جفاف المت بمصر فأكلت الأخضر واليابس حتى

أكل الناس الرمم والجيف بل ولحوم البشر أيضا ، رايت أن أعارض ما ذكره عبد اللطيف البغدادي بها ذكرته المراجع الملوكية ، مهالني أن المؤرخ من أولاد الناس كان يخصص أكثر من ثلاثة أرباع ما يكتبه عن العام الذي يؤرخ له لوفيات الاعيان من أمراء وقضاة ، ويخصص أقل من الربع بقليل للفتن والدسائس بين جماعات الماليك ثم لا يفرد للمجاعة وأحوال أهل البلاد الا سطرًا أو سطرين يختهما بانخفاض النيل وأن الناس من أهل البلاد أكل بعضهم بعضاً ، وانتهى الأمر عند ذلك . على أية حالة ، فمن مؤرخي هذه الفئة :

— ابن أبيك ، صاحب كتاب (كنز الدرر أو الدرر المطلوب في أخبار بنى أيوب) وعرفنا شيئاً عنه من خلال الاشارات الواردة في كتاب (العصر المالكي في مصر والشام) (٧) .

— وأبن دتقاق ، صاحب كتاب (الجواهر الثمين في سير الملوك والسلطين) (٨) .

— وخليل بن شاهين الظاهري في كتاب (زبدة كشف المالك وبيان الطرق والممالك) .

وابن تغرى بردى صاحب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وهو كتاب مشهور .

— وابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور ، واسمه الكامل أبو البركلت محمد بن إياس الحنفى (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) وقد تناول ابن إياس الوقائع التاريخية نفسها التي تناولها ابن زنبيل الرمال وتعرض بالتفصيل للمعارك بين الماليك والعثمانيين قبل سقوط دولة الماليك ودخول مصر في حوزة الدولة العثمانية ظاهراً ، وأن ظلت في حقيقة الأمر على نحو أو آخر في أيدي الماليك . ومن الطبيعي أن يكون ابن

(٧) تأليف د . سعيد عبد الفتاح عاشور .

(٨) قرأنا ما أورده د . عاشور عنه في كتابه الآنف ذكره .

اياس (ابن الناس) متعاطفاً مع الممالك حزيناً لذهاب دولتهم غير مرحب بالعثمانيين غير سعيد بقيام دولتهم ، ونفضل هنا ايراد جانب من بدائع الزهور يتناول فيه الحرب بين طومان باى والقوات العثمانية ، وهو جانب مما تعرض له ابن زنبيل ايضا ليثقف القارىء على طريقة التناول عند الكاتبين ، وعدم اختلافهما فى الحقائق الأساسية وان كانت اللبس الاجتماعية ، وطريقة التفكير الشائعة فى هذه الفترة أوضح ما تكون عند ابن زنبيل لأسباب وضحاها فى غير موضع من هذه الدراسة . فيما يلى نص ابن إياس عن موقعة الريدانية (شمال القاهرة) وهى الموقعة التى أصبحت بعدها السلطنة المملوكية فى حكم المنتهية (٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م) (٩) :

« ... فلما كان يوم الخميس التاسع عشر من ذى الحجة (١٠) وقعت كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك الا ان السلطان « طومانباى » لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق (١٠) ، فحصن الوطاق بالمكاحل (المدافع) ، وصف هناك الطوارق ، وصنع عليها تساتير من الخشب وحفر خندقاً من الجبل الأحمر الى غيطان ، وقد تقدم القول على ذلك ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل وعليها زكايب فيها عليق ، وعلى أكتابها صنّاجق كبار بيض وحمر يخفتون فى الهواء ، وجمع عدة ابقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، وان الحصار يقيم مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج أقام يومين ، فلم يجسر السلطان طومانباى أن يتوجه اليهم ، ولو توجه اليهم وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب » .

« فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله الى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومانباى ذلك زعق النفير

(٩) ما بين القوسين اضافة من الباحث .

(١٠) الوطاق هى الخيمة الكبيرة تعد للقادة ، وتعنى أيضاً خيام المعسكر والجمع وطاقات . عن احمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل .

في الوطاق ونادى السلطان العسكر بالخروج الى قتال عسكر ابن عثمان فركبت الامراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا ، وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء ، واثبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم ، فلاقى الجيشان في أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق ، فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لالا بن عثمان وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان الى تربة الأمير يشبك الدوادر . وقتل في هذه المعركة ابن ابن سوار قتل في الريدانية ودفن على جده سوار في تربيته التي تجاه تربة يشبك الدوادر ، وكذلك قتل هناك سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر .

«ثم ان العثمانية تحاربوا وجاءوا افواجا افواجا ، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية مطرشوهم بالبندق الرصاص ، فقتل من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الامراء المتقدمين جماعة ، منهم أريك المكحل وآخرون متهم ، وجرح الأتابكي سودون الدوادرى جرحا بالغا وقيل انكسر فخذه في غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادر . فلم تكن الا ساعة يسيرة مقدار خمس درجات ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من العبيد الرماة والممالك السلحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، فلما تكاثرت عليه العثمانية وزاى العسكر قد قتل من حوله ، خاف على نفسه أن يقتبضوا عليه فطوى الصنjq (١١) السلطانى وولى واختفى ، وقيل إنه توجه نحو طرا (١٢) ، وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر ... » .

«... ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا الى القاهرة وقد ملكوها بالسيف عنوة ، فتوجهوا جماعة من العثمانيين الى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس

(١١) العلم أو الشارة .

(١٢) سجن معروف بهذا الاسم .

وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية غاظلقوهم
 أجمعين ، واطلقوا من كان في سجن الديلم والرجبة والقاعة أجمعين .
 ثم توجهوا الى بيت خابر بك المعمار أحد المقدمين فنهبوا ما فيه ، وكذلك
 بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المبشرين
 ومساكين الناس وصارت الزعر (١٣) والغلمان ينهبون البيوت في حجة
 العثمانية ، فانطلق في أهل مصر حجرة نار . ثم دخلوا جماعة عدة من جمال
 السقايين وصارت العثمانية تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك ،
 وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد (١٤) والعبيد السود ، واستمر
 النهب عمالا في ذلك اليوم الى بعد المغرب ، ثم توجهوا الى شون القمح التي
 بمصر ويولاق فنهبوا ما فيها من الغلال . وهذه الحادثة التي وقعت لم
 تمر لأحد من الناس على بال وكان ذلك مما سبقت به الاقدار في الأزل (١٥) ،
 وقال الشيخ بدر الدين الزيتوني في هذه الواقعة :

نبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
 واصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هي القاهرة . . .

» ومن هنا نرجع الى أخبار ابن عثمان ، فانه لما نزل الوطاق
 الذي نصبه في بولاق عند الرصيف أقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم ،
 فلما كانت ليلة الاربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن
 عثمان الا وقد هجم عليه الاشرف طومان باي بالوطاق واحناط به ،
 فاضطربت أحوال ابن عثمان للغاية ، وظن انه مأخوذ لا محالة ، وأشيع
 انه هجم عليه بجمال وهي محملة ساسا وأطلق فيها النار ، فاحترق بغض
 خيام من وطاق ابن عثمان ، ووقع فيهم السيف تحت الليل فقتل من عسكر
 ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجم الغفير من الزعر
 وعياق بولاق من النواتية وغيرها وصاروا يرجمون بالمقاليع وفيها الحجارة ،
 واستمروا على ذلك الى ان طلع النهار فلاقاهم الأمير علان الدوادار

(١٣) الزعر ، جمع أزرع ، والمقصود العوام من أهل المدن ممن ليسوا بمالك أو بدوا
 وهي تقابل الفلاحين من أهل القرى .

(١٤) المرد جمع أمرد أي لم تثبت لحيته ولم يظهر شاربه ، والفرض مفهوم .

(١٥) فكرة الجبر أو المقدر والمكتوب وهي أوضح ما تكون عند ابن زنبيل كتفسير
 للأحداث ، كما وضحتها في غير هذا المكان في هذه الدراسة .

الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك وقعة تشييب منها النواصي فملكوا منهم رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر والى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى الذى كان بالريدانية . ثم ان الممالك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت بعد المغرب . واشيع ان العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية والحارات على العثمانية كما كانت العثمانية تكبس البيوت والحارات على الممالك الجراكسة » .

« ومثلما تعمل شاة الحمى فى قرض يعمل فى جلدھا »

« فصاروا الاتراك (١٦) كل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ويحضرهون بها بين يدى السلطان طومان باى وصار الطالب مطلوب . فلما كان يوم الخميس سادس المحرم اشتد القتال بين العثمانية وبين الاتراك ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان ثم ان العثمانية طردوا الاتراك من بولاق وجزيرة النيل وملكوها منهم ، ثم طردوا الاتراك من الجزيرة الوسطى الى الناصرية وملكوها منهم ثم إن الاتراك خرجوا عقد قنطرة قديدار ، خوفاً من العثمانية أن يهجموا عليهم ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عماد الدين التى فى الناصرية وقبضوا منها على ممالك جراكسة فأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، وفيهم صفار وشيوخ . ثم ان العثمانية طردوا الاتراك عن الناصرية الى قناطر السباع » .

« ثم إن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى بالصليبية وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبية الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر ثم رسم بحفر خندق فى رأس الصليبية ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند رأس الدولة ، وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدة البقر . ثم ان السلطان رسم بحرق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من

ذلك ، وأشيع أن السلطان قسم العسكر اربع فرق : فرقة الى جهة مناطر السباع ، وفرقة الى جهة الدولة ، وفرقة الى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهة باب زويلة . فلم يقاتل من المماليك السلطانية الا القليل ، وصاروا يختفون في الاسطبلات خوفاً من القتال ، وقد دخل الرعب في قلوبهم من العثمانية ما بقى يخرج منها « (١٧) » .

« ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا على مصر العتيقة ، وطلعوا من على القرافة الكبيرة ، وملكوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا الى ضريحها وداسوا على قبرها وأخذوا فناديلها الفضية والشمع الذي كان عندها ، وسط الزاوية ، وقتلوا في مقامها جماعة من المماليك الجراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا احتشوا بها . ثم ان السلطان قصد بهدم مناطر السباع وطلع جماعة فوق موازن الجامع المؤيدي ، وصاروا يرمون على الناس بالبنق الرصاص ويمنعونهم من الدخول الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلوعوا لهم الاتراك وقتلوه في المنذنة اثر قتلة » .

« ثم صارت القتل من الاتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق الى مناطر السباع والى الرملة والى تحت القلعة ، وفي الحارات والأزقة من الاتراك والعثمانية ، وهم أبدان بلا رعوس . وهذا والعريان وآتفة عند قنطرة الحاجب وهم يشلحون الناس ويعرونهم من أثوابهم ، ويقتلون من يلوح لهم من العثمانية ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على القاهرة ونهبوا أسواقها ودورها . ثم ان السلطان طومان باي نادى في القاهرة أن كل من ممك أحدا من عسكر ابن عثمان وطلب منه الإيمان فلا يقتله . ومن العجائب أن السلطان طومان باي لما ظهر خطب باسمه على منابر القاهرة في يوم الجمعة ، وكان في الجمعة المخيبة خطب باسم « سليم شاه بن عثمان » فكان كما يقال :

لا تياسن من فرج ولطف وقوة تظهر بعد ضعف

(١٧) يعطى ابن زنبيل تفسيراً أعمق لهذا الموقف وهو الصراع بين المماليك المجلبيين والمماليك الأمراء . وتفصيل السلطان الغوري قبل موته لفئة مماليكه المجلبيين .

« فاستمر السلطان طومان باى يتتبع مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى عددهم ، من يوم الأربعاء الى يوم السبت طلوع الشمس ثامن المحرم ، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا فى بيوتهم ، وتفرقت الأمراء كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان وبعض ممالك سلطانية وبعض أمراء منهم شار بك الأعور وآخرون من الأمراء العشرات ، فلما ظهر له الغلب هرب وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى أفعاله ، فكان كما يقال :

قليل الحظ ليس له دواء ولو كان المسيح له طبيب

« وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان ، وقد غلبت أبنهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك فى الكتاب مسطوراً (١٨) . ولما هرب السلطان طومان باى وقع فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، فلما انهزم صبيحة يوم السبت ثامن المحرم طفشت العثمانية فى الصليبية وأحرقوا جامع شيخو ، فاحترق سقف الايوان الكبير والقبلة التى كانت به كون أن السلطان طومان باى كان به وقت الحرب وأحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز ، ثم قبضوا على الشرفى يحيى بن العباس خطيب الجامع وأجسروه الى بين يدي سليم شاه بن عثمان فهم يضربون عنقه ، غلبوا بلغ الخليفة ذلك ركب واتى الى ابن عثمان وشفيق فى ابن عباس وخلصه من القتل ، ولولا كان فى إجله فسيحة لضربوا عنقه فى الجبال ، وقاسى شدة عظيمة من الطرية » .

« ثم إن العثمانية طفشت فى العوام والفلان من الزعر وغير ذلك ، ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح ، وربما عوقب من لا جنى ، فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة الى الرملة ومن الرملة

(١٨) هذا هو التفسير الإيجازى لسيرة الأحداث فعلاً وواقعياً عمق الفكرة (فكرة القضاء والقدر) فى هذا العصر خاصة ، مع أن هناك أسيايا أكثر وضوحاً ، ككثافة النيران العثمانية ، والحزازات العيقة بين الممالك مما جعلهم - كما كانوا فى معركة مرج دابق قبلها - على حالة خلاف مستمر . وفكرة المقدر المكتوب أكثر ما تكون وضوحاً عند الرمال باعتبار مهنته ، كخسار للوم .

الى الصليبية الى قناطر السباع الى الناصرية الى مصر العتيقة ، فكان مقدار من قتل في هذه الواقعة فوق العشرة آلاف انسان في مدة هذه الأيام الأربعة ، ولولا لطف الله تعالى لكان لعب السيف في أهل مصر قاطبة .

« ثم ان العثمانية صارت تكبس على الممالك الجراكسة في البيوت والحارات فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه . ثم صاروا العثمانية تهجم الجوامع وتأخذ منها الممالك الجراكسة ، فهجموا على جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغير ذلك من الجوامع والمدارس والمزارات ، ويقتلون من فيها من الممالك الجراكسة فقل قبضوا على نحو ثمانمائة ما بين أمراء عشرات وخاصكية وممالك سلطانية فضربوا أرقابهم أجمعين بين يدي ابن عثمان . وقيل ان المشاعلى الذى كان هناك كان افرنجيا ، وقيل كان يهوديا من الاروام ، فكان اذا ضرب عنق احد من الممالك الجراكسة يعزل رؤوسهم وحدها ورؤوس الغلمان والعربان وحدها ثم ينصب الجبال على الصواري ويعلق عليها تلك الرؤوس في الوطاق الذى في الجزيرة الوسطى . وكان المشاعلى اذا جز رأس الممالك يرمى جثثهم فى البحر . وأخبرني من اثق به انه شاهد جثة الأمير « قانسوه روح لو » أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطيا ، وهى مرمية قدام سبيل السلطان والكلاب تنهش فى مصارينه وتسبح بطنه ، فانه كان رجلا جسيما . وقتل في هذه الواقعة الأمير « يخشباى بن قانم » الذى قرّر أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطبلخانك والعشرات والخاصكية وغير ذلك ، صارت الجثث مرمية فى الرملة الى سوق الخيل إلى الخيبيين والكلاب تنهش أجسادهم ، وصارت الخيول فى الرملة وفى الأسواق والأزقة ، وقد قتلوا بالبيدق الرصاص . . . »

« . . . ومن هنا نراجع الى اخبار السلطان طومان باى ، فانه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المناوات ، وقيل بوردان ، فانكسر عسكر السلطان طومان باى كما تقدم القول على ذلك ، فلما انكسر توجه الى نحو تروجة بالقربية فلاقاه « حسن بن مرعى » وابن أخيه « شكر » مشايخ البخيرة فى ضيعة تسمى البوطة فعزم « حسن بن مرعى » و « شكر » على السلطان طومان باى هناك ، وكان « حسن بن مرعى » بينه وبين

السلطان طومان باى صداقة قديمة ، فأركن له طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة ، ثم أن السلطان طومان باى أحضر الى حسن وابن أخيه شكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه انهما لا يخونانه ولا يغدرانه ولا يدلسان عليه بشئ من أسباب الملك ، فحلفا له على المصحف سبعة أيمن بمعنى ذلك فطاب حينئذ قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عنده ، فلما استقر عنده احتاطت به العربان من كل جانب ، وأرسل أعلم السلطان سليم شاه بذلك ، فأرسل اليه جماعة من عسكره قبضوا عليه ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به الى ابن عثمان . فلما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حوله ونشقتوا فى البلاد وتمت الحيلة على السلطان طومان باى ، وخاتمه حسن ابن مرعى بعد أن حلف له على المصحف الشريف وأركن اليه ، وكان حسن ابن مرعى من أعز أصحاب طومان باى ، وله عليه غاية الفضل والمساعدات من أيام السلطان الفورى ، وأقام عنه بما عليه من المال ، فلم يذكر له شيئا من ذلك ولا أثر فيه الخير ، فكان كما يقال فى المعنى :

لا تركن الى الخريف فمأؤه مستوخم وهواؤه خطاف
يمتنى مع الأجسام مشى صديقها ومن الصديق على الصديق يخاف

» فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدي ابن عثمان كان عليه مثل لبس العرب الهوارة زمت وعليه شاش وملوطة بأكمام كبار ، فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له وعاتبه ببفض كلمات ، فلما خرج من قدماه توجهوا به الى خيمة أقام بها وأحاطوا به الانكشارية بالسيف لأجل الحفاظ به ، فأقم هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر إنابة ، فلما وردت الأخبار الى القاهرة بمسكه فصار طائفة من الناس تكذب بمسكه وطائفة تصدق بذلك . فأقام السلطان فى الوطاق عند ابن عثمان وهو فى الحديد الى يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الأول من تلك السنة وكان ذلك اليوم يوم الخميس ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر ، فعدوا بالسلطان طومان باى من بر إنابة الى بولاق ، فظلموا به من هناك وهو راكب على اكديش (١٩) وهو فى الحديد ،

(١٩) فرس هجين ، والجمع اكديش . واكادش . فارسية دخلت التركية . محمد السعيد سليمان ، تفاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتي من الدخيل .

وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكان السلطان طومان باي لما قبضوا عليه اقام في الوطاق عند ابن عثمان نحو سبعة عشر يوما ، وكان اشيع ان ابن عثمان يرسل طومان باي الى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له من بعد ذلك ما سنذكره . وفي مدة اقامة ابن عثمان في الوطاق فكانت العثمانية يطوفون في المحينة نهارهم كله ، ومن بعد العصر يرجعون الى الوطاق يباتون به » .

« فلما بلغ ابن عثمان ان الناس لا تصدق بهمسك طومان باي فدفع من ذلك وعدى به ، فلما طلع من بولاق شق من المقبس وقدامه نحو اربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ، فطلع من على سوق مرجوش وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس يطول الطريق حتى وصل الى باب زويلة وهو لا يدرى ما يصنع به فلما اتى الى باب زويلة انزلوه من على الفرس وارخوا له الحبال ووقفت حوله العثمانية بالسيوف ، فلما تحقق انه يشنق وقف على اقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : اقرءوا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ، ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك ، فلما وضعوا الخية في رقبتة ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس وعلى جسده شاياء جوخ احمر ، وفوقها ملوطة مبيضاء باكهام كبار ، وفي رجله لباس جوخ ازرق » .

« فلما شفق وطلعت روحه صرخت الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والاسف ، فانه كان شابا حسن الشكل سنه نحو اربع وأربعين سنة وكان مجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وفتك منها ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات في نفر قليل من عسكره ، ووقع منه في الحرب امور ما لا تقع من الأبطال . وكان لما سلقوا عليه السلطان الغورى جعله نائب الغيبة عنه الى ان يحضر من حاب فساس الناس في غيبة السلطان احسن سياسة ، وكانت في غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك . فلما مات السلطان الغورى عمه وتسلمت عوضه ، اطل من المظالم اشياء كثيرة مما يعمل في أيام

الغورى ، ولم يشوش على أحد من الناس فى مدة سلطنته ، ولا يقبل فى أحد من الناس مراقبة ولا صادر أحدا من المباشرين فى مدة سلطنته ، ولما وصل ابن عثمان الى الشام وقصد أن يخرج اليه فشكى ان الخزائن خالية من الأموال ، فقالوا له الأمراء وجماعة من المباشرين : افعل كما فعل السلطان الغورى وخذ اجرة املاك القاهرة سبعة اشهر وخذ على الرزق والاقطاعات خراج سنة . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك ، وقال : ما أجعل هذا أن يكون فى صحيفتى .

« وكان ملكا حليما قليل الأذى كثير الخير ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، فانه تسلطن رابع عشر شهر رمضان ، وانكسر وهرب تاسع عشرين ذى الحجة . وكان فى هذه المدة فى غاية النكد والتعب وقاسى شدائد ومحنا وحروبا وشرورا وهجاجا فى البلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويلة ، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته ، وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه ، وتوجهوا به الى مدرسة السلطان الغورى عمه ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك ، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت أخباره كأنه لم يكن ، وقد قلت من أبيات :

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولى وزال كآته لمن ينكرا
شنقوه ظلما فوق باب زويلة ولقد اذاقوه الوبال الأكبرا
يا رب فاعف عن عظام جرمه واجعل بجنات النعيم له قبرا

« وكان شنق السلطان طومان باى من سعد سليم شاه بن عثمان ولم ينتج أثره من بعد ذلك ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيها تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولا علق رأس سلطان على باب زويلة قط ولم يعهد بمثل هذه الواقعة فى الزمن القديم ، ومن عهد سوار شاه لما كلبوه على باب زويلة لم يعلق عليه من له شهرة طائلة غير السلطان طومان باى . »

ضربنا امثلة للمؤرخين العسكر ، والعسكر والاداريين ، وابناء العسكر (اولاد الناس) ، لكن هذا لا يعنى انه ليست هناك ثنات اخرى من المؤرخين لهذا العصر فلدنيا الذهبى (شمس الدين احمد) المتوفى ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م المنحدر من اسرة تركمانية مقرها ديار بكر (شرق تركيا الحالية) وكان والده يعمل فى صياغة الذهب ومن هنا اتى اسمه (الذهبى) وقد انشغل بالعلم وتولى وظائف ذات طابع دينى فى دمشق ، وعرف عنه اتقانه للحديث النبوى ، ومن أهم كتبه (تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام) انتهى فيه الى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) . وهو يركز — كالمؤرخين الأتف ذكرهم — على الوثائق العسكرية والسياسية ، لكنه يفوقهم باهتمامه بالنشاط الدينى .

وهناك أيضاً المؤرخ والعالم الدينى الشهير ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) وقد ولد فى مصر وغاش فيها ومات بها ، أما العسقلانى فنسبة الى اصل أسرته ، ولا يبدو ان ابن حجر مملوكى الاصل او حتى تركى ، فهو فى الغالب من اصول عربية ، وقد حقق ابن حجر شهرة كبيرة فى علم الحديث ، وكان قاضى قضاة الديار المصرية مدة تزيد على العشرين عاماً وفقاً لما ذكره شمس الدين السخاوى تلميذه ، وقام بتدريس الحديث والفقه ، وتولى الخطابة فى جامع عمرو ابن العاص والجامع الازهر ، وأهم مؤلفاته التاريخية إنباء الغمر بآباء العمر (٢٠) بداه بسنة ميلاده ٧٧٩ هـ (١٣٧٣ م) وانتهى به سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) (٢١) ، وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه أقرب لروح أهل مصر وأكثر توازناً ، وقد اعتمد على مصادر شفهية بالإضافة للمصادر الأخرى ، وهو يهتم بالجوانب الدينية والشرعية بحكم خلفيته الدينية المتينة ، وهو يستخدم الشهور القبطية باعتبار استخدامها امراً شائعاً خاصة فى الأرياف وان كان تاريخه الأساسى بطبيعة الحال بالشهور والسنوات الهجرية ، ونورد فيما يلى قبساً من كتاباته تبين اهتمامه

(٢٠) حققه ونشره الأستاذ الدكتور حس حبشى ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثئون الإسلامية ، ٣ مج .

(٢١) قاسم عبده قاسم . الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين . ص ١٨٤ - ١٨٧ .

بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية : « وفي ثمانى عشر صفر (سنة ٨٢١ هـ) صرفت (السلطان) القاضى الحنبلى محب الدين أحمد بن نصر الله (البغدادى الحنبلى) وكان محب الدين أحسن بأنه يعزل نمكر بأن سأل ناظر الجيش أن يسأل له السلطان فى الإعفاء ، فبلغ ذلك السلطان فأعجب به ، وقال : « لولا أنه رجل جيد ما طلب الإعفاء » وأمر أن يستمر ، فظن حصول مقصوده بذلك من الاستمرار ، فصبر على ذلك مدة ، وسخط منه كاتب السر لأمر اقتضاه فاحتال عليه بأن قال للسلطان : « هذا الحنبلى شيخ كبير وقد تكرر سؤاله الإعفاء وأن يقرر له رزق على جهة حل (أى من مصدر حلال) يأكل منها ويعبد الله ويدعو للسلطان » فأمر السلطان بإجابته لذلك فخلعه ولم يشعر محب الدين بذلك ، فضج ودار على الأمراء فلم ينجح ، وقرر له وقف يلبيها التركمانى .. وكان يظن أنه بما تحيل به يستمر فانعكست حيلته ... » هذا مثال من (المقلب) أو (الذنب) التى شاعت فى العصر المملوكى .

« .. وفيه (عام ٨٢١ هـ) حضر جماعة من أهل دمياط وشكوا من ابن الملاح الكاتب النصرانى وأنه متجاهر باللواط ويستخدم من يكون جميل الصورة من أهل البلد ويبالغ فى اظهار الفاحشة حتى أنه ربما قام بحضرة الناس فخلا به الشاب منهم بحيث لا يواريه الا جدار المخدع أو شبهه ، ثم يخرجان معاً على الهيئة الدالة على المراد . وكثر ذلك منه وأنف جماعة من الناس ومنعوا أولادهم من الخدمة عنده وهو يفسدهم بكثرة العطية ومعاقرة الخمر والفناء مع ما هو فيه من الجاه العريض حتى كان والى البلد يقف فى خدمته ، ومهما قال لا يرد ومهما فعل لا يتعقب ومن نازعه فى شىء أفسد حاله عند ناظر الخاص المتكلم على البلد ، فرفعوا فى أمره قصة تتضمن هذا وغيره من المفاسد ، فعمد له مجلس بحضرة السلطان ، فلما ادعى عليه أنكر ، فقامت البيئة بشىء من ذلك ، فبادر وأسلم وحكم بإسلامه ولقب محب الدين .. وأذعن والتزم وتوجه الى دمياط وحسنت سيرته بالنسبة الى ما كان ، والله أعلم بغيه .. » .

محر هذا ازاء رجل كان ابوه ملاحا ، انضم — ربما كأيبه — لجيوش المسلمين وحارب معهم حتى أصبح له أهمية الممالك ، فوصل من خلال خدمته لعسكرية الى منصب غير قليل شأنه ، وقد كثرت هذه الفئة كثره كبيرة في العصر العثماني ، خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر . اذ انضم آلاف من أهل أوروبا والبحر المتوسط الى البحرية العثمانية بلها في الغنائم ، وشنوا مع المسلمين هجمات على السواحل الأوربية من اليونان حتى إسبانيا ، وراق لبعضهم أن يعلن إسلامه وهو لا يعلم عن الإسلام شيئا ، وكان مسلكتهم الخلقى مشينا ، وعرفوا في المصادر العثمانية باسم العلوج (جمع علج) ، وكان لهم صفات البحارة والقراصنة . وقد وصل بعض هؤلاء لمناصب مهمة بعد ذلك ، ومن المتوقع أن يحاول هؤلاء مواجعة الإسلام مع حياتهم بكل ما فيها ، وليس العكس أي تعديل حياتهم لتتشي مع روح الإسلام وقد ظل تراث هؤلاء لفترة لكنه سرعان ما اختفى والا بماذا نفسر اعتراض عالم دين على حملة الدولة على المخدرات على أساس أنه لم يرد بشأنها نص ، وأن المطلوب هو منع الخمر فقط ، لا شك أن هذا من بقايا تفكير هذه الفئة ، وما معنى أن يتعب واحد من الباحثين نفسه ويسوق الشاهد تلو الشاهد ليثبت أن الخمر حلال ، بينما أثبت العلم الحديث تأثيرها العار على العقل والأعصاب ... الخ .

ثم نأتي أخيراً على ذكر المؤرخ الشهير تقي الدين المقرئزي (ب ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) الذي ولى ديوان الانشاء ، وتولى الحسبة ، وحاور بمكة المكرمة وقام برحلات عديدة « .. والحق أن المقرئزي لم يترك جانباً من جوانب الحياة المصرية دون أن يتعرض له في كتاباته على نحو آخر ، وانعكست ثقافة المقرئزي وخبرته العملية الواسعة في مؤلفاته الكبيرة من المؤلفات التي تناولت تاريخ البشرية والتاريخ الإسلامي العام ، وتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصره (دولة المماليك الجراكسة) ، كما تناولت موضوعات جزئية مثل النقود مجاعات والقبائل العربية والحج ... وأهم مؤلفات المقرئزي الخطط يرميها معروفة باسم المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ..

وهو كتاب موسوعى شامل يضم اشارات قيمة للحياة الاجتماعية والثقافية والدينية فى مصر . وكتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » يتناول المجاعات فى مصر حتى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ، ومن كتبه أيضاً الحولية المعروفة السلوك لمعرفة دول الملوك .

من هذا العرض السابق لأهم المصادر المشهورة عن العصر المملوكى ، يتضح لنا أن هناك عدة مراجع قليلة ، تنسم بالتوغل فى عمق المجتمع المصرى وأوضاعه السياسية لكونها صادرة عن عناصر لا تنتمى للطبقة العسكرية الحاكمة ، وهذه المصادر هى :

— قصيدة أبى شادوف وشرحها اذا وضعنا فى اعتبارنا أنها من الأدب الشعبى الذى تنتجه ضمائر الجوع وبالقالى مهى صالحة للمصريين المملوكى والعثماني المملوكى على سواء ، وهى — أى القصيدة — هى المصدر الفلاحى الوحيد بين أيدينا .

— كتابات ابن حجر العسقلانى ، وهى نموذج لكتابات عربى ، غير بدوى (أى عربى متحضر مستقر) عالم بأمور الدين وكثير من أمور الدنيا .

— كتابات المقرئى القاهرى ابن حارة برجوان .

— كتاب ابن زنبيل الذى نحن بصدده ، فهو ليس كتابا فى التاريخ العسكرى محسب ، وإنما هو حافل بإشارات متكاملة للعناصر المكونة للمجتمع المصرى ، وحافل بالإشارات النفسية والاجتماعية التى تعبر بوضوح عن نسيج هذا المجتمع ، بالإضافة لإشارات المفيدة عن توجهات الدولة العثمانية مما تعرضنا له فى غير موضع من هذه المقدمة .

نحن إذن أمام مجموعة قليلة من المصادر — ابن زنبيل من بينها — ليست من تأليف الطبقة العسكرية الحاكمة .

ونظراً لأهمية الممالك في التاريخ المصري ، ولتاثيرهم الممتد — ربما على نحو أو آخر — حتى تاريخنا الحديث والمعاصر ، عن لى فى فترة من الفترات أن أعدت ثباتاً كاملاً بالمراجع عنهم ، ما نشر منها وما لم ينشر فكانت هذه القائمة غير الكاملة ، وقد حذفت من هذه القائمة المصادر التى تناولتها بالدراسة آنفاً .

— ابن أبيك الدودار ، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٢٦ هـ / ١٢٣٥ م)
 درر التيجان و غرر تواريخ الزمان . مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٠٥ تاريخ .

— ، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٩٩ تاريخ .

— الجزرى ، شمس الدين أبو عبد الله ، تاريخ الجزرى (بفتح الجيم والزاي) مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٩٥ — تاريخ .

— ابن الجيعان ، شرف الدين أبو البقاء (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م)
 القول المستطرف فى سفر مولانا الملك الأشرف قايتباى ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢١٠ — تاريخ .

— ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك — مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة الملك سعود ، رقم ٧٦ ص والمقصود بدولة الأتراك دولة المماليك البحريةية لغلبة العنصر التركى على ممالكها .

— السيوطى ، جلال الدين (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) تاريخ الملك الأشرف قايتباى المحمدي الظاهري ، مخطوط بدار الكتب المصرية . رقم ١٥٥٩ تاريخ .

— ابن خلكان ، أبو العباس (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، وفيات الأعيان واثناء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ — ١٩٧٢ .

— السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت ، بدون تاريخ نشر .

— السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ، عيسى البابى الحلبي ، ١٩٦٧ — ١٩٦٨ .

— وله أيضا ذيل طبقات الحفاظ للذهبي ، دمشق ، مطبعة التوثيق ، ١٣٤٧ هـ .

— ابن شاکر الكتبی ، فخر الدين محمد بن أحمد (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) فوات الوفیات ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

— ابن شاهين ، غرس الدين الظاهري (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٧ م) زبدة كشف المالك وبيان الطرق والمسالک ، تحقيق بال رافيس . باريس ، ١٨٩١ .

— الشجاعى ، شمس الدين (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده ، تحقيق بريارة شيفر ، فيسبادن ، ستاينر ، ١٩٧٨ .

— الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) الوافى بالوفيات .

— ابن عبد الظاهر ، محبى الدين (ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور . تحقيق مراد كامل . القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦١ .

— وله أيضا الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر . الرياض ، مطابع القوات المسلحة السعودية ، ١٩٧٦ .

— العيني ، بذر الدين محمود (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) السيف
المهند في تاريخ الملك المؤيد ، تحقيق فهد محمد شلتوت . القاهرة ،
دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .

— الفزى ، نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١ هـ — ١٦٥١ م)
الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة .

★★★

غذا ما انتقلنا الى الفترة العثمانية وهى الفترة التى يسميها المؤرخون
الواعون الفترة الملوكية العثمانية ، وجدنا جملة من المصادر الأصلية
لم تحظ للأسف بالاهتمام الكافى ، ولم تعد — حتى المطبوع منها —
متوفرة بين أيدي الباحثين ، نذكر منها :

— الديار بكري ، حسين بن محمد (ت ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م) تاريخ
الخميس فى أحوال أنفس نفيس ، القاهرة ، المطبعة الوهبة ، ١٢٨٣ هـ .

— أحمد شلبى ، ابن عبد الغنى الحنفى المصرى ، أوضح الاشارات
غبمن تولى مصر من الوزراء والباشات المعروف بتاريخ العيتى . حققه
ونشره د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

— البكرى الصديقى ، محمد بن أبى سرور ، كشف الكربة فى رفع
الطلبة ، حققه د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، نشر فى المجلة
التاريخية المصرية العدد ٢٣ ، ١٩٧٦ .

— وله أيضا النزهة الجليلة فى ذكر ولاية مصر والقاهرة ، مخطوط
— بمكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة برقم ٤٤٤٥ مجموعة جرت
Garrett .

— وله أيضا التحفة البهية فى تملك آل عثمان الديار المصرية ، مخطوط
بمكتبة فينا .

— الدمرداشي ، أحمد ، كتاب الدرة المصانة في أخبار الكنانة —
مخطوط بالمكتبة البريطانية .

— الورثلاني ، الحسين بن محمد ، نزهة الأتظار في علم التاريخ
والأخبار ، بيروت ، ١٩٧٤ (رحلة) .

— الصوى ، محب الدين ، الدرة المضيئة في الرحلة المصرية —
مخطوط بجامعة ييل Yale (رحلة) .

— الفاسي ، أحمد بن محمد الفهرى ، الرحلة (مخطوط بدار الكتب
المصرية — برقم ١٤٠٣ تاريخ) (٢٠) .

هذا بطبيعة الحال الى جانب الوثائق التى تضمها الأرشيفات الوطنية
وغيرها من الهيئات ، وقد أشار بعض الباحثين المصريين الى هذه الوثائق
العربية وقدموا دراسات شاملة عن تكوينها وتصنيفها ومواضعها (٢٢) .

أما الوثائق العثمانية فتقف اللغة حائلا بين المؤرخين العرب وبين
الاستفادة منها ، فقليلون هم الذين باتوا يعرفون هذه اللغة خاصة بعد
كتابة التركية الحديثة بالحروف اللاتينية ؛ مما أوجد فجوة بين التركية
الحديثة والتركية العثمانية ، لكن المطالع فى كتب المؤرخين الأوربيين

(*) استعنا عند سرد هذه المصادر المتعلقة بالحقبة الملوكية العثمانية بما أورده
ميكل ونتر فى كتابه Egyptian Society Under ottoman rule وقد اكتفينا
بالمصادر العربية ، فقد أورد ونتر كثيرا من المصادر المكتوبة بالتركية العثمانية ، بالإضافة
للمراجع الحديثة بلغات أوربية .

(٢٢) د. عبد اللطيف إبراهيم على أهتم كثيرا بوثائق الوقف الملوكية ونشر بعضا
منها فى الدوريات العلمية وفى كتابه دراسات تاريخية واثريّة فى وثائق عن عصر المالك .
كما قدم د. عبد الرحيم عبد الرحمن دراسات مفصلة عن وثائق تاريخ مصر الاقتصادى
والاجتماعى فى العصر العثمانى (١٥١٧ - ١٧٩٨) فى دار الوثائق المصرية فى كتابه
فصول من تاريخ مصر فى العصر العثمانى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ولا تخلو كتبه
الأخرى من إشارات لها . ود. صلاح هريدى فى كتابه دور الصعيد فى مصر العثمانية ،
دار المعارف .

« ميكل ونتر مثلاً) الذين أُتيح لهم الاطلاع على هذه الوثائق فترجموها أو ترجمت لهم ، يكتشف أن في هذه الوثائق أيضاً من المعلومات عن مصر ، فلاحيتها وأعرابها ومالياتها ، وقد قدم لنا ميكل ونتر (٢٢) على سبيل المثال ، معارف جديدة عن جباة الفلاح وهم ممالك أملاكهم فلاح مصري قح ، كما أضافت لمعلوماتنا غير قليل عن دور العربان في حياة مصر السياسية والاجتماعية .

★★★

وقد قدم الأستاذ المحقق بفكرة عن حياة ابن زنبيل لم أجد مبرراً لتكرارها هنا : ولا شك أنني مدين بكتابة هذه الدراسة للفترة التي قضيتها أدرس مقرر « علم التاريخ عند المسلمين » لما يزيد عن عامين في إحدى الجامعات العربية ، مما أتاح لي فرصة الاطلاع على كثير من المراجع في هذا الموضوع .

٢ - الأسلحة والنظم العسكرية

فى عصر ابن زنبيل

ظهرت عدة دراسات ذات طابع تفصيلى عن الممالك (١) من حيث :
نشأة نظامهم ، وتكوينهم العرقى ، والبلطفة التى اقاموها بعد سقوط
الدولة الأيوبية ، وحروبهم التى حققوا فيها انتصارات كبرى ، يوم كانت
طبيعة الحرب تعتمد على البطولة الفردية ، وعلى الأسلحة التقليدية ،
وكذلك حروبهم التى منوا فيها بهزائم ساحقة خاصة بعد استخدام
الأسلحة النارية ، وتغير طبيعة التشكيلات العسكرية ، وكهزيمتهم
الساحقة فى معركة مرج دابق ، أمام العثمانيين سنة ١٥١٦ ، التى
كانت نصراً للعثمانيين دون أن يخوضوا معركة حقيقية ، وكهزيمتهم
أيضا فى معركة الريدانية شمال القاهرة أمام العثمانيين سنة ١٥١٧ ،
وفشلهم فى حرب الاستنزاف التى خاضوها ضد الجيش العثمانى فى
مصر ، وكهزيمتهم الساحقة أمام جيش نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ ،
وكانت الهزائم التى حاقت بمصر بعد ذلك نتيجة التمسك بطبيعة الاجتماع
الملوكى ، كما كان الانتصار الذى حققته مصر فى تاريخها الحديث نتيجة
التخطيط المحكم ، وتحديث السلاح ، وتغيير روح الاجتماع الملوكى
الى حد ما كما سيتضح من هذه الدراسة .

ولنبداً بتكوين الجيش الملوكى وطبيعة تشكيلاته بشئ من التفصيل
بالرجوع لابن زنبيل وغيره من المصادر المتاحة .

يشير لنا ابن زنبيل الى الكراهية الشديدة بين مجموعات (القرانيص)
ومجموعات (الأجلاّب) ، حتى إن السلطان الغورى آثر (الأجلاّب) ولم
يجعلهم يخوضون حيث الخطر ، وفى الوقت نفسه امتنع (القرانيص)

(١) كالدراسات التى قام بها المؤرخون : السيد الباز العرينى فى كتابه (الممالك)
وسعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه (العصر المملوكى) وعلى إبراهيم حسن فى كتابه
(دراسات فى تاريخ الممالك البحرية) وغيرهم .

عن خوض المعركة أسوة بالأجلاب ، ونعني بالمعركة هنا معركة مرج دابق . فمن هم القرانيص ؟ ومن هم الأجلاب ؟ وما سبب الاحتداد الفنية بينهما ؟ . القرانيص هم ممالك السلاطين القدامى (في حالتنا هذه ممالك السلاطين السابقين على الفوري) ، وهذا يعني أن القرانيص لم يكونوا فئة واحدة ذات تراث انتهائى واحد ، وبالتالي لم يكونوا فئة عسكرية واحدة ، أو كتيبة مترابطة ، إذ لم يكن يجمعهم إلا كراهيتهم للسلطان (الحالى) واجترار أيام العز التى عاشوها زمن السلطان أو السلاطين الذين عاشوا قبل ذلك في كنفهم . وكانوا بطبيعة الحال بحكم (الأقدمية) أو الأسبقية الزمنية يعتبرون أنفسهم (أهل الخبرة) ومن سواهم مجرد صبيان ، وكان كل واحد من القرانيص يعتبر نفسه أميراً أو قائداً . ومن الطبيعى أن ينظر السلطان (الفوري في حالتنا هذه) نظرة شك لانتباء كل واحد منهم الى استأذه الذى اشتراه وأعتقه ، كما كان من الطبيعى أن ينظر لهم — بشكل عام — كمصدر خطر ، ومن باب أحداث التوازن الاستراتيجى بين القوات ، فقد كان يفرق في المعاملة بينهم خاصة من الناحية المالية ، وأن يحاول زرع الفتن بينهم ، إلا أنهم ، على أية حال ، كانوا على وعى كامل بأنهم قرانيص وأنهم غير الأجلاب .

والأجلاب أو المجلوبون هم الممالك الذين قام السلطان الحالى (الفوري في سياقنا هذا) بشرائهم أو الحصول عليهم بطريقة أو أخرى . وعند وصولهم يضمهم في معسكرات خاصة بهم (طبقات) فيعيشون معاً ، ويتم تعليمهم وتدريبهم ، ثم يعتقون ويفرض لكل منهم راتب (جامكية) ، وتقدم لهم الاقطاعات والسلاح ، بالاضافة الى إكرامهم بالخيل والقماش وما الى ذلك .

وفي هذه الحال يمكننا ان نتبين مدى الحقد الكامن في صدور القرانيص ضدهم ، خاصة اذا تجاوز السلطان الحد بدموى التوازن الاستراتيجى بين القوات ، فهذه الحجة لا بد أن يكون لها حدود ، ولنطالع أثر هذا التجاوز في معركة مرج دابق فيما كتبه ابن زنبيل :

« .. ولم يقاتل في هذا اليوم — يقصد مرج دابق — أكثر من ألفي فارس .. وأما جلبان الغوري الذين هم مشقرواته فلم يتحركوا من مواضعهم ولم يهزوا رمحا ولا جبزوا سيفاً ... وعلى ما قيل أن السلطان الغوري أمر بأن أول مرة يخرج القرانصة — أو القراتيص — لكونهم اعرف بالحرب من الجلبان ، وكان قصده أن ينقطع القرانصة ليكتفى شرهم ويصفو له الوقت فإنه كان يحسب حسابهم ... فأمر بتقديبهم في الحرب وأخذ جلبانه ٥٠ فتغيرت نيات القرانصة وقالوا : نحن نقاتل بأنفسنا مع النار وانت واقف تنظر إلينا كالعين الشامتة ما تأمر أحد من ممالكك يخرج للميدان فكان العسكر مختلفاً في بعضه مفسود النية ... » .

ونأتي بعد ذلك للخاصكية ، وهم تربية السلطان شخصيا أي أنهم أكثر قربا وحظوة من الأجلاب ، فالأجلاب يشتريهم السلطان ويعهد لمقدمي الممالك بتدريبتهم وتعليمهم أو الإشراف على تعليمهم ، أما الخاصكية فالسلطان (الغوري في حالته هذه) هو نفسه الذي يشرف على تدريبتهم وتعليمهم ، ومعنى هذا أنهم بمثابة حاشية له بالإضافة لمهامهم العسكرية ، فهم ملازمون للسلطان دوما ، وقد زاد عددهم في أواخر العهد المملوكي ، وامتازوا بحسن المظهر وأناقاة الركوب والملبس .. ولم يشرب ابن زنبيل لهذه الفئة خاصة وهم قليلو العدد على أية حال ، إذا قيسوا بالجلبان البالغ عددهم ١٣ ألف مقاتل ، جرى تحييدهم بالخلافات الداخلية كما سبق القول فلم يؤدوا دورهم في معركة مرج دابق . أما الخاصكية ، فيمكن استنتاج موقفهم من عبارات عامة أوردها ابن زنبيل مثل : « وباتوا — أي الجيش المملوكي كله على غير حرب ولكن لم يهنا لأحدر منهم نوم من مكر بعضهم لبعض » وهو يصف في هذه العبارة جيش الممالك في اليوم السابق على معركة مرج دابق . وأن كان ابن زنبيل قد أشار لبعض البطولات التي قام بها بعض الخاصكية كالأمير بخشبای (أمير مجلس) ، لكن بشكل عام لم يرق الخاصكية المدلون بدورهم في الحرب ، فقد تقدم الأمير سودون العجمي إلى الغوري والمعركة دائرة وقال له : « يامولانا السلطان أين جلبانك ؟ أين خاصكيتك (خاصيتك) هكذا عملت بنا ولازلت قائما في حظ نفسك حتى أهلكت نفسك وأهلكتنا معك » .

نأتى الى تشكيل آخر من تشكيلات الجيش الملوكى وهم أجناد أو
عساكر الأمراء ، فقد كانت مكانة كل أمير مرهونة بعدد مماليكه وكسان
هذا بدوره مرهونا بحالة الأمير المالية ، فعندما يحدثنا ابن زنبيل عن
الأمراء الذين خرجوا مع الغورى ، فان هذا يعنى حديثه عن تشكيلات
عسكرية صغيرة بعدد هؤلاء الأمراء ، ولما كان ابن زنبيل يقرر لنا ان
كل أمير من هؤلاء كان يقضى موت السلطان ليكون هو السلطان بدلا
عنه ، اتضح لنا أن هذه التشكيلات — تبعا لأمرائها — كانت تتنافس فى
تقديم التشكيلات الأخرى فى ساحة الوغى ، أى أنها — أى هذه التشكيلات
كانت تتنافس فى البعد عن الخطر ، لا اقتحامه فيما عدا استثناءات ليست
كثيرة ذكرها لنا ابن زنبيل .

أما فرقة أولاد الناس ، فكانت بمثابة فرقة احتياطية . والأصل فى
النظام الملوكى أن أولاد الممالك لا يدخلون فى التشكيلات العسكرية ،
لكن حدث فى أواخر العصر الملوكى أن تم إدراجهم فى هذه التشكيلات ،
وكان هذا فى الغالب رغبة فى استفادتهم من الرواتب والاقطاعات ، إذ
كان العمل الأساسى لأولاد الناس هو التجارة وإدارة المشروعات ، ولم
يكونوا يواظبون على التدريب ويدعون فقط للحرب عند الضرورة ،
وكانت الأفكار المعروفة عنهم أنهم تربوا « فى حُجُور أمهاتهم » وأنهم
« خيخة » أو « زيزة » على حد العبارة التى أوردها ابن زنبيل .

وأخيرا أجناد الحلقة ، وهم الأكثر عدداً والأقل تجانسا ، وكانوا
بمثابة الجيش الدائم للدولة ، وقد انضم اليهم بعض أصحاب الحرف من
الطوائف المختلفة ، واعتبر من أجناد الحلقة العربان ، وفى وقت السلم
كان على كل أربعين من أجناد الحلقة مقدم إلا أنه لم يكن له سلطة عليهم
إلا أثناء الحرب ، فهم بمثابة عسكر احتياطى لا يدعى للخدمة العسكرية
إلا إذا قامت الحرب ، وهم وإن كانوا يأترون بأمر السلطان إلا أنهم
ليسوا ملكاً له ولا من عتقائه وكان منهم حراس القلعة ، وكان السلطان
يرسل منهم بعض السفراء فى مهام خاصة ، وكان عدد كبير منهم يخدمون
فى بيوت الأمراء (عساكر مراسلة) وفى أواخر عهد الممالك أصبح

أجناد الحلقة مجرد هيكل ، لم يكن فيه من الصفات العسكرية سوى الاسم فيما يقول واحد من الباحثين الغربيين (٢) .

ومن بين أجناد الحلقة نخص العربان بالفترات التالية ، باعتبارهم عنصرًا عسكريًا لعب دوراً مهماً . لقد فاقمت انتماءاتهم القبلية انتماءهم للسلطان ، وكانوا في أحيان كثيرة ينتظرون هزيمة أحد الطرفين لينتصوا على الطرف المهزوم ليسلبوه ، رغم أنهم قد تزأوجوا مع الممالك في بعض الحالات وأصبحوا نسباء ، فقتنصوه العادلى لجأ الى عربان الشرقية أنسيائه ، وقبيلة الهواوير فى الصعيد تزوجت مع الممالك فيما يقول الباحث ميكل ونتر (٣) .

كان الجيش المملوكى اذن كبير العدد (بفتح العين) ، بل والعدد (بضم العين) أيضا ، ومع هذا حاقت به هزيمة ساحقة فى مرج دابق ، ومن بعدها الريدانية ، وكان تركيبه كما ذكرنا آنفاً ، ولم يكن هذا التركيب أو هذا التشكيل يبشر بالنصر ، وهنا من حق القارئ أن يتساءل : أليس هذا هو التركيب نفسه — أو قريباً منه — الذى حقق الممالك من خلاله انتصارات عظمية على المغول والصليبيين ؟ والاجابة : بلى ، لكن الوضع لم يكن هو الوضع ، ونؤجل الاجابة عن هذا السؤال حتى نستعرض أسلحة المعركة ، فالسلاح ليس مجرد أداة قتالية ، وانما هو بفرض نوعاً خاصاً من العلاقات أو لنقل أنه يؤثر فى طبيعة الاجتماع العسكرى (٤) .

لقد كان محور المهارة المملوكية يتمثل فى الفروسية وبالنسبة للعسكر المشاه استخدام السيف والرمح والبلطة (الناس) وما الى ذلك ، وقد حدثنا الرحالة العرب والأجانب عن مهارتهم الفاتكة فى هذين المضمارين ، فالرحالة الايطالى الأصل ، البرتغالى الانتماء لودفيجو فارتيما بحدثنا — بانبهار — عن مهاراتهم الفائقة فى هذا المجال . لقد وصفهم فارتيما

(٢) بولياك ، الاقطاعية فى مصر وسوريا وفلسطين . ترجمة عادل زعيتر . بيروت ، ١٩٤٨ ، ص ٩٨ .

(٣) فى كتابه : المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى .

(٤) John Ellis, The Social history of the machine Gun, London, (٤)

Groom Helm, 1975.

الذى تسمى باسم الخنجر يونس المصرى ، والذى زار مصر فى آخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر - بأنهم كالجان وتحدث عن قدرتهم القتالية باعجاب شديد ، بل ان ابن زنبيل يشيد بذلك ولا ينكره رغم هزيمة المماليك أمام العثمانيين ، وأكثر من هذا فقد اعترف السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان بمهاراتهم الفائقة فى هذا المضمار ، وسنتناول هنا بشيء من التفاصيل أسلحتهم .

ولنبدأ بالسيف وهو سلاح استخدموه بكثرة مشاة وفرسانا ، وكانت مراكز صناعة السيوف المملوكية فى القاهرة ودمشق وكانت دكاكين السيوف فى القاهرة فى منطقة بين القصرين ، وكانوا يبللون بها بالسوم ، وعرفت هذه المواد التى يغمسون فيها سيوفهم (بالسقايات) وهى محاليل من البورق والملح ، وملح البول والزرنيخ والفورة على نسب معينة (٥) . والحرب بالسيف سواء للراكب أو للراجل ، تقتضى اقترابا شديدا من الشخصين المتقاتلين . اقترابا يكاد يكون التحاما ، وحمل السيف يحتاج الى قوة بدنية وهو أمر متوفر لدى المماليك ، كما يحتاج لقوة بدنية وحذر وهما أمران تدرب عليهما المماليك جيدا . انه سلاح غردى على أية حال ، وقلما يشترك محاربان فى ملاقاته محارب واحد بالسيف ، فهذا ضد روح الفروسية نظريا على الأقل ، لكن غالبا ما ينسى المتقاتلون مثل هذه المسائل فى مواجهة اعتبارات عملية .

أما الرمح ، فهو أيضا ضمن الأسلحة التى أنتجتها المصانع الحربية المملوكية ، وكانوا يصنعون قضبته من خشب الزان أو من (غاب) أو بوص مصمت مستورد من الهند ، ومنها نوع يركب فيه السهم . والسهم سلاح يقتضى فى بعض الأحيان اقتراب المتقاتلين ، لكنه فى أحيان أخرى يقذف من بعد غير بعيد ليصيب الخصم . وفى هذه الحال يحتاج لمهارة فى التصويب ، والطفن بالرمح - على أية حال - يقتضى مهارة أقل من القتال بالسيف .

(٥) أورد هذه الخلطات أو السقايات أحمد عدوان فى كتابه : العسكرية الإسلامية نقلًا عن : بكتوت الرماح : نهاية السؤال والأمنية فى تعليم أعمال الفروسية . مخطوط بجامعة القاهرة ، ولم نتمكن من الاطلاع عليه . ومحمد بن منكل : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر - مخطوط بدار الكتب المصرية .

أما القيس ، فهو قوس خشبي يشد طرفاه بخيط أقصر من قضيب القوس فيثنيه ويجمله على هيئة قوس ويشد فيه السهم وهو قطعة حديد لها نصول ثلاثة (جمع نصل) ، ويقذف السهم باستعمال اليد أو الرجل أو عن طريق آلة تشبه المنجنيق ، وكانت هناك أقواس لرمى مادة تشتعل بمجرد ارتطامها بالهواء ، ولم تكن كثيرة الاستعمال ، ولم تستعمل في معركة مرج دابق إذ لم يشر إليها ابن زنيل أو ابن أياس ، وهناك طرائق لمقذف سهام كثيرة برمية واحدة ، وهناك سهام تسمى الجروخ استخدمها المماليك وهي عبارة عن « آلة حربية لرمى السهام والنفط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجند الجرخی ، وهو ما نسميه بالسهم الناري » (٦) .

وغنى عن الذكر أن مدى الرمي للسهام أقل بكثير من مدى رمي المقذوف من البندقية العثمانية . أما الطبر (بفتح الطاء والباء) فهي القأس الحربية وتلك لا تقذف ، وإنما تحتاج لاقتراب شديد من الخصم ، وكلما كانت المفاجأة شديدة كانت أصابتها أخطر ، وأما الجنبية فهي الخنجر وسميت بهذا الاسم لأنها سلاح مساعد توضع في الجنب ، وكانت تصنع في الزردخانه (دار صناعة السلاح الأبيض) .

وكان من الطبيعي أن يحتزن المماليك لأنفسهم بجولة احترازاات لوقاية أنفسهم ، سواء في حروبهم مع بعضهم وبعضهم الآخر أو مع أعدائهم الخارجيين . فاستخدموا الخوذة من الجلد أو الحديد ، والمغفر الذي يغطي الوجه كاملاً فلا يظهر إلا العينان وقد تمتد أحيانا على الأذرع والظهر فتسمى (رغرب) (٧) وبطبيعة الحال ، فإن هذا لا يغنى كثيراً في مواجهة رصاص البنادق ، كما أن الإصابة أن كانت في البطن أو الجانب الأسفل أدت إلى تخرج الجندي فيقترب منه الأعداء للأجهزة عليه بالدبابيس والطبر والرماح . الخ . وقد تفنن المماليك في أساليب الوقاية وفقاً لاحتياجات عصرهم ، وكان تفننهم هذا مفيداً في عصر ما قبل البندقية ،

(٦) أحمد عدوان ، العسكرية الإسلامية ٥٥ من ٥٨ وقد أرجع هذه المعلومة إلى الهروي في كتابه التذكرة الهروية وكتب أخرى .
(٧) من تعليقات رسوم المتحف الحربي بالقاهرة - القلعة .

ومن ذلك التجفاف وهو شبيه بالدرع واستخدموا القفاز من جلد البقر أو جلد الماعز (حيوان صحراوى) والجوشن لوقاية الصدر والمضض وهو خوذة مسدولة على قفا الحارب وحول رقبتة ، والرانات وهى جوارب طويلة تكسو الساق ، وفى المتحف الحربى المصرى نماذج مختلفة للاتروس العائدة للعصر المملوكى ، وكان بعض المماليك يرتدون قمصانا مصنوعة من الزرد الخالص ، وكان بعضهم يغطى حتى ساقيه بهذه الدروع الثقيلة . من هذا العرض يتضح أن الجندى المملوكى كان مثقلا بالعدد ، ونفهم من رواية ابن زنبيل أن الجيش العثمانى كان جنوده اخف حركة واسرع خاصة فى مرج دابق ، كما نفهم أن السلطان سليم عندما رأى رسل الغورى وهم « فى الحديد » على حد تعبير ابن زنبيل عظم انهم ما أتوا بهذا الشكل الا لارهاب جنوده ، وقال لهم بما يفيد الم يكن لدى استاذكم (الغورى) أحد من العلماء يرسله لنا ، لكنه انما أرسلكم لنا بهذا الحديد (يقصد الدروع وخلافه) كى تنهبوا عناكرنا انه لا مجال لاصابتكم ، ثم أمر سليم — فيما يقول لنا ابن زنبيل — بقتلهم ورميهم أمام المعسكر ليراهم جنوده . وبصرف النظر عن قسوة هذا التصرف ، فيبدو انه كان أمراً ضرورياً لرفع معنويات عساكره وإزالة الرهبة من الجنود العثمانية ، ونفهم من رواية ابن زنبيل أيضا أن جنود العثمانيين كانت رواتبهم أقل بكثير من رواتب الجنود المماليك ، كما نفهم أن مظهرهم كان أقل ابهة وثراء من منظر الجنود المماليك ، وأن أسلحتهم — فيما عدا البنادق وآلات قذف النيران — كانت أقل شأنا مما لدى المماليك ، على أن البنادق وآلات قذف النيران لم تكن هى الوحيدة المسببة للنصر العثمانى ، وانما كان هناك تدخل الجبهة المملوكية الداخلية ، وسنتعرض فى السطور التالية لتجارب انتصرت فيها جيوش أقل تسليحا على جيوش مجهزة بالسلاح ، مع عدم اغفال أهمية السلاح بطبيعة الحال .

كان الجندى المملوكى مثقلا فى فترة زمنية كان السلاح فيها قد غدا اخف وربما أمضى ، وإذا كان التاريخ يفسر بعضه بعضه الآخر فليس خروجاً عن سياقنا هذا أن نذكر أن مسألة تخفيف الأثقال التى يحملها

الجندى ، والتي قد تعودت عن الحركة وبالتالي عن واجبه القتالى كانت احدى شواغل قادة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، خاصة وأنه كان على الجندى أن يعبر حائلاً مائتاً وأن يواجه تلاً رملياً عليه صعوده أو اختراقه ممثلاً فى خط بارليف ، فكان الحل العبقري المستوحى من التاريخ بأن يكون مع كل جندى من نوج العبور الاول عربة يدفعها باليد فيها معداته الثقيلة ، وأن يكفى بحمل ما هو ضرورى جداً على كتفه وظهره ، فيمكنه أن يترك عربته بجانبه ليؤدى واجبه القتالى ثم يدفعها عند تيسر الأمور ، وكان الحل العبقري البسيط أيضاً بإزالة السائر الترابى بقوة دفع المياه بدلا من ضربه بالمدافع فكان هذا — بالإضافة لأسباب أخرى — أحد أسباب النصر .

أما أبراج الحصان فلم يشر إليها ابن زنبيل ويبدو ان الغورى لم يصحبها معه . وأبراج الحصار بمثابة سترة للرجال الذين يشتركون فى جر المجانيق انتقاء لقذائف منجنوقات العدو ، ولم نفهم من رواية ابن زنبيل أن الغورى قد استصحب معه حتى المنجنوقات عند توجهه الى الشام ، ومن الطبيعى ألا يصحب معه دبابات — والمقصود بالدبابات هنا آلات نقب الاسوار ، كما لم يشر ابن زنبيل الى العرادات (آلات قذف النفط المشتعل) وكلها آلات انتجتها المصانع الحربية المملوكية . وهذا يقودنا الى سؤال مهم جداً : ماذا كان يريد السلطان الغورى بخروجه للشام ؟ ان الاجابة عن مثل هذا السؤال توضح أن الهدف لم يكن محدداً لديه ، وبالتالي فهو لم يتخذ القرار الصحيح ، ولم تكن هناك توجيهات للأركان بالهدف الاستراتيجى للمعركة . فابن زنبيل لم يحدثنا عن اجتماع مجلس الحرب ، وهو مؤسسة قديمة فى التاريخ الاسلامى والمملوكى ، وهو مجلس يجتمع برئاسة السلطان وأتابك العسكر ، ويحضره الخليفة العباسى فى القاهرة ، وكان حضوره شرفياً ، ويحضره أمراء العسكر ، من جلبان وقرانيص ... الخ ومهمته تحديد الهدف من الحرب ، والمدى الذى يمكن أن يصل اليه الجيش المقاتل ، ومتى يستمر ومتى يتوقف ، والغاية المراد تحقيقها . . اننا نقرأ فى كتب التاريخ عن مجلس الحرب الذى عقده قطز عندما تلقى تهديد المغول ، وسنتعرض فيما بعد لذلك

بشيء من التفصيل . اننا نفهم من رواية ابن زنبيل أن الجنود الماليك فوجئوا بأنهم سيخوضون حرباً وهم في الشام قبل قيام الحرب بساعات محدودة ، أو لنقل بيوم واحد . ونفهم من ابن زنبيل أنه حتى الأمراء فوجئوا بأنهم سيحاربون ، وأن كثيرين كانوا يظنون أن السلطان خرج لعقد صلح بين السلطان سليم وغريمه اسماعيل الصفوي الشيعي الفارسي . . المسألة إذن مجرد حملة هي بمثابة (تشريفة) أو (استعراض للقوة) وتتناقض أقوال الرواة الذين يروى عنهم ابن زنبيل ، فهو يقول لنا أن الأمير سيباى نصح السلطان الغوري بعدم الخروج من مصر ، وأن يأمر أمراءه في الشام بمواجهة العثمانيين أن كان ثمة خطر لكنه رفض ، فإن كان حقاً يريد الخروج للحرب فأين المنجنيقات والعرادات . . ولم يقل لنا ابن زنبيل أنه قسم المهام على جيشه قبل الخروج ، ولم يجمعهم ليقسموا يمين الولاء والطاعة أثناء القتال ، وهو إجراء له أهمية بالغة في هذه العصور وربما في كل العصور .

كان انتقال الغوري إلى الشام إذن إجراء استغزازياً لا مبرر له ، وبصرف النظر عن تناقض روايات ابن زنبيل ، فإن الأحداث التاريخية التي اعتبرت ذلك تفيد أن السلطان سليم لم يكن ينوي بالفعل أن يتوجه إلى مصر ، وأنه طوال اقامته فيها كان قلقاً على الأوضاع في الأناضول والروميالى (أوروبا العثمانية) ، وكرر السلطان سليم لكل من قابله من أمراء الماليك أنه لم يكن ينوي القدوم إلى مصر ، بل لقد عرض على طومان باى بعد هزيمة الغوري أن يذكر اسمه في الخطبة ويسك اسمه على السكة ويعترف به خادماً للحرمين الشريفين وكفى ، لكن طومان باى لم يوافق بعد أن أجبره بعض أمراء الماليك على ذلك .

والتاريخ كما قلنا يفسر بعضه بعضاً ، فقد كان أحد أسباب نصر أكتوبر المجيد أن التوجيه الاستراتيجي كان واضحاً ومحددًا : العبور والتوقف عند الممرات الحاكمة والتوقف لفتح باب التفاوض من منطلق تفاوضي جيد ، وتمسكت القيادة بذلك بعد تحقيقه معطية أنناً صماء للمطالبين بالاستمرار ، ذلك لأن هدفها الاستراتيجي المقرر منذ البداية

والمحسوب حسابه قد تحقق بالفعل ، والأمير كان مختلفاً تماماً في حرب ١٩٦٧ ، فالتشواهد مما قرأناه من تعرضوا لهذه الحرب (هيكل وغيره) أنه لم تكن هناك نية حقيقية للحرب ، بل ونلهم أن جهوداً بذلت مع طول كبرى لمنع نشوب الحرب ، ففيم إذن كانت الإجراءات السابقة على الحرب ؟ . لكن حرب ٧٣ المجيدة قامت بعد أن تعلم المصريون الكثير ، ويبدو أيضاً أن طبيعة الاجتماع العسكري كانت قد ابتعدت على نحو أو آخر عن التراث المملوكي .

نعود للمسألة التي أثارناها من أن استخدام العثمانيين للبنادق والأسلحة النارية لم يكن هو السبب الوحيد لهزيمة المماليك في مرج دابق والريمانية ، فثمة تجارب عسكرية حتى في القرن السابع عشر ، حيث أصبحت الأسلحة النارية أكثر تطوراً من الأسلحة النارية التي استخدمها العثمانيون تفيد إمكانية تحقيق انفجار من قوى لا تستخدم هذه الأسلحة إذا تمكنت بكثافة بشرية وتخطيط سليم (٨) ، ومن ذلك أن البرتغاليين في بداية القرن السادس عشر كانوا يستخدمون البنادق قديمة الطراز muskets ، ومع هذا لم تحصم هذه البنادق الهدف الاستراتيجي لقواتهم المهاجمة في جنوب إفريقيا ، واكتشف البرتغاليون أن مدافعهم لا تصلح مع هؤلاء الذين ينبطحون على الأرض حتى كأنهم جزء منها ثم يشرعون إذا حان الوقت في استخدام أسلحتهم البدائية ، وفي القرن السابع عشر أدرك الهولنديون أن أهل البلاد من الخواسين قد عرفوا أن بنادق المشاة الهولنديين Dutch muskets تحتاج بعد إطلاقها لفترة زمنية لإعادة تعميمها reloading ؛ فكانوا ينتهزون هذه اللحظات للانقضاض على أعدائهم ، وأدرك أهل البلاد صعوبة إشعال فتيل

(٨) اعتمدنا في كثير من الأفكار الواردة في هذه الفقرة على :

عبد الرحمن عيد الله الشيخ : أثر الأسلحة النارية في مجتمعات جنوب إفريقيا في القرون ١٧ و ١٨ و ١٩ ، دراسة في التاريخ الاجتماعي العسكري . مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود ، المجلد ١٤ ، العدد ١ ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٩٧ م ، ص ٦٢ - ١٠٣ .

البندقية أثناء هطول المطر to ignite in rain فكانوا ينتهزون
 حطول المطر لشن هجوم مضاد بأعداد كبيرة ، وواجه الزولو الأسلحة
 النارية بحصار العدو ومحاولة الاقتراب منه بأعداد كبيرة ، وقد أثبت
 تكتيكهم هذا نجاحا ملحوظا في مواجهة الأسلحة النارية لهذا العصر ،
 رغم كثرة ضحاياهم ، وظل رجال الحرب والمؤرخون لمدة تصل إلى
 نصف قرن يكتبون مندهشين من هول انتصارات قبائل الزولو على
 الجيش البريطاني ، ذلك لأنهم — أى الزولو — بمثابة شعب مسلح
 (وليس مجرد جيش) وكنوا يقتربون من العدو فجأة بأعداد كبيرة ،
 وكل هذا لم يمنعهم من محاولة الحصول على السلاح الفارى وفهمه
 والتدريب عليه في حدود إمكانياتهم .

وتروى لنا صفحات التاريخ الهزيمة المفكرة التى لحقت بحملة عكس
 على السودان سنة ١٨٨٣ ، فقد استغل المهديون طبيعة الأرض ،
 واستدرجوا عدوهم بعيداً عن مصادر المياه . . الخ ومع أن بنادق
 معركة مرج دابق كانت من البنادق قديمة الطراز التى تحتاج لفترة لإعادة
 التعمير . ولم يحاول المماليك ابتداء خطة لمواجهة هذا السلاح الجديد ،
 لأن طبيعتهم (طبيعة اجتماعهم) لا تتسم بالمرونة من ناحية ، ولأسباب
 أخرى سنوردّها فيما بعد ، وكان العربان بمجرد سماع صوت (البندق)
 على حد تعبير ابن زنبيل يولون الإذبار مسرعين قائلين : ومن الذى يطبق
 النيران ؟! بينما كان الهجوم والالتفاف كافيا لابطال مفعول هذه البنادق
 خاصة باستخدام تشكيل قرنى البقرة الذى استخدمه الزولو وغيرهم ،
 لكن روح القبيلة التى غلبت روح الوطنية أو بمعنى أدق روح الانتماء
 للمماليك جعلتهم يولون الإذبار في مرج دابق والريدانية ، ثم عملوا بعد
 ذلك وبسرعة على إفشاء أسرار المماليك لآل عثمان . ولم يتعلم المماليك
 التطورات العسكرية الحادثة في مجال السلاح ، بل ولم يستوعبوا ضرورة
 تغيير طريقة التشكيل أو حتى الصف لمواجهة ، فوقعوا في الأخطاء
 تنسها عند مواجهة حملة نابليون بونابرت ١٧٩٨ فكانوا أيضا يواجهون
 العدو بصنوف متراصة ، مما يجعل طلقاه لا تخيب أو لا يخيب منها
 كثير ، بينما كانت طريقة الطوابير الطولية المقلدة أو ترك فرجات بين

المقاتلين يؤدي الى ضياع كثير من مقذوفات العدو . لقد واجهوا أسلحة
وبنايرت المتطورة بنفس طريقة الصف التي واجهوا بها آل عثمان
والصليبيين والمغول . ان طبيعة اجتماعهم تجعلهم عنصراً متجمداً يصعب
اصلاحه .

ويروى لنا ابن زنبيل أن رجلاً مغربياً كان قد أتى الى مصر حاملاً
معه بندقية (أوربية) الى السلطان الغورى ، « وأخبره أن هذه
البندقية ظهرت في بلاد البندق (البندقية غالباً) وقد استعملها جميع
العسكر الروم والعرب ، وهى هذه ، فأمره أن يعلمها لبعض ممالكه
وجيء بهم فرموا بخضرته غساءه ذلك ، وقاتل للمغربي : نحن لا نترك
سنة نبينا ونتبع سنة النصارى ... فرزخ المغربي وهو يقول : من
عاش ينظر هذا الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية .. » . ونقرأ في أكثر من
موضع في كتاب ابن زنبيل لعنات على أول من صنعها (أول من استخدمها)
ويروى لنا على لسان امراء الممالك أنها حرام ، واستخدامها لا يدل
على الشجاعة والفروسية فلو رمت بها امرأة لأصابته ، وكيف ترفع
على مسلم ، وكيف توجه النيران الى من يشهد بالوحدانية ... الخ .
وغنى عن القول أن نذكر أنه لا فرق بين أن نقذف النار في وجه من
يشهد بالوحدانية ، وقطع رأسه بالسيف أو بقربطه بالرمح ، أو هتك
جسده تحت أرجل الخيل ، أو حرقه أو اغرقه ... الخ ، وربما كان
المثل المصرى الشائع « اللى تغلب به العيب به » يعود الى أصول
عثمانية في هذه الفترة ، والحقيقة أن استخدام الدين في مثل هذا المجال
نوع من الكذب والعبث ، وعدم القدرة على التكيف وعدم القدرة على
تغيير طبيعة الاجتماع . يقول الباحث ميكل ونتر (١٠) : « وتعد فترة حكم
الشركس أو الممالك البرجية فترة اضمحلال اذا ما قورنت بفترة الممالك
البحرية (التركية) فلم يعد للسلطنة اعداء خطرون ، إذ إن الفرنجة
(الصليبيين) كانوا قد طردوا سنة ١٢٩١ ومع مطلع القرن الخامس
عشر بعد انسحاب تيمور لك من الشام ، لم يعد المغول يشكلون تهديداً

(١٠) فى كتابه : المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى ، ترجمة ابراهيم محمد ابراهيم

(سلسلة الألف كتاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب)

ايضا فلم يطور الجيش طرائق فنية عسكرية جديدة (تكتيكات) ، كما لم يتخذ تكنولوجيات عسكرية جديدة ، ذلك ان الممالك رفضوا استخدام اسلحة نارية وهى التسليح الحديث لهذا الزمان ، معتبرين انها اسلحة لا تمت للفروسية أو الرجولة أو الاسلام ، كما لم يمكن استخدام البندقية من فوق صهوة جواد ونتيجة لذلك مر الجيش المملوكى بفترة طويلة من الركود ... بينما كانت الجارة الشمالية (الدولة العثمانية) تتطور تطوراً سريعاً من امارة صغيرة اقيمت فى بداية القرن الرابع عشر فى الركن الشمالى الغربى من الأناضول .. واشتبكت فى حرب مقدسة ضد البيزنطيين وراحت تتوسع باضطراب على حساب الحكام المسيحيين فى البلقان الموق...، وعلى حساب الإمارات التركية فى الأناضول .. وبعد أن استولى العثمانيون على القسطنطينية ازداد نوجس الممالك من التوسع العثمانى .. وفى نهاية القرن صارت العلاقات الدولية فى الشرق الأوسط — تجافة — أكثر تعقيداً اذ حرم اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح والوصول للهند ، مصر من عوائد تجارة التوابل فأسهم ذلك فى مضاعب اقتصادية ... « لكن الحقيقة أن هذه المضاعب الاقتصادية لم تكن هى سبب جنود العقلية المملوكية وامتناعها عن تطوير قواتها المسلحة ، فقد ظل النظام العسكرى الاجتماعى المملوكى مغلقاً على نفسه لفترة طويلة قبل اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح . فلم تكن المسألة مسألة مشكلة اقتصادية وانما هى فى الأساس مشكلة اجتماعية ، فقد امتلك الممالك — بالفعل — المكاحل (المدافع) لكنهم لم يتوسعوا فى صناعتها بعد زوال الخطر المغولى والصليبي ، ويشير لنا ابن زنبيل الى أربعة مدافع مملوكية تم دفنها فى الرمال فى مصر كما خرج معه للشام امير مكحل (أى خبير مدافع) ، وان كان ابن زنبيل لم يشر الى مكحل (مدافع) مملوكية فى معركة مرج دابق ، ولم تنطلق الا قذيفة واحدة من هذه المدافع المملوكية اطلقها رجل عابر اصم وفقاً لرواية ابن زنبيل .

واذا كان التاريخ — كما كررنا آنفاً أكثر من مرة — يفسر بعضه بعضه الآخر ، فان تغير طبيعة الجندي المقاتل كانت أحد اسباب نصر

أكتوبر المجيد سنة ١٩٧٢ ، ففى هذه الحرب زاد عدد الجنود المؤهلين المتعلمين الأقدر على استيعاب الموقف والأقدر على التطور ، فكان العابرون مهندسين وأطباء ومعلمين ومحاسبين عسكريين ، ومن هنا غدت تبنت الدولة بعد ذلك قضية التعليم كقضية محورية .

وحتى لا يفهم من العرض السابق أن المعركة بين المماليك والعثمانيين كانت معركة بين طرفين حاز أحدهما كل المزايا فانتصر ، وحاز أحدهما كل النقائص والعيوب فانهزم ، كان لابد من التعرض للجيش العثماني المنتصر على نحو ما تعرضنا للجيش المملوكي ، وقد أشار ابن زنبيل لشيء من هذا ، وسنورد فقرات مما أورده في سياقها .

١١٠

فالحقيقة أن القوات المسلحة العثمانية لم تكن تختلف كثيراً من حيث التكوين عن القوات المملوكية ، فالنظام في كليهما مملوكي (قوامه العبيد البيض) ، فما الذي جعل كفة العثمانيين هي الراجحة ؟ أن ذلك يعود الى حزم السلاطين العثمانيين وإحداثهم للتوازن بين (فئات) العسكر فأمسكوا بالعصا بحزم ، وكان التوازن الاستراتيجي بين القوات معلوماً محسوباً له حدود ، والأهم من ذلك أن القوات العثمانية كانت في حالة مواجهة خطر دائم منذ فترة طويلة ، فهي في حالة قتال متواصل سواء في الأناضول قبل توحيدة تحت سيادة آل عثمان ، أو في البلقان حيث اتخذت الحروب طابع الجهاد المقدس ، أو ضد فارس حيث اتخذت الحروب أيضاً طابع الجهاد المقدس ضد الشيعة الذين كان يطلق عليهم الروافض بل وأحياناً الكفار . كل هذا جعل الجند العثمانيين أكثر يقظة واحساساً بالخطر من المماليك المصريين الذين عاشوا في ظل النعمة طويلاً بعد زوال الخطرين المغولي والصليبي . أما من حيث التشكيل والتركيب ، فهو واحد تقريباً كما سبق القول فيها عدا بعض التعديلات على الجانب العثماني اقتضاها دخول الأسلحة النارية ، وفيما عدا قلة الاختلافات العرقية أو العنصرية بين الانكشارية (الينكجارية) الذين

كانوا هم عماد الجيش العثماني في هذه الفترة والفترة السابقة عليها ،
والفترة اللاحقة عليها الى أن تم القضاء عليهم بعد أن استعصوا على
الإصلاح وهو ما سنفكره فيما بعد .

نقرأ في كتاب محمد مزيد بك (١١) : « من أهم أعمال علاء الدين —
أخي السلطان أورخان الأول الذي حكم سنة ١٢٨١ م ، وكان علاء الدين
متوليا لأمور الدولة الداخلية بينما تفرغ أورخان الثاني لتوسيع الدولة
ومقاومة أعدائها — أنه وضع نظاما للجيش المظفرة وجعلها دائمية
أذ كانت قبل ذلك لا تجمع الا وقت الحرب وتصرف بعده ، ثم خشي من
تحزب كل فريق من الجند الى القبيلة التابع لها وانفصام عرى الوحدة
العثمانية .. فأشار عليه أحد فحول هذا العصر واسمه قره خليل بأخذ
الشبان من أسرى الحرب ، وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم
وتربيتهم تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم ابا الا السلطان
ولا حرفة الا الجهاد ، ولعدم وجود اقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من
تحزبهم .. فلما كثر عددهم ذهب بهم الى الحاج بكطاش فدعا لهم
واسماهم بنى تشارى ، اى الجيش الجديد وحرف الاسم بالعربية الى
انكشارية .. » .

هل يختلف هذا النظام في روحه عن نظام المماليك ، بالطبع لا ،
والفارق الوحيد انه لم يكن لاحد الحق في أن يكون لأنه انكشارية
الا السلطان ، وهو فارق جوهري على أية حال .

ومهما يكن من أمر ، ففي مرحلة لاحقة خرج الانكشارية عن حدودهم
وتعدوا؛ مما جعلهم سبباً في تأخر الدولة. وقد أصدر السلطان محمود الثاني
في ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ قراراً بإلغاء هذا النظام بعد أن قتل عدداً كبيراً
منهم ، فحقيقة الأمر أن نظام المماليك (سواء بحرية أو برجية أو
انكشارية) نظام غير طبيعى فمن المحال أن يفلح أحد في تكوين قطيع
من البشر على نحو ما يكون قطيعاً من الثيران ، وإذا كان محمود الثاني

قد أجرى مذبحة للانكشارية سنة ١٨٢٦ ، فقد سبقه محمد على وأقام للمماليك مذبحة سنة ١٨١١ . والقضاء على عدد كبير من المماليك أو الانكشارية لا يحل المشكلة ، إذ إن تراثهم يبقى من خلال ذرائعهم ، ومن خلال تراثهم المتوغل في المجتمعات التي عاشوا فيها ، ولم تكن مصر في عهد محمد على ولا الدولة العثمانية في عهد محمود الثاني قد بلغت مرحلة حضارية تجعلها تدرك أن مجرد اصدار القوانين أو ذبح المماليك لا يكفي لحل مشكلة هذا التراث المملوكي (تراث العبيد البيض) ، فهناك الحل المعماري أي إعادة تصميم المساكن بحيث تنقضى على روح معسكر العزاب ، وإعادة تقنين نظام الترتيبات والمكافآت ليكون قعلا لصاحب الانجاز الأكبر ، ومراقبة تشكيل أى تكتلات في الجهاز الإدارى على أسس مصلحة أو عرقية ، ومراقبة تبادل المنافع بين مسؤولى أجهزة الدولة المختلفة ، ومنع الاحتكاك المباشر مع مسؤولى الجهاز الإدارى قدر الامكان باتجاز المعاملات بالبريد مثلا . إلخ ، ولعل اثاره قضيه (أهل الثقة) و (أهل الخبرة) في الستينيات من هذا القرن هي في حقيقتها إعادة طرح لقضية مملوكية صميمية .

ولم يكن تخلص محمود الثانى من الانكشارية هو المحاوله الوحيدة فقد سبقه عدد من السلاطين في محاولات أخرى مختلفة ، لعل أهمها محاولة جرت في عهد عثمان خان الثانى سنة ١٦٢٢ ؛ لكن محاولته فشلت وقتله الانكشارية (١٢) .

وكما أفسدت الصراعات المملوكية الحياة السياسية في مصر ، كذلك أفسد الانكشارية الحياة السياسية في الدولة العثمانية ، وكما نهب ممالك مصر حصاد جهد الفلاحين من أهل البلاد ، فعل الانكشارية الشيء نفسه في الأناضول ، وان كانت درجة الذل التي حاقت بالفلاحين المصريين أشد وافظع فلم يكونوا من العناصر المقاتلة كسكان الأناضول ، وحقق العربان في مصر بعض المزايا في ظل المماليك لا شيء إلا لانهم عناصر مقاتلة .

ولم يكن ابن زنبيل جاهلاً تماماً الجَهْل بالوضع العثماني ، فهو يحدثنا عن الخلافات بين السلطان سليم وأبيه وأخوته :

« ... فإن السلطان سليم كان له أخ أكبر منه يسمى السلطان أحمد وكان حاكم بورصة ، وكان أخوه قرقورد حاكم البغيسيا ، والسلطان سليم قبل أن يتسلط كان حاكم طرابزون ، ولكنه كان ذا همة وطلب الملك على أخوته فألهه الله تعالى زواج ابنة ملك التتار خان ليكون ظهراً له فتزوجها ، ثم تجرد بعد ذلك لأخذ الملك من أبيه لما سمع من الجواسيس الذين كانت تأتيه بالأخبار بأن أباه السلطان بايزيد ضعيف على موت ، وأنه أرسل لولده أحمد يحضره ليقطعه الملك ... وجرّد سليم العساكر على أبيه الذي أمر بالخروج لملاقاته .. وعاون كمال آغا السلطان سليم ضد أبيه الخ » .

الصورة على الجانبين إذن لم تكن تختلف إلا في التفاصيل ، لكن احساس العثمانيين بالخطر كان أعقق مما لدى مهاليك مصر ، وكان العثمانيون ، كما سبق القول ، فى حالة حرب مستمرة ، بينما كان المهاليك المصريون قد أنسوا للراحة منذ فترة طويلة ، بالإضافة بطبيعة الحال للأسلحة النارية التى كانت لدى العثمانيين ولم تكن لدى المهاليك .

وكان انهيار الانكشارية بعد ذلك فى القرن التاسع عشر يرجع للأسباب نفسها التى أدت لانهيار العسكرية المملوكية ، ومحور هذه الأسباب هو عدم القدرة على التطور واستيعاب الأسلحة الجديدة ، وتغيير تشكيلاتهم وفقاً للظروف المتغيرة ... الخ .

لم يكن سبب تفكك الدولة العثمانية وانهيارها فى النهاية — فيما يقول بول كولز (١٢) الباحث فى التاريخ الاجتماعى — نتيجة قصور فى القوانين والتشريعات ، فقد أخذت أوروبا كثيراً من التشريعات والتنظيمات

(١٢) فى كتابه : العثمانيون فى أوروبا (سلسلة الألف كتاب الثانى — الهيئة العامة

للكتاب) ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ .

العثمانية ، لدرجة أن كتاب كولز الآنف ذكره صدر ضمن سلسلة عنوانها (الحضارة الأوربية European civilization) ، مما يعنى أن أوربا أخفت كثيراً من النظم العثمانية ، كما أن أحد السلاطين العثمانيين العظماء عرفه باسم (القانونى) وأحياناً (الباهر) أو العظيم ، وهو السلطان سليمان ، وفي مرحلة الاتيهار العثمانى يذكر بول كولز نقلاً عن مراقبين معاصرين أن الأجهزة الادارية العثمانية لم تكن تختلف من حيث التركيب عن الأجهزة الادارية الأوربية ، كل ما فى الأمر أن الأجهزة العثمانية كان يشغلها العبيد ويديرونها بروح العبيد (المالك) ، وهناك فرق كبير بين أن يوكل تنفيذ القوانين لثلة من العبيد لا تعمل على تنفيذ روح القانون ، وإنما تدور حوله وتفرغه من معناه تحقيقاً لمصالح « الشرازم » أو التكتلات المصلحية . وإذا تجاوز التطور جماعات المالك عمداً إلى التظاهر بالقوة والتظاهر بالنفوذ أو تشكيل جماعات النفوذ والظهور بمظهر القوة الكاذبة ، لقد كان النظام المملوكى فى فترة من الفترات ذا مزايا عسكرية ؛ لكنه فى كل الأحوال كان لعنة على المستوى الاجتماعى !!

القسم الثاني

واقعة السلطان الغوري



مقدمة

بقلم الأستاذ / عبد المنعم عامر

لم تشهد بلاد مصر فى تاريخها السياسى فترة أظلم من تلك الحقبة التى خضعت فيها لحكم المماليك البحرية ، والجراكسة ، من سنة ٦٤٨ : ٩٢٣ هـ (١٢٥١ - ١٥١٧ م) ، فلقد حاق بأهل مصر فى هذه المدة ما ران على قلوب هؤلاء المماليك الحكام من الاستعباد والقهر (١) ، واشتدت الحياة على المصريين فى نظام الاقطاع الذى صار فيه الفلاح المصرى أجيرا تتنازع ثمار جهوده أهواء الغالبين وذوى النفوذ من الحكام والكشافة (٢) ، ومن هم على شاكلتهم من التابعين .

(١) هذان التاريخان اللذان حددهما الأستاذ المحقق بشيران فقط الى قيام السلطة الرسمية للمماليك وسقوطها ، لكنهما لا يشيران الى فترات الحكم المملوكى الفعلية ، فالحقبة التالية ونعنى بها الحقبة التى تلت الفتح العثمانى لمصر ، كانت ايضا مملوكية فلم يكن للعثمانيين الا الخطبة والسكة وحماية السواحل المصرية ، أما الحكم الحقيقى فقد ظل كما هو فى أيدي المماليك ، لذلك عرفت الحقبة العثمانية لدى عدد كبير من المؤرخين باسم الحقبة العثمانية المملوكية . راجع الدراسة التفصيلية فى صدر الكتاب .

(٢) كان منصب الكاشف (والجمع كشف أو كشفة - بفتح الكاف والشين) منصبا فى الغاية من الأهمية فى عهد سلاطين المماليك ، وكان يفوق منصب والى الاقليم ، ففى عهد دولة المماليك الأولى (البحرية) كان هناك كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه الى جميع أقاليم الصعيد ، وكان الكاشف يسمى والى الولاة وكان له نفوذ كبير على الأقاليم التابعة له ، أما فى عهد المماليك الجراكسة فكان لكل من الوجهين البحرى والقبلى نائب (عاشور ، العصر المالكي ، ص ٣٥٨) واستمر المنصب فى العصر العثمانى المملوكى ، لكن الكشف تحولوا الى مجرد مديرين لقرى الكشفية ونقلت مدة توليهم لتصبح سنة واحدة ، رغم قيامهم بتحصيل المال الميرى ، والاشراف على الجسور وضبط الأمن .. الخ .. واستغلوا مناصبهم للاستيلاء على أراضى الغير والأثراء . (عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن ١٨ ، ص ٤٨) .

ولم تكن مصر في هذا الوقت وحيدة فيما صار اليه امرها ، أو فيما آل اليه حال أهلها ، وانما شاركها في النظام العام للحكم وفي اللون الخاص لأسلوبه القسم الثاني من السلطنة المملوكية ، ممثلا في البلاد الشامية .

فلقد كانت الوحدة قائمة بين مصر والشام منذ أن غلب صلاح الدين الأيوبي الاستعمار في الحروب الصليبية ، وتولى أمر السلطنة وقضى على الروح الانفصالية في البلاد العربية والاسلامية ، فجبر بفعله ذلك الصدع الذي أصاب بنيان الدولة الاسلامية بانهيار الدولة العباسية وسقوط الدولة الفاطمية .

وكانت مصر والشام بعد حكم صلاح الدين بلدا واحدا تحكمه القاهرة ، مقر الدولة ومركز السلطان ومقام الخليفة العباسي ، ودام حكم دولة الأكراد (٣) مدة اثنتين وثمانين سنة ، الى أن سقطت الدولة الأيوبية زمن توران شاه على أيدي المماليك الذين استقدمهم أبوه الصالح نجم الدين أيوب حماة لدولته وقد كانوا معه مدة سجنه بالكرك حتى خلاص من السجن سنة سبع وثلاثين وستمائة وملك مصر ، فحمد لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، ثم أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وبطانته المختصين بدليله اذا سافر ، وأسكنهم معه في قلعة الروضة ، وسماهم المماليك البحرية ، وكانوا نحو الألف ، كلهم من الأتراك ، ولقد كان شراء المماليك أمرا تألفه الملوك والأمراء ليتقوا به (٤) .

(٣) المقصود الدولة الأيوبية .

(٤) عين بعض الخلفاء العباسيين ممالك (عبيدا بيضا) لحكم مصر ومنهم والي على بن يحيى الأرمني في الفترة من ٢٢٦ هـ (٨٤١ م) الى ٢٢٨ هـ (٨٤٣ م) ويزيد ابن عبد الله التركي في الفترة من ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م الى رمضان من العام نفسه . واستطاع =

وأول من تسلطن من هؤلاء المماليك الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير (٥) التركمانى الصالحى سنة ثمان وأربعين وستمئة بعد زواجه من شجرة الدر وحدث الفتن فى البلاد مما ترتب عليه اجتماع رأى الأمراء على اقامة الأشرف مظفر الدين موسى من ذرية الدولة الأيوبية شريكا له فى السلطنة ، فأقاموه معه وعمره نحو ست سنين ، فصارت المراسيم تصدر عن الملكين الا أن الأمر والنهى للمعز ، وليس للأشرف سوى مجرد الاسم ، الى أن قبض عليه المعز وسجنه ، وقطع اسمه من الخطبة ، وانفرد بالسلطنة ، فكان ظلوما غشوما سفاكا للدماء .

واستمر حكم المماليك البحرية الى أواخر سنة أربع وثمانين وسبعمئة ، وقد فسدت فى مدة حكمهم أحوال المملكة ، وزاد افساد العرب فى البلاد ، وغامر غالب النواب فى البلاد الشامية ، فخرجوا عن الطاعة ، فاقتضى الحال اقامة سلطان تجتمع حوله الكلمة ، ويسكن به الاضطراب .

فتولى الملك السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق بن ألفى ، وهو جركسى الجنس ، أخذ من بلاد الجركس ، وبيع فى بلاد القرم ، وجلب الى القاهرة فاشتراه الأمير يلبغا الخاصكى ، وأعتقه ، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب (٦) .

• أحمد بن طولون وكان واحدا من رقبى الخليفة العباسى المعتز بن المتوكل ، أن تكون له ولديته دولة شبه مستقلة بمصر ، فكما أن أسلوب المماليك فى الحكم لم ينته بسقوط السلطنة المملوكية سنة ١٥١٧ فإن له أيضا جذورا تاريخية أعمق فى مصر .

(٥) الجاشنكير فى الأصل وظيفة يقوم شاغلها بتذوق المأكول والمشروب قبل السلطان

أو الأمير خوفا من أن يكون مسموما . (عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٣) .

(٦) أو المجاليب أى الذين تم شراؤهم كبارا (ليسوا فى مرحلة الطفولة) أما المماليك القريبون منهم الذين تم أسرهم أثناء الحروب وهم أطفال .

وبدأ عهد دولة المماليك الجراكسة ، واستقر برقوق في الحكم ، فأخذ يكثر من شراء المماليك ، وقد رخص لهم بالسكنى فى القاهرة وبالتزويج ، فنزلوا من الطباق فى القلعة ، وتزوجوا بنساء أهل البلد ، وأخذوا الى البطالة ، وتغيرت أحوال الدولة وعاداتها ، ورفع نواب البلاد الشامية لواء العصيان ، ووقع بينهم وبين عساكر مصر وقائع كثيرة ، سفكت فيها الدماء ، وقد دام الاضطراب حتى حضر يلبيغا الناصرى بمساكره من الشام ، فعارب عساكر السلطان برقوق خارج باب النصر ، فانهزمت عساكر السلطان واختفى برقوق ، واستولى يلبيغا على القلعة ، فأخرج حاجى بن الأشرف آخر سلاطين الدولة الأيوبية من دار الحريم ، وولاه السلطنة ، ولقبه بالمنصور .

ثم قبض يلبيغا على كثير من الأمراء ، وامتدت أيدي العساكر الشامية الى النهب والسلب ، فارتجت القاهرة ، وأكثر الناس من الشكوى الى يلبيغا ، فمنع هذا ، ثم أخرج جميع ممالك الظاهر برقوق من مصر ، وأكثر البحث عنه حتى ظفر به ، فقبض عليه ، وأرسله مسجوناً الى الكرك .

وبعد هذا حدثت عداوة بين الأمير منكاش وبين الأتابك يلبيغا تسبب عنها فتنة ومحاربات آل الأمر فيها الى أن هرب يلبيغا وخلص الأمر الى الأمير منكاش ، فعزل وولى . وتصرف تصرفاً مطلقاً .

وفى تلك المدة تمكن الملك الظاهر برقوق من الخروج من الكرك ، وانضم اليه مماليكه وكثير من العرب ، وحصل له مع ولاية الشام والملك المنصور وقعت عديدة انتهت

يرجوعه الى السلطنة ثانيا ، فمال اليه كثير من الناس ، وصار يهجم على البلاد الشامية ليخضع له النواب فيها حتى استتب له الأمر .

وكان تيمورلنك فى هذه المدة يعبث فى البلاد بجيوشه الباغية ، وحصل بينه وبين المصريين وقعات كثيرة ، واستولت عساكره على بغداد ، ففر صاحبها الى مصر ، فأكرمه السلطان ، وأنزله فى دار تطل على بركة الفيل ، ثم جهز له جيشا ، وسار معه بنفسه الى الشام ، وكان تيمورلنك قد رحل عنها ، فرجع السلطان برقوق الى بلاده ، وتوجه صاحب بغداد الى مملكته .

وكانت هذه المدة كلها حروب وشدائد ، ووقع فيها غلاء وبلاء بمصر . تسبب عنهما خراب كثير فى البلاد . واستمر السلطان برقوق فى الملك الى أن مات سنة احدى وثمانمائة ، وتبعه فى الحكم من بعده أربعة وعشرون سلطانا من المماليك الجراكسة ، آخرهم الملك الأشرف طومان باى الذى تولى السلطنة بعد وقعة السلطان سليم العثمانى مع السلطان أبى النصر الأشرف ، قانصوه النورى ، ودام سلطان المماليك الجراكسة احدى وعشرين ومائة سنة تقلبت فيها البلاد أطوارا مختلفة من العمارة والخراب ، وخضع الحكم فيها لنظام القوانين التتيرية بعد أن كانت الأحكام تقضى على الشريعة الاسلامية ، واختلط الحق بالباطل ، ومزج الحسن بالقبيح ، وصار نظام الحكم ذا وجهين ، الوجه السياسى ، والوجه الشرعى ، وقد فوض لقاضى القضاة كل ما يتصل بالأمور الدينية من الصوم والصلاة وأمر الأوقاف والآيتام

والنظر فى القضايا الشرعية كالديون والزوجية ، وجعل
الحكام لأنفسهم قوانين أخرى ، يقضون بها فى أقضيتهم ،
وقد رجعوا فيها الى أصول قوانين جنكينز خان التى وضعها
بعد أن صار ملكا .

وكانت القلعة مسكن الممالك السلطانية وخواص
الأمراء بنسائهم ومماليكهم ودواوينهم ومطابخهم وسائر
وظائفهم ، وكان بها عدة أبراج لسجن الأمراء والممالك ،
وجب هائل مظلم كرية الرائحة كثير الوطاويط أعد لذلك
أيضا .

واستجد فى القاهرة أيام الممالك الجراكسة عمارات
فخيمة ، وكثرت القصور والبساتين فى ضواحي المدينة
وفى بولاق ومصر القديمة ، وكان نطاق العمارة آخذا فى
الاتساع رغم كثرة التقلبات وتواليها ، فقد كان الممالك
يتنافسون ويتفاخرون فى بناء الدور والمدارس والجوامع
والأسبله والقبور .

وكان أهل مصر ينتفعون بما فى أيدي الممالك من
الرزق ، وكان خدمهم يبيعون للناس ما تصل اليه أيديهم
من اللحم والسمن والعسل ، وسائر المأكولات والملبوسات
ونحو ذلك بأبخس الأثمان . وكانت لهم سوق يباع فيها
الفاضل من الأطعمة التى يأخذها الخدم من الأسطة .

ثم فشا فى الناس الظلم والعدوان ، وكثرت المصادرات ،
وغلبت السيئات على الحسنات ، ومال الحكام وأتباعهم الى
الغواية والفساد ، وأخلوا بكثير من شعائر الدين .

أما سكان الريف فقد كانوا يعيشون فى نظام بغيض من الاقطاع ، يقوم على استغلال الفلاح المصرى وسلبه أمواله وثمار جهوده ، وكانت البلاد المصرية مقسمة الى أقاليم ، تسمى كشوفيات * وعلى كل اقليم كشاف من الأمراء ، وفى الوجه القبلى سبعة أقاليم وبالوجه البحرى سبعة أخرى *

وكان يعين فى كل سنة على كل اقليم كشافون آخرون يسمون « كشافى التراب » وعملهم جمع ما يتعين على الأقاليم أدائه الى الدولة من الأموال والرجال لحفر الترع واقامة الجسور ، وحفظ شواطئ النيل زمن الفيضان * وتعيش قبائل العربان بين هذه الأقاليم أو على حدود البلاد، وتتشعب هذه القبائل الى طوائف ، يرأس كلا منها أمير ، من تحته جماعات أخرى من الأمراء *

ولم يكن هم المماليك بصلاح البلاد شيئاً يذكر بجانب ما كانوا يهتمون به من المصالح الذاتية ، وقد دبت فيهم نوازع الحسد ، وجرت بينهم دوافع الضغن وحب التعالى والطمع ، فأبطل كل واحد منهم ما أحكمه الآخر ، ونقض ما أبرمه (٧) ، ففرقت كلمتهم ، وساءت سيرتهم ، وصاروا شيعا وأحزابا تهوى بها رياح الجهالة والحق ، فأصبحوا بلا عدة تحفظهم ولا قوة تمنعهم وعم الفساد فى البلاد ، قاصيها ودانيها ، وتوالت موجات الغلاء والأمراض ، وتعاقب الوباء ، وأهمل أمر الرى * وساء توزيع المياه ، فطميت الترع والخلجان ، وانقطعت المياه من المزارع ،

(٧) طبيعة الاجتماع المملوكى (اجتماع العبيد) تفرض ذلك ، فروح العسكر الذى اجتمع فيه أغراب ، وروح ارتباط جملة ممالك بسيد (أو استاذ) تقتضى بالضرورة أن يحطم كل مملوك جهد الملوك الآخر *

وخيفت السبل ، وسلب الأمن ، فطمع العثمانيون في ملك
الممالك (٨) .

ويسجل هذا المخطوط الذى ألفه ابن زنبيل ، الشيخ
أحمد الرمال حوادث الحرب التى قامت بين الممالك
والسلطان العثماني ، من أولها ، فى موقعة مرج دابق بالشام
الى نهايتها فى موقعة امبابه ، وانتهت بهزيمة الممالك
والقضاء على سلطانهم المطلق .

والشيخ أحمد الرمال ، هو أحمد بن أبى الحسن على بن
نور الدين المحلى الشافعى ، ابن زنبيل وهو خير من يؤرخ لهذه
الواقعة ، فقد عاصرها وعاش فى جوها وشاهد الحوادث
فيها ، وكان منها بمنزلة المشير على الممالك يضرب لهم
الرمز ، ويكشف لهم عن حظهم فى كل موقعة ، وهم يأنسون
الى رأيه ، ويصدقون قوله .

وقد توفى ابن زنبيل بعد سنة ٩٦٠ هـ ، وبقي كتابه
المسمى « وقعة النورى والسلطان سليم وما جرى بينهما »
مخطوطا لم ينشر ، حتى كان عام ١٢٨٧ هـ فطبع جزء من
الكتاب ، طبع حجر بالأستانة ، لكن لم يتحقق نشر جملة
الكتاب رغم أنه يصور حقبة هامة من حياتنا التاريخية ،
وقد اعتبره المؤرخون مصدرا أصيلا من مصادر التاريخ
المصرى ، واعتمد عليه رواد القصة التاريخية فنسجوا من

(٨) هذه مسألة خلافية بين المؤرخين ، فالثابت أن السلطنة المملوكية هى التى تحرشت
بالدولة العثمانية دون استعداد حقيقى للمواجهة العسكرية ، ولم تحدث معركة حقيقية
فى مرج دابق ، وإنما حقق العثمانيون فى هذه المعركة « نصرا بلا حرب » (راجع الدراسة
فى صدر هذا الكتاب) وتضيف هنا أن بكوات مصر (الممالك) كان لهم وضع خاص لم
تمسسه الدولة العثمانية كثيرا بعكس الحال فى الولايات الأخرى .

بعض حوادثه قصصا له أثره في الحياة الأدبية المعاصرة ،
كما فعل السيد الأستاذ سعيد العريان في قصته المشهورة
« على باب زويلة » .

ولكتاب ابن زنبيل عدة مخطوطات :

١ - المخطوط رقم ٣٧٦ تاريخ تيمور ، وهو محفوظ
بدار الكتب بالقاهرة ، وعدد صفحاته ٢٣٧ صحيفة ،
مقاسها ١٩٠ × ١٤٥ ملم وعدد الأسطر في الصحيفة ستة
عشر سطرا ، وفي كل سطر سبع كلمات . وقد كتب بخط
تعليق وبقلم واحد ، عدا الصفحات رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٣٩
و ٥٠ ، والجزء الأسفل من الصحيفة ٣٨ فقد كتبت بقلم
مختلف ، وتاريخ الفراغ من نسخ هذا المخطوط يوم السبت
سادس عشر من شهر صفر سنة ١٠٦٥ هـ .

٢ - المخطوط رقم ٧١٤ تاريخ تيمور بدار الكتب
بالقاهرة ، أوله ٠٠ الحمد لله على كل حال ، وبعد فقد سأل
الفقيه محمد الزنبلي الرمال أن يوفقه الله تعالى ويعينه على
التيسير أن يؤلف سيرة الملك الأشرف السلطان الغوري مع
السلطان سليم خان ٠٠

وآخره ٠٠ ولما مات تولى محمد باشا ، ثم تولى على باشا
الطواشي ومات بمصر ، ودفن بجانب القضاى بكار ،
ولهلم جرا ، باشا بعد باشا الى يومنا هذا .

وكان الفراغ من نسخ هذا المخطوط رابع يوم من شهر
رجب من شهور سنة ١٢٠٩ هـ ، وقد كتب هذا المخطوط على
ورق صقيل لامع من ٣٠٣ صحائف ، مقاس كل صحيفة منها
٢٣٥ × ١٧٠ ملم ، وعدد الأسطر في الصحيفة الواحدة
خمس عشرة سطرا ، وفي كل سطر ثمانى كلمات .

٣ - المخطوط رقم ٤٤ تاريخ بدار الكتب ، وهو جزءان ضخمان ، يحوى الجزء الأول ٦٠٩ صحائف ، والجزء الثانى ٢٠٦ أوراق ، وقد قام بنسخ الجزء الأول محمد قناوى محمد ، وفرغ من كتابته فى اليوم السادس والعشرين من شهر شوال سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف من نسخة أعارتها البطريريكية القبطية الأرثوذكسية المرقسية بالقاهرة لدار الكتب .

وهذا الجزء ناقص من أوله ومن آخره .

٤ - وأما الجزء الثانى فقد انتهى نسخه فى يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول من شهور سنة ثمان وستين (وألف) من الهجرة ، وعليه تمليك برسم شيخ الاسلام محمد الدميرى الحنفى تاريخه سنة ١١٥٧ هـ .

وأول الجزء الثانى . . . ولما أصبح الله بالصباح وأضاء بنوره ركب السلطان طومانباى بعدما صلى الصبح ، وكذلك الأمير جانم بمراكبه من بر الشرق الى بر الغرب .

٤ - مخطوط بمكتبة الجامعة بالاسكندرية مبيع من الدكتور عطيه سوريال ، وعليه خاتم احدى خزانات الكتب بألمانيا .

ولقد اعتمدت فى نشر الكتاب على المخطوط رقم ٣٧٦ تاريخ تيمور ، وجعلته الأصل ، لسبق وجوده ولتكامله واتفاقه مع المخطوط الآخر المحفوظ بمكتبة جامعة الاسكندرية فى كثير من نواحى الشبه ومع المخطوط رقم ٧١٤ تاريخ تيمور بدار الكتب ، وان الخلاف الموجود بين هذه المخطوطات

الثلاثة والمخطوط رقم ٤٤ تاريخ بدار الكتب لهو خلاف واضح وجوهري وبخاصة خلاف الحجم الذى يرجع سببه الى الاستطراد والسرد لحوادث تاريخية لا صلة لها بهذه الفترة من الزمن ، والى ذلك الشعر الطويل الكثير الذى يرويه المخطوط رقم ٤٤ عن حوادث قديمة ، قد لا يكون لها صلة بما يمرضه الكتاب من تاريخ وقعة السلطان سليم مع السلطان الفورى مما لا يجد فيه القارئ فائدة ترجى أو لذة تحسن ، وانما عمد فيها واضع الكتاب الى جمع قصص منه ما يمثل القصص الميثولوجى ومنه ما يمثل غيره ، بدون ربط أو شبه ، وفى استطراد يكاد يذهب بالمادة التاريخية التى حواها الكتاب .

ويبدو لى أن هذا المخطوط لا يصور المخطوط الذى ألفه ابن زنبيل تصويرا صادقا لخلافه مع المخطوطات الأخرى ولأن عنوانه كتب بنفس الخط والحبر اللذين كتب بهما تمليك الشيخ محمد الدميرى ، فضلا عن أن الجزء الأول منه منسوخ نسخا حديثا ، ولم يتيسر لى العثور على الأصل المنسوخ منه هذا الجزء .

ومن خصائص هذا المخطوط الذى أقوم بنشره أن العلامة الألمانية للورق تتفق مع تاريخ النسخ ، وأنه معقب تعقيبا كاملا ، تحوى كل صفحة معنى فى زاويتها السفلى الكلمة التى تبدأ بها الصحيفة التالية لها ، وقد التزم الناسخ كتابة « قال الراوى » بعبر أحمر .

ولقد عرض المؤرخ ابن اياس فى كتابه : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » الحوادث التاريخية التى رواها

ابن زنبيل فى كتابه ، مفرقة على التوقيت اليومى الذى اتبعه ابن اياس فى كتابة تاريخه ، وتختلف روايتاهما فى كثير من الاحيان ، ولقد اثبت الخلاف فى هوامش الكتاب مضافا اليه ايضا حات لأسماء البلاد والأعلام والمصطلحات اللغوية ، التى توضح للقارئ ما يستفلق عليه ادراكه من الألفاظ والتعبيرات التى لا تشيع فى أسلوبنا المعاصر ، وأسमित الكتاب « أخرة الممالك » مع المحافظة على الاسم الأصلى « وقعة السلطان الفورى مع السلطان سليم » ، تمشيا مع الجرس الموسيقى لأسماء الكتب الحديثة .

وعنيت فى تحقيق الكتاب ونشره بترقيم الأسلوب وتفصيل عباراته الى فقرات متناسقة تتفق فى حوادثها ومجرياتها وفى أزمانها ، ولم أعمد الى تصويب عبارة الكتاب من الناحية اللغوية أو من الناحية الاعرابية ، ابقاء على الأسلوب فى وضعه الذى يصور اللغة التأليفية فى عصر ابن زنبيل حتى يكون الكتاب مادة للدراسات اللغوية المقارنة فى المصور المختلفة .

ولقد ذيلت الكتاب بملحق يوضح القاهرة وما كانت عليه اقسامها أيام المعركة فتتضح للقارئ ميادين القتال وأماكن الحوادث ، واعتمدت فى هذا على كتاب خطط المقرئى وكتاب خطط على مبارك المسمى « الخطط التوفيقية » وعلى كتاب « تاريخ الجبرتى » ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى تزويد المكتبة التاريخية المصرية بمصدر هام من مصادر التاريخ المصرى .

ذكر خروج السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى من مصر

ملاقاة السلطان سليم بمرج دابق

وكان خروجه من مصر يوم السبت سادس عشر (★) ربيع الآخر سنة احدى وعشرين وتسعمائة (١٥١٥ م) ، وكان أمراء دولته (★★) فى ذلك العهد ، أولهم سودون العجمى أمير كبير (★★★) وأركماش أمير سلاح ، وأمير مجلس (١) ، وسيدى محمد بن السلطان الغورى ، وأمير

(★) ذكر ابن اياس أن السبت يوافق خامس عشر ربيع الآخر .

(★★) كان عدد الأمراء الذين تعينوا للسفر صحبة الغورى خمسة عشر أميراً منهم أرباب وظائف ضخمة ، وأمراء مقدمون بدون وظائف عشرة ، وأما الأمراء الذين تخلفوا بالقاهرة فمنهم طومان يائى أمير دوا دار كبير ابن أخى السلطان ، وقد تعين أن يكون نائب النية عن السلطان الى أن يحضر ، والأمير تقطباى نائب القلعة ، والأمير أوزمك ، والأمير ثانى بك النجمى ، وكان قرر أمير الحاج يركب المحمل ، والأمير ، أوزمك ، والأمير قانصوه أبو سنة ، والأمير قانصوه التاجر ، والأمير بخشباى ، وكان قد توجه الى القلعة لعمارة الجسر الذى بها . والأمير خاير بك المعمل ، وكان مقبلاً بشجر رشيد لعمارة الأبراج التى هناك ، والأمير خدابرى نائب الاسكندرية ، والأمير قانصوه الشهير بروح لو .

(★★★) أمير كبير : وظيفة ذات شأن عظيم ، ويقوم بخدمة من يشغلها ثلاثة آلاف وخمسمائة مملوك ، ويقتضى نظامها أن يكون شاغلاً من مقدمى الألوف . وكانت الوظائف حسب منازل أصحابها على النحو التالى : أمير كبير ، ثم يليه أمير سلاح ، ثم أمير مجلس ، ثم أمير دوا دار الكبير ، ثم أمير الخيول الكبير ، ثم رأس ثوبه النوايب ، ثم أمير حاجب الحجاب ، ثم أمير خازن دار الكبير ، ثم أمير الحاج الشريف . ولا يشغل هذه الوظائف الا من جملة مقدمى الألوف .

(١) يدير مجلس السلطان أو الأمير . أشار الى هذا المنصب القلقشندى فى صبح

أخو كبير (٢) ، وسودون داوودى رأس نوبة النواب (٣) ،
 وأنس باى حاجب الحجاب ، وقانصوه ابن السلطان جركس ،
 والأمير نقطبای نائب القلعة ، والأمير قانصوه ابن سلطان
 كسرت ، والأمير طومان باى دودار (٤) كبير ، والأمير تنم
 الزردكاش (٥) ، والأمير جان بلاط أبو ترسين ، والأمير
 تان بك الخازندار (٦) ، والأمير يزبك المكحل (٧) ، والأمير
 رزمك الناشف ، والأمير أبرك رأس الجلبان ، والأمير اقبای
 الطویل ، والأمير بیبرس ابن عم السلطان ، والأمير كرت بيك
 الوالى وأبو المفاخر والمعالى ، والأمير قانصوه أبو سنة ،
 والأمير قانصوه رجله (★) .

وكان هؤلاء الأربعة والعشرون أصحاب الطبلخانات فى
 مصر ، لهم الأمر والنهى والحكم مثل السلطان ، وكان كرت
 بيك الوالى أعظمهم حرمة لشجاعته وفروسيته ومخاصمته
 الشجعان والأبطال فى جهة الميدان .

(٢) هو المشرف على اسطبل السلطان ليرعى ما فيها من خيول .
 (٣) النوبة فرق العسكر التى تتناوب الوقوف لحراسة السلطان وهى خمس فرق تتغير
 ظهرا وعصرا وفى منتصف الليل وفى الصباح .
 (٤) أى حامل دواة السلطان أو الامير ومبلغ الرسائل ، وعن طريقه تقدم الشكاوى
 وأوردها د . محمد السعيد سليمان فى كتابه تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل
 هكذا (الدويدار) وذكر أنها تكتب أيضا (الدواتار) و (الدويدار) و (الدواتار) ،
 وفى النجوم الزاهرة أن أول من ابتدع هذه الوظيفة هم السلاجقة وكان يسمى أحيانا
 الحاجب ، وقد عظم شأن هذه الوظيفة فى القرن الرابع عشر حتى أصبحت كنيابة للسلطنة
 وكان الدوادار يشارر السلطان فيمن يسمح له بدخول القصر . أما فى الإدارة العثمانية ،
 فكان الدوادار بمثابة رئيس للكتاب (محمد السعيد سليمان ، المرجع نفسه) .
 (٥) الزردكاش . أحد السنولين عن السلاح خانة ، والمسئول عن صنع السلاح
 واصلاحه وتجديده (القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢) .
 (٦) الخازندار مسئول مالية السلطان والسلطنة . (عاشور ، مرجع سبق ذكره ،
 ص ٤١٠) .

(٧) المكحل : مسئول مكاحل البارود وهى الدافع على انواعها . انظر ابن تفرى
 بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٧٧ .
 (★) ذكر ابن اياس أنه ضد الأمير الشهير بروح لو . وفى الاصل ما ذكر ، وهو
 نائب قطيا ، وعدد الامراء الذين ذكرهم المؤلف عشرون .

وسياتى طرف مما كانوا عليه ، رحمهم الله تعالى
أجمعين .

ذكر

نواب البلاد التي كانت في حكمهم

فأول النواب نائب قطيا كان قانصوه رجله ، وأما
القدس الشريف وغيره والرملة وما هناك من الضياع فكان
المتولى على جميع ذلك دولتباى ، وأما صفد وطرابلس
والشام وبغروت وصيدا وأعمالهم فكان النائب عليهم الأمير
تمراز الأشرفى ، وأما دمشق الشام فكان نائبها سيباى ،
وأما حمص فكان نائبها أصلان بن بذاق ، وأما حماة فكان
نائبها أقبردى الغزالى لا لقاء الله خيرا . وأما حلب فكان
نائبها الأمير خاير بك . وأما البيرة فكان نائبها جان بردى ،
وعنتاب كان نائبها يونس بن أقبية ، وأما قلعة الروم كان
نائبها أبو زيد ، وكانت أونه وجميع بلاد مرعش وأعمالها
الى ديار بكر (٨) بحكم على دولتباى ، والى حين ينتهى الى جنب
الروم (٩) بحكم محمود بن رمضان .

وكان على دولات يحمل المال الى مصر من جميع حكمه
وبلاده ، وهو الذى كان سبب الفتنة بين السلطان سليم وبين

(٨) هى منطقة كان الترك يطلقون عليها اسم قره آمد وكانت حاضرتها تقع على
الضفة اليسرى لنهر دجلة (فى تركيا الآن) ، وقد فتحها العثمانيون سنة ١٥١٥ بعد
معركة تشالديران التى خاضها العثمانيون ضد الفرس ، اى قبل موقعة مرج دابق بعام
واحد . وقد جهر أهلها بالولاء للسلطان العثمانى سليم الاول خوفا من تهديد الفرس .
(الموسوعة الاسلامية - مادة ديار بكر) ومن خلال موقع ديار بكر الانف ذكره يمكن
فهم نص ابن زقيل ، فقد كانت ديار بكر قريبة جدا من الروم (المقصود العثمانيون) .
(٩) المقصود الدولة العثمانية ، فمصطلح الروم استخدم كثيرا بهذا المعنى فى
مصادر الماليك .

الفورى ، وفابريك أيضا (١٠) ، الى أن حصل ما حصل من القتل بين الفريقين ، « ان ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » ، « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

وأما الكشاف (★) فكانت أسبوط مع برسباى الأشرفى ، ومنوف كاشفها قانصوه العادلى ، والفيوم والبهنسا كاشفهما جانم الأشرفى ، ودمنهو مع يونس البدوى ، والمحلة مع أطاس . . . وكان مشهورا بالظلم .

وأما الثغور المحروسة فكان نائب الاسكندرية قضا بردى ، ونائب دمياط على باى .

وأما مشايخ العربان فى الصعيد الأعلى ، فكان ابن عمر الأمير على فى جرجا ، وأولاد الأحمد فى الشرق ، وشيخ غزاله (١١) حماد بن خير فى الجيزة ، والأمير حجازى بن

(١٠) المقصود غالبا خير بك الذى كان يكره المالك كراهية شديدة مع انه مملوك لكن من أصول مختلفة اذ كان جورجيا ولم يكن شركسيا .

(★) جمع كاشف ، وهم الحكام . وكان الحاكم بمثابة المحافظ ، أو بمثابة وكيله أو مأمور المركز اذا كان يحكم جزءا من الكشوفية . وكلمة كاشف مأخوذة من الفعل كشف اذ ان الأصل فى وظيفة الكشافة أن يكشفوا عن أحوال المحافظات ، ولما اتسعت سلطتهم وصار الحكم اليهم ، وأخذوا المحافظات التزاما بقى الاسم القديم ملازما لهم ، وصار الكاشف يحكم المحافظة أو جزءا منها . انظر تاريخ الحركة القومية ج ١ للاستاذ عبد الرحمن الراعى . وقد جاء فى كتاب زبدة كشف المسالك لخليل بن شاهين الظاهرى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٤ ان الكشاف يعين مرة فى كل سنة من الأمراء مقدمى الألوف ، وكان الكشافة فى أول أمرهم ثلاثة : كاشف الوجه القبلى فى الولاء من الجيزة الى الشلالات ، ويولى من تحت أمره ولاية ياقاثير الوجه القبلى ، وكاشف بالوجه البحرى ، وكاشف بالجيزة .

انظر أيضا حاشية سابقة عن الكاشف .

(١١) ضبطها ميكل ووتر Winler فى كتابه : Egypt under the ottoman rule

عزاله ، بالعين غير المعجمة ، ووردت فى مصادر أخرى بالغين (المعجمة) .

بغداد بالمنوفية ، وشيخ البحيرة كان الجويلي ، وأما الغربية فكان من نواحي سنهور (١٢) حسن بن مرعى .

وكانوا على هذا الترتيب في زمن الغورى ، رحمة الله عليهم أجمعين .

وكان في الشرقية أحمد بن بقر (١٣) ، وكان قليل الخير ، سيرته سيئة .

ونرجع الى خروج الغورى من مصر .

فلما وصل الى غزة قام بها ثلاثة أيام ، فشكت الرعايا للسلطان من نائب غزة ، فعزله عنها ، ورسم عليه (١٤) ، وعنفه على فعله وظلمه ، وزجره غاية الزجر ، وبعد ذلك رده اليها لكونه ابن عمه .

فورد على السلطان مكاتبة ، وهو مقيم بغزة ، من عند سيباي نائب الشام ، يذكر فيها الذى يعرضه المملوك على المسامع العالية ، أعلاها الله تعالى ، وأدامها . أن العبد سمع بأن السلطان يريد السفر الى قتال ابن عثمان وأن المملوك يقوم بهذا الأمر ، ويكون السلطان مقيما بمصر ، ويمد المملوك بالعساكر المنصورة .

والذى يعلم به مولانا السلطان أن خاير (★) بك ملاحي

(١٢) عرف بها الأستاذ عبد المنعم عامر في حاشية لاحقة .

(١٣) الصحيح بقتار (يفتح الباء وتشديد القاف وفتحها) .

(١٤) رسم عليه أى حدد اقامته ، والمصدر ترسيم ، والجمع تراميم . ويعنى أيضا

الوضع تحت المراقبة . (عاشور ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠١) .

(★) فى الأصل خير بك ، وفى غير هذا الموضع من الكتاب خاير ، وكذا فى كتاب بدائع الزهور لابن اياس : خاير ، وقد التزمت كتابة الاسم على هذا الرسم توحيدا للشكل وتحديدًا للنطق به .

علينا (١٥) ، ومكاتبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين . فرد عليه السلطان : ها نحن قد جئناهم بأنفسنا .

ثم أمر بالرحيل بالجيوش والعساكر ، وهم يموجون كالبحر الزاخر ، والسحاب الماطر ، فرسانا كالعقبان الكواسر ، ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر ، فألقى الله تعالى فيهم الفتنة . فكان كل من الأعيان يتمنى هلاك السلطان حتى يكون هو السلطان ، فبهذا الموجب هلكوا أجمعين ، ويبعثون على نياتهم .

ومن غريب صنع الله تعالى أن السلطان الفورى كان له رمال حاذق ، فكان كل حين يقوله له السلطان : « انظر الى من يلى الحكم بعدى » ، فيقول : « حرف السين » .

فكان السلطان يعتقد أنه سيباى .

وكان كلما كتب سيباى للسلطان بما يفعله خاير بك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بأنه معه ، وأنه ملاهى على أبناء جنسه ، ويحرضه على المجيء الى أخذ مصر من الجراكسة ، والسلطان الفورى لا يقبل من سيباى نصيحة حتى نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته ، وكان ما كان .

ولم يتمكن سيباى من ملاقة السلطان الا على سمسع وهى قرية من قرى الشام .

وحضر سيباى قدام السلطان ، وقدم مقدمة عظيمة ، لها قدر وقيمة .

(١٥) ملاهى علينا أى معاد لنا ، ولهى فلانا عثبه وقبحه ، ويقال لحاه الله أى قبحه ، ولاماه نازعه وخاصمه (المعجم الوجيز . مادة لحي) .

فشكره السلطان على فعله شكرا زائدا بعد أن خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على أحد من النواب غيره .

وكل ذلك والسلطان معتقد أن الخيانة انما هي من سييأى ، وما قصده الا أخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف السين ، ولا يظن ويخطر في فكره ، أن السلطان سليما يقدر يدخل أرض مصر أبدا لما يعلم من شجاعة الجراكسة ، ولا يمكنوا أحدا من أخذ بلادهم ، وما دروا أن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين .

وكان السلطان الفورى يعلم أن سييأى بطل من الأبطال ، لا يخطر الموت على باله ، فانه كان فارسا مناعا ، وبطلا شجاعا (★) ، ذا عزم شديد ، وبأس مديد . فكان السلطان لا يحسب الا حسابه .

وأما خاير بك فانه لم يكن السلطان يحسب له حسابا لما يعلم من جبانته ، وعدم شجاعته ، فأخذه من لا يكثره .

وكان سييأى من ممالك السلطان قايتباى ، وكان رجلا يعد برجال ، وهو الذى عمر المدرسة التى بدمشق ، المعروفة بمدرسة سييأى - وهى اذا طلعت من سويقة باب الجابية (★★) وأنت طالب الى دار السعادة تكون على يسارك - ووقف لها الأوقاف ، ورتب لها الخيرات ، رحمة الله عليه .

قال الناقل ، وهو الشيخ أحمد بن زنبيل الرمال المحلى ،

(★) فى الاصل فارسا مناع وبطلا شجاع .

(★★) أحد أبواب دمشق .

الجامع لسيرة الجراكسة (★) ، وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن عثمان ، فان السلطان سليما كان له أخ أكبر منه يسمى السلطان أحمد وكان حاكم برصه (١٦) . وكان اخوه قورقود (١٧) حاكم المغنيسا (١٨) ، والسلطان سليم قبل أن يتسلطن كان حاكم طرابزون (١٩) ، ولكنه كان ذا همّة فى طلب الملك والرياسة على اخوته ، فألهمه (٢٠) الله تعالى زواج ابنة ملك التتار خان ليكون ظهرا له ، فتزوجها . ثم تجرد بعد ذلك لأخذ الملك من أبيه ، لما سمع من الجواسيس الذين كانوا يأتونه بالأخبار بأن أباه السلطان بايزيد ضعيف على موت ، وأنه أرسل لولده أحمد يحضره ليقبله الملك من بعده . . .

(★) الجراكسة أبناء شعب موطنه غربى القوقاز وقسم من الشاطئ الشرقى للبحر الأسود ، وقد هاجروا الى تركيا وسوريا والاردن ، وهم ينسبون الى أبيهم جركس . (١٦) جرت العادة على كتابتها بورصة (بالصاد) منطقة ومدينة بآسيا الصغرى وكانت عاصمة للدولة العثمانية فى الفترة من ١٣٢٧ الى ١٣٦١ ثم انتقلت العاصمة الى أدرنة ثم الى استانبول (اسطنبول) سنة ١٤٥٣ . (محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق احسان حقى ، ص ١١٩) .

(١٧) تكتب عادة كركورد ، ونقرأ فى تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد : « لما كان تعيينه (السلطان سليم) بمساعى الانكشايوة يقتضى توزيع المكافآت عليهم حسب المعتاد أعطى لكل نفر منهم خمسين دوكا ، ثم عين ابنه سليمان حاكما للقسطنطينية وسافر بجيوشه الى بلاد آسيا لمحاربة اخوته وأولاد اخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولم يبق له منازع فى الملك . فالتقى اثر أخيه أحمد الى أنقرة ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات بينه وبين الوزير مصطفى باشا الذى كان يخبره بمقاصد السلطان . لكن علم السلطان بهذه الخيانة لقتل الوزير شر قتلة جزاء له وعبرة لغيره ثم ذهب الى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد اخوته وأمر بقتلهم وبعدها توجه بكل سرعة الى صاروخان مقر أخيه كركورد فمر منه الى الجبال وبعد البحث عليه عدة أسابيع قبض عليه وقتل . »

(١٨) فى آسيا الصغرى ، والبها ينسب حجر المغنطيس .

(١٩) عادة ما تكتب طرابزون ، كانت حاضرة لمملكة طرابزون الرومية . على البحر الأسود وتبـد ١٤٠ كم عن مدينة أرضروم (أرض الروم) ، واسمها مشتق من (ترابيزوس) اللاتينية . فتحها العثمانيون سنة ١٤٦١ . (محمد فريد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٠) .

(٢٠) السياق يقتضى ذلك ، وفى الاصل المطبوع بتحقيق الاستاذ عامر (الهمما) .

فخاف أحمد من أخيه سليم لما يعلم من طلبه الملك
لنفسه ، فتأخر عن المجيء •

فجرد سليم العساكر على أبيه •

فلما سمع أبوه ذلك أخذته الغيرة ، وأمر بالخروج
لملاقاته •

فخرجت العساكر ، ووقع الحرب بين الفريقين ، فكانت
الكسرة على السلطان سليم • فانهزم ، وأخذت زردخانته (٢١)
بجملتها ، فهرب الى الكوفة •

فدخل عند رجل ، يقال له ، كمال آغا ، وهو دزدان
القلعة ، فأضافه ومكث عنده مدة أيام •

فشكا له السلطان سليم مما جرى له ، وما ذهب منه
من المال والرجال وهو متحير فى أمره ، وقد قصد أخذ الملك
من أبيه قبل أن يعطيه لأخيه أحمد ، فلم يصح له ذلك •

فقال له كمال آغا : عندنا من مال أبيك شيء كثير
متحصل ، وكنا نريد أن نرسله له ، فخذنه وتقو به (★) •

ففعل كما قال له كمال آغا ، وجمع له عسكرا أكثر من
الأول •

(٢١) الزردخاناه يعنى بيت السلاح ، والمقصود كل رصيده من الأسلحة • عن
الزردخاناه راجع القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، صص ١١ - ١٢ •

(★) فى الأصل : وتقوى •

وكان السلطان سليم لا يتوقف في جمع العسكر ، لا على رومى ولا على عجمى ، بل كل من اختار أن يكون من عسكره قبله ، ويعطيه الجامكية (★) ويجعله من عسكره .

فجمع عسكرا كثيرا ، وجرد على أبيه ثانيا ، يريد القسطنطينية (٢٢) .

وكانت عساكر أبيه كلهم مالوا الى السلطان سليم لما يعلمون من علو همته .

وأما أبوه السلطان بايزيد . فانه كان رجلا مباركا من أولياء الله تعالى ، لا يحب العظمة ولا التجبر ، وكان رأس عسكره أغاة اليكنجرية (٢٣) ، يونس آغا .

فلما وصل الخبر الى السلطان بايزيد بأن ولدك سليما جرد عليك ثانيا أمر العسكر بالخروج لقتال ولده ، فلم يطعه أحد من عسكره . فجاء السلطان سليم الى أن وصل الى مدفن أبى أيوب الأنصارى ، رضى الله عنه .

فدخل الوزير الأعظم ، وكان اذ ذاك فرهاد ياشا ، على السلطان بايزيد ، وأخبره بذلك ، وأعلمه بأن العساكر كلها مالت الى السلطان سليم وبغضوك لما يعلمون من تعففك والعصمة الملوكية ، وأنت تعرف ما يترتب على ذلك .

(★) الجامكية كلمة فارسية . معناها الراتب الذى يصرف للمحاربين بقصد شراء الملابس ، ثم صارت فى الاصطلاح الملوكى والعثمانى تعنى مرتب الجنود . (٢٢) غريب استخدام الرمال لهذا المسمى لمدينة استقر اسمها منذ الفتح العثمانى على اسطنبول (اسطنبول أو اسلامبول) .

(٢٣) مصطلح آخر للانكشارية . من الكلمة التركية ينى Yeni بمعنى جديد وجرى Cery بمعنى عسكر ، فنكون يكيجرى بمعنى العسكر الجديد . يوردها الجبرتى أحيانا ينكجيرية وهم جيش من المشاة أُنشئ فى عهد السلطان العثمانى أورخان ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦ م . كان جنوده عزابا وفى عهد السلطان سليم سمح لهم بالزواج بشرط كبر السن ثم اطلق حق الزواج . وارتبط الانكشارية بالطريقة الصوفية البكتاشية . محمد السعيد سليمان ، مرجع سبق ذكره . ص ٣١ .

فأمره السلطان بايزيد أن يقول لهم : السلطان يولى عليكم ولده أحمد .

فأبوا ذلك ، وقالوا : ما نريد إلا سليما ، كلمة واحدة .

فخرج السلطان بايزيد . يريد الكوفة ، بماله وعياله ، وأن يقيم هناك الى أن يموت .

ودخل السلطان سليم الى القسطنطينية ، فجلس على تخت الملك ، فلم يسافر أبوه الا يومين ، ومات رحمة الله عليه في سنة ٩١٨ . وأما أخوه السلطان أحمد فانه لما أرسل خلفه ليقبله الملك جاء الى أن وصل اسكدار ، فلم يجسر أن يدخل القسطنطينية خوفا من أخيه ومن العسكر ، لأنهم على غرض السلطان سليم .

فلما تولى السلطان سليم أرسل لأخيه أحمد خلعة ، وردّه الى مكانه ، وأيضا أرسل خلعة الى أخيه قورقود الى مملكته ، وهي مغنيسيا ، ببر أناضول ، واستقر هو في الملك .

ثم أرسل خلف كمال أغا الذي كان بالكوفة . وجعله أغا اليكنجيرية ، ويونس أغا جعله وزيرا ، وجعل فرهاد باشا باشة (★) روم ايلي (٢٤) ، ثم أمر بقتل اخوته . واستقل هو في الملك .

فهرب أخوه قورقود الى مصر ، واستجار بالغورى ، فأجاره ، فأرسل السلطان سليم يطلبه من الغورى ، فأبى أن يمكنه منه ، فاشتدت العداوة بين الغورى وبينه حتى وقع ما وقع .

(★) باشة بقطر تركي ، وهو لقب معناه الوالى .

(٢٤) أو الروميلي ، الممتلكات العثمانية في شبه جزيرة البلقان .

قال الراوى : ومما وقع بينهما من شدة العداوة أن السلطان سليما لما غزا على شاه اسماعيل سلطان العجم ، وجاء بالعساكر من على البيرة (★) ، وكان نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغورى ، فأمر علاء الدين أهل مرعش ، ألا يبيعوا على عسكر السلطان سليم شيئا مطلقا من المأكول ولا من غيره .

فمات أكثر الدواب والناس من شدة الغلاء ، وكان هذا سبب الحرب بين الغورى وبين السلطان سليم .

وحصن علاء الدين البلاد كلها والحصارات والأبراج ، فلما جرى للسلطان سليم ذلك عرض على وزرائه ذلك ، وحصل له من الغنم ما لا مزيد عليه .

وكان السلطان سليم حاد المראה صعب الخلق ، فأراد أن يأمر العسكر بالحملة على تلك النواحي ، ويحاصر مرعش ، فأشار وزراؤه عليه أن يرسل بذلك الغورى .

فأمر بكتابة مرسوم الى ملك مصر قانصوه الغورى يخبره بما فعل علاء الدولة ، فأجاب الغورى بأن علاء الدولة عاصى أمرى ، فان قدرت عليه فاقتله وخلع عليه قصاده ، وأرسلهم .

ثم كتب الغورى مرسوما وأرسله خفية لعلاء الدولة ، يشكره على ما فعل ، وينفريه على قتال السلطان سليم ، ولا يمكنه من شيء أبدا .

(★) البيرة قلعة حصينة بين حلب والشغور الرومية .

وكان قصد الغورى القاء الفتنة بين الاثنين رجاء أن يقتل أحدهما أو كلاهما ، فيكتفى شرهما ، فانه كان يعرف شدة بأس كل منهما .

فقوى قلب علاء الدولة على قتال السلطان سليم .

وأما السلطان سليم لما قرأ جواب الغورى علم بفراسته أنه خديعة له ، فتحملت نفسه من الغورى غاية التحمل ، فكان ذلك سببا لاثارة الفتنة بينهما حتى وقع ما وقع ، كما هو المشهور .

ثم سافر السلطان سليم الى ملاقة شاه اسماعيل ووقع الاتفاق بينهما بأن يبطل النار ، ويقا تل بالسيف والعود ، فلم يثبت السلطان سليم غير ساعة ، وولى عسكره منهزما ، لأن الروم لا قدرة لهم على ملاقة الفرس من غير نار ، فعند ذلك أمر أغا اليكنجرية أن يرموا بالنار ، فما كان الا ساعة وانهزم شاه اسماعيل ، فان النار لا يطيقها أحد .

فأخذ السلطان سليم ما وجد فى أوطاق العجم (★) وانثنى راجعا منصورا يريد قتال علاء الدولة .

وأما علاء الدولة فانه جمع جيوشا كثيرة ، والتقى الجمعان ، وكان مع السلطان سليم خان بن شهور ، وكان شهور هو الملك ، والحاكم على تلك الديار ، وهو أخو علاء الدولة .

فلما قبض على شهور بالحيل التى عملت عليه شنق على باب زويلة بمصر فى زمن قايتباى على يد الأمير يشبك الدوادار كبير ، والقصة مشهورة .

(★) أوطاق أو وطاق الخيمة . والمراد المخيمات الكبيرة الخاصة بالملك أو القواد .

ثم أخذ علاء الدولة الحكم بعده .

وكان لشهوار ولد أكبر أولاده ، فهرب الى السلطان سليم ، فمازال عنده حتى وقع هذا الحرب مع علاء الدولة ، واصطف الفريقان للقتال ، وخرج ابن شهوار الى الميدان بين الجمعين باذن من السلطان سليم ، وقال : من عرفنى فلقد كفى ، ومن لم يعرفنى فأنا ابن شاه سوار . أين من ربى فى انعام أبى ؟ أين المحبون لى ولوالدى ؟ فليأتوا تحت سنجق من حماني من عدوى ، ولايد لكل انسان من يحبه ويبيغضه . فأرتج عسكر علاء الدين ، وافترق منه بعضه ، فمن كان يبنض علاء الدولة مالوا الى ابن شهوار ، فما تم غير ساعة حتى عقل علاء الدولة وغالب أولاده ، وقطعت رؤوسهم ، وجاءوا الى السلطان سليم ، فأرسل بهم الى الغورى ، فلما رآهم أحس قلبه بزوال ملكه لما يعلم من اختلاف عسكره عليه ، كما وقع لعلاء الدولة ، فان الملك ليس هو ملكا الا بالعسكر ، فاذا انحرف عليه عسكره ضاع ملكه .

ثم ان السلطان سليما طمعت آماله فى أخذ مصر ، ثم توجه الى أدرنه (٢٥) ، ثم استشار مع الوزير الأعظم ، وهو أحمد باشابه هرسك ، وبعده يرى باشا .

فقال ابن هرسك للسلطان سليم ، نحن تصادمنا مع عسكر مصر فى زمن أبيك ، وكنت أنا باش العسكر وكسرونا أشد كسرة ، وقبضوا على ، ودخلت مصر أسيرا حتى وقفت

(٢٥) أدرنة نسبة الى الامبراطور ادریان الرومى . واسمها بالرومية (ادريانا بولس) . وهى فى البر الاوربى فتحها البكلرب لاله شاهين سنة ١٣٦١ . كانت عاصمة (اوربية) للدولة العثمانية قبل فتح القسطنطينية - محمد فريد - تاريخ الدولة العلية . ص ١٢٩ .

بين يدى السلطان قايتباى ، فمن على باطلاقى ، وعفا عني ،
عفا الله عنه ، وقد حلفت له ألا أسحب فى وجه القبيلة (؟) سيفا
أبدا ، وصدقه على ذلك بيرى باشا .

ثم بعد ثلاثة أيام أمر السلطان سليم بعزل الاثنين ، ثم
سار قاصدا عسكر مصر ، فلما وصل الى مدينة زملطى (★)
أقام ينتظر الأخبار ، فلم يأتته أحد .

ذكر

ارسال القاصد من السلطان سليم الى الغورى

فأمر السلطان سليم بارسال قاض الى الغورى ، وكان
اسم القاضى زبرك زاده ، وكان أعرج ، فمازال حتى وصل
الى حلب ، فرأى أوطاق الغورى خاليا من العسكر ، ما فيه
الا نحو ألف أو ألفين ، لأنهم كانوا كلهم دخلوا الى مدينة
حلب ، وأخرجوا الناس من بيوتهم ، وسبوا حريمهم وأولادهم ،
وأذوهم الأذى البالغ ، وكان ذلك سببا لقيام أهل حلب مع
السلطان سليم على الجراكسة ، لشدة ما حل بهم من
الضرر منهم .

فلما بلغ الغورى بأنه جاء قاصد من عند السلطان
سليم أذن له .

فتمثل بين يديه ، وتآدب غاية الأدب .

فرحب به ، وسأله عن السلطان سليم .

(★) زملطى : كذا فى الأصل . وفى معجم البلدان لياقوت زملكان أو زملكا قرينتان

أحداهما بها المكان القريب من دمشق .

فقال له القاضي : هذا ولدك ، وتحت نظرك .

فقال له الغورى : لولا أنه مثل ولدى ما جئت من مصر الى هنا بأهل العلم جميعا حتى نصلح بينه وبين اسماعيل شاه .

ثم أجزل عطاءه وصرفه .

ثم أمر الغورى بالخروج الى الحرب ، فخرج جميع العسكر وأودعوا جميع أموالهم عند أهل حلب بعد أن كدروا عليهم غاية التكدير ، وآذوهم غاية الأذى .

فلما خرجوا من عندهم دعا عليهم الكبير والصغير ، والغنى والفقر لما حصل لهم من ضررهم .

ذكر

ارسال الغورى الى السلطان سليم قاصدا

فلما استقر الغورى فى أوطاقه أمر بارسال قاصد للسلطان سليم ، فشاور أكابر دولته ، فاقتضى رأيهم أن يرسل رجلا من أهل العلم والدين ليتكلم بينهما بالمعروف رجاء لحقن دماء المسلمين .

فلم يفعل ، وأمر باحضار الأمير مغلباى دودار ، وكان رجلا فاضلا قادرا على رد الأجوبة واقامة العجة .

فقال له الغورى : جهز نفسك ، واخرج ، اكشف لنا خبر أهل الرم وما هم عليه ، وأعط هذه المكاتبة الى ملكهم .

ثم أمر عشرة من خيار العسكر بالتوجه مع مغلباي الى
عسكر السلطان سليم ، وهم ملبسون بالملابس الفاخرة ، كل
من رآهم يتعجب في خلقهم وحسن خيلهم وهندامهم ، وهم
كالعرائس .

واصطفوا صفا واحدا .

فلما دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم من غير
اطالة ، نظر اليهم مليا وامتلا من الغيظ .

ثم قال للأمير مغلباي : يا مغلباي ، أستاذك ما كان عنده
رجل من أهل العلم يرسله لنا . . ؟! وانما أرسلك بهؤلاء
العشرة يربع بهم (★) قلوب عسكري ويخوفهم بروية
أجناده ، ولكن أنا أكيدته بمكيدة أعظم من مكيدته .

ثم أمر يرمى رقبة مغلباي وجماعته ، وعيط (★★) من
صميم قلبه بجلاده .

فارتجفت قلوب الحاضرين لذلك .

فقام الوزير يونس باشا ، وقبل الأرض بين يديه ،
وقال : الرسول لا يقتل ، وليس له ذنب .

فقال : لا بد من ذلك .

فقال الوزير : فان كان ولا بد فأبق على كبيرهم مغلباي .
فأمر بحبسهم ، ورمى برقبة العشرة قدام أوطاقه ، واحدا
بعد واحد ، وهو ينظر اليهم .

(★) في الاصل : بها .

(★★) التعيط : الصياح . لفظة يستعملها أهل لبنان . وفي مصر تستعمل مرادا
بها البكاء .

وحبس مغلباي بقلعة رملطو يومين •

ثم أحضره وحلق ذقنه ، وألبسه طرطورا ، وركبه على حمار أعرج معقور •

وقال له : قل لأستاذك : يجتهد جهده ، وهأنأ حضرت اليه كالبرق الخاطف والرعد القاصف •

ولم يقرأ مكاتيب الغورى لشدة غيظه ، لأنه لما رأى مغلباي والعشرة الملبسين بالحديد المانع فهم بالفراسة أنه ما أرسل هؤلاء الا ليخوف عسكره من شدة بأسهم وفرسانهم •

فلما رجع مغلباي للغورى على هذه الصفة عسر عليهم ذلك ، وأقامت نفوسهم على قتال السلطان سليم بعد ما كانوا يظنون أنهم انما جاءوا للصلح بين شاه اسماعيل والسلطان سليم •

ثم أمر الغورى بأن يخرج العسكر من مدينة حلب الى أوطاقه ، ويتهيأوا للقتال •

وأمر الأمير كرتباى الوالى بأن يكشف خبر السلطان سليم وعسكره ويرجع على الفور ليمشى عليه ، ويبادر الحرب •

فلما وصل كرتباى الى قيصرية (★) وجد أهلها قد قفلوا أبوابها وتأهبوا لقتال أهل مصر لما بلغهم ما فعلوه فى

(★) قيصرية كذا فى الأصل ، والصواب قيسارية بلد على ساحل الشام • ومدينة عظيمة فى بلاد الروم •

حلب وأهلها من اخراجهم من أماكنهم ونهب أموالهم ، وغصب
نسائهم وبناتهم .

ثم وجدوا يونس باشا نائب عنتاب عزل حريمه وماله
وهو معول على الرحيل الى السلطان سليم ، وقد قلب على
أبناء جنسه ومال مع الروم . فرجع كرتباى الوالى ، وأخبره
ان قيصرية وعنتاب عصوا علينا وأرادوا قتالنا ، ومالوا مع
السلطان سليم ، وجاءنا الخبر بأن طلائع عسكره قد أقبلت ،
فلما تحققنا ذلك عطفنا راجعين .

فارتج عسكر مصر لذلك ، ووقع فيهم الخلل ، فعند
ذلك انتبه الغورى من ساعته ، وجمع الأمراء والأعيان ،
وتحالفوا على أن لا أحد منهم يخون صاحبه ، ويكونون على
قلب رجل واحد ، ويقاثلون عدوهم بعد أن كان غالب
العسكر ما يظن ألا الصلح بين السلطان سليم وبين شاه
اسماعيل .

وأما يونس باشا نائب عنتاب فانه ندم على فعله مع
كرتباى الوالى ، وقال فى نفسه : ربما تكون النصره لهم ،
فلا آمن على نفسى ، ولكن أجعل لى معهم وجها .

وركب من ساعته الى أن تمثل بين يدى الغورى ، وزعم
أن السلطان سليما قبض عليه ، وأنه هرب منه ، وجاء الى
مولانا السلطان مساعدا له على عدوه .

فلم تنطل حيلته على السلطان ثم أمر بتوسيطه فى
الوقت والساعة .

فوسط الأمراء والأعيان كلهم مجتمعون .

فقام من بينهم الأمير سيباي نائب الشام وقبض على
خاير بك نائب حلب ، وجره من طوقه بين يدي السلطان
الغورى ، وقال : يا مولانا السلطان ، اذا أردت أن الله
ينصرك على عدوك فاقتل هذا الخائن •

وكان خاير بك فى يده كالشاة بين يدي السبع ،
وهو يجره •

فقام الأمير جان بردى الغزالى وقال : يامولانا السلطان ،
لا تفتن العسكر وتبدأ فى قتال بعضهم بعضا ، وتذهب
أخباركم الى عدوكم ، ويزداد طمعه فيكم ، وتضعف شوكتكم
والرأى لكم •

وتأخر فى مكانه •

وهذه مكيدة من الغزالى ، والا كان خاير بك قد هلك ،
ولكن اذا أراد الله تعالى بأمر بلغه ، والحى ما له قاتل ،
فأمرهم السلطان بأن يتحالفوا ثانيا ، وألا يخون منهم أحد
والخائن يخونه الله تعالى ، وعليه لعنة الله •

ثم أمر السلطان أن ينادى فى حلب بالرحيل منها
بالمعسكر لقتال السلطان سليم ، وأن يتأهب كل أحد ويستفيق
لنفسه •

وكان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من رجب سنة اثنتين
وعشرين وتسعمائة •

وكان له مساكب حتى رجت الأرض ، وليس الخبر
كالعيان •

وكان الجلبان (★) ثلاثة عشر ألف مملوك ، كلهم
مشتروات الغوري ، ولا واحد منهم الا ويعرف سائر أنواع
الحرب والفروسية ، فانه كان مجتهدا في تعليم الجلبان ،
وكان قصده أن ينشئ له عسكريا من مماليكه مشترواته ،
ويقطع القرانصة ، وهم ممالك الملوك الذين قبله ، وكان
يحسب حسابهم خوفا من أن يمكروا به كما فعلوا بمن
قبله ، وكان أخذًا حذره ، ولكن الحذر لا ينفع من القدر ،
والقاعدة المشهورة ، من طلب جله فاته كله .

وكان معه الأربعة الأئمة من المذاهب الأربعة ، وخليفة
سيدي أحمد البدوي ، وخليفة سيدي ابراهيم الدسوقي ،
وخليفة سيدي أحمد الرفاعي ، وخليفة سيدي عبد القادر
الجيلاني ، وكان معه المؤذنون الدواخل والوعاظ ، وكان له
نظام عظيم ، فانخرم ذلك النظام ، وانتكست تلك الأعلام ،
ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

ذكر التقاء الجمعين

ولما التقى الجمعان في مرج دابق (★★) ، وكان في أول
الجيوش أمير كبير سودون العجمي ، وأركماس أمير سلاح ،
واخشيباي أمير مجلس ، وكان أمير أخور سيدي محمد بن
السلطان الغوري ، أقام في حلب بأمر والده ، وكذلك
دوادره جانم (★★★) الأشرفي ، ومن كان في مقدمة
العسكر سودون الدوادري رأس نوبة النواب ، وانسن باي

(★) الجلبان الجندو الجلوبة بالشراء .

(★★) مرج دابق مكان مشهور في محافظة حلب بسوريا . والمرج هو الموضع الذي

ترعى فيه الدواب .

(★★★) في الأصل حاتم .

حاجب الحجاب ، وقانصوه ابن السلطان جركس ، وكان من الأبطال ، وتنمر الزردكاش ، وجانبلاط أبو ترسين ، وتانى بك الخازندار ، وأزبك المكحل ، وببيرس ابن عم السلطان .

وباتوا تلك الليلة على غير حرب ، ولكن لم يهنا لأحد منهم نوم من مكر بعضهم لبعض .

• وكان ابتداء الحرب يوم الأحد المبارك الثالث والعشرين من رجب سنة ٩٢١ (★) .

فلما اتضح النهار ركبوا كالبحر الزاخر ، فاذا صفوف العثمانية قد بانت صفا بعد صف خارجا من الوصف ، والأعلام الملونة من اليسار واليمين ، وهم سائرون كالبحر السيال والمحيط الميال ، وقد رتبوا الصف من كل طرف ، فاذا طير من الطرف الكبير الذى فيه السلطان سليم مدفع كبير (★★) كالبرق الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحراء ، وطلع دخان كالجبال الزرقاء .

• فكان أول من بادر العثمانية بالحرب من طائفة الجراكسة أصلان بن بداق ، نائب حمص ، أخذ قنطاريته (★★★) بيده ، وأطلق عنان جواده ، وصار يقطع فى الفرسان يميناً وشمالاً .

فلما رأى الأمراء فعل أصلان بن بداق فى حملته أخذتهم الحمية ، فحمل الأمير سيباى نائب الشام ، ثم حمل

(★) ٢٣ رجب سنة ٩٢١ هـ = ٤ أغسطس سنة ١٥١٥ م .

(★★) فى الأصل : هدفا كبيرا .

(★★★) القنطارية آلة من آلات الحرب .

أمير كبير سودون العجمي ومماليكه خلفه نحو الألف ملبسين ،
ثم حمل الأمير جانبلاط أبو ترسين ، ثم الأمير علان دوا دار
ثاني ، ثم حمل قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم حمل
كرتباي الوالي ، وكان فارس المنايا والموت الزوام ، فله
درة من شجاع ، كان فريد عصره ! .

ثم حمل تنمر الزردكاش ، وبخشباي أمير مجلس ،
والأمير أنس باي حاجب العجائب ، والأمير قنصوه كرت ،
والأمير ثاني بك الخازندار ، والأمير ثاني بك النجفي ،
والأمير بيبرس ابن عم السلطان الغوري ، والأمير قانصوه
أبو سنة ، والأمير الفاجر ، والأمير خاير بك المعمار ،
والأمير جان بردي نائب بيروت ، والأمير جانبردي الغزالي ،
وخاير بك نائب حلب ، وكلاهما كان رأس المتعصبين على
الغوري ، والأمير تراز نائب طرابلس .

وحملوا جمفتهم حملة واحدة ، وصادموا الروم ،
ومالوا في القتال ، والروم الآخرون لاقوهم كالأسد الدخال .

قال الشيخ أحمد بن زنبيل المعلى : ولم نر في التواريخ
القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الوقعة ، ولا اجتمع فيها
مثل هذين العسكريين ولا أكثر عددا .

قال : ولم يقاتل في هذا اليوم من الجراكسة أكثر من
ألفي فارس . وهم الأمراء الذين قدمنا ذكرهم وأتباعهم ،
وأما جلبان الغوري الذين هم مشترواته ، فلم يتحركوا من
مواضعهم ، ولم يهزوا رمحا ، ولا جبدوا سيفا .

وسبب ذلك أن الله تعالى لما أراد إزالة دولتهم أوقع فيهم
الخلف لأمر يقضيه وحكم يمضيه .

وعلى ما قيل ، ان السلطان الفورى أمر بأن أول مرة يخرج للحرب القرانصة (★) لكونهم أعرف بالحرب من الجلبان ، وكان قصده أن ينقطع القرانصة ليكتفى شرهم ، ويصفو له الوقت (★★) فانه كان يحسب حسابهم خوفا من مكرهم ، فأمر بتقديمهم للحرب ، وأخر جلبانه . فعلموا مكره لما رأوه واقفا هو وجلبانه ، لم يتحرك منهم أحد من موضعه ، فتغيرت نياتهم عليه ، وقالوا له : نحن نقاتل بأنفسنا مع النار ، وأنت واقف تنظر إلينا كالعين الشامتة ، ما تأمر أحدا من معاليكك يخرج للميدان .

فكان العسكر كله مختلفا فى بعضه ، مفسود النية ، ليس لهم رأى يرجعون إليه ، ولا تدبير يقفون عليه ، بل كل من تكلم كلاما يقول الآخر بضده ، فمن ذلك انخرط نظامهم .

وأما الأمراء الذين تقدم ذكرهم نحو الألفين ، هم ومن يلوذ بهم ، اعتمدوا على الله تعالى فى حملاتهم ، وأصفوا نياتهم ، وصدموا الروم ، وضرب الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل ، لأنهم كانوا يقاتلون على قلب رجل واحد ونيات متفقة ، ليس لأحد منهم فى قلبه غل ولا مكر ولا حسد لأحد ، وهذا أحسن ما يكون لمن يريد النصر .

ولقد أجاد القائل : اذا أراد الله بقوم خيرا وفق بينهم ، واذا أراد بقوم شرا فتنهم ، وأوقع الخلف بينهم .

(★) القرانصة ، الجند القرائص وهم قديمو الهجرة الموصولون بالديوان ، أصحاب الأرزاق الكبيرة المتعينون الى الامرة . ويكونون فى منزلة أمراء الخمسوات . وكانت عدتهم مائة نفس ويسعون أيضا للوغاد .
(★★) فى الاصل : يصفى .

ومن أعجب ما يكون من العجب ، أن هؤلاء القوم القرييين من الألفى فارس المتقدم ذكرهم من الجراكسة يقاتلون قتال الموت في نحو مائة وخمسين ألفا من الروم والترك ما بين الوف مشاة ، ومثلهم خيالة من عسكر الروم ، ثم حطوا عليهم حطة واحدة .

فبينما هم كذلك الا والسلطان سليم رمح حصانه من قلب الصف الكبير حتى وصل الى الصف الوسطاني ، وفي يده سيف عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وصاح على عسكره : هكذا تعاركون قدامى مع عدوى ؟! وعيط على الباشات .

فلما نظر الروم الى ذلك ردوا على الجراكسة كالبحر اذا سال بعرض الوادى ، فتراجع الجميع ، وأطلقوا المدافع والبندقيات ، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر فى الثرى ، وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى ، وكان يجيء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من الدماء .

ومازال الروم والسلطان سليم سائرين حتى جاءوا الى صف الفورى ، فرجع خاير بك والغزالي مع من انهزم من الجراكسة حتى وطاق الفورى ، ونادوا بأعلى أصواتهم : « الفرار ، الفرار ، فان السلطان سليما أحاط بكم ، وقتل الفورى ، والكسرة علينا » . وانتثنى طالبا حلب .

فتبعه الجلبان وتشتت العساكر ، وظنوا أن السلطان قتل كما قال خاير بك ، وانما فعل ذلك بغضا ومكيدة مع الفورى . والساطان الفورى واقف مكانه وحوله بعض

الجلبان القريبين منه ، وأما البعاد عنه فانهم ظنوا أنه قتل فانهمزوا مع خاير بك قاصدين حلب .

فلما علم الغورى بما جرى لعسكره من التشتت صار ينادى عليهم بأعلى صوته : يا أغوات ، الشجاعة ، صبر ساعة . فلم يلتفت اليه أحد منهم ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، وكل ذلك بغضا منهم لسلطانهم ، فانه كان يريد أن يقطع القرانصة شيئا فشيئا ، ثم يستقل هو بجلبانه ، ويصفو له الوقت والسلطنة .

ولقد قال أهل المعرفة : من طلب جلّه فاتته كله . ولا تعاند تغلب ولو أنك السلطان (٢٦) .

فتقدم الأمير سودون العجمي أمير كبير ، وقال له : يا مولانا السلطان أين جلبانك ؟ أين خاصيتك ؟ هكذا عملت بنا ولا زلت قائما في حظ نفسك حتى أهلك نفسك وأهلكتنا معك ، ولكن القيامة تجمع بيننا وبينك ، وسنقف بين يدي مولانا ، سبحانه وتعالى ، يحكم بيننا بالعدل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

ثم التفت عن يمينه فوجد الأمير سيباي والأمير أقباي الطويل ، والأمير علان ، والأمير أصلان بن بداق ، ومن يشبه هؤلاء من القرانصة الأعيان ، وهم واقفون متجهزون ، فان جيشهم انكسر قهرا ، وما عسى أن تقاتل مائة نفس في مائة وثمانين ألف نفس ، ولكنهم مع قلتهم أوقفوا هذا الجيش العظيم ، ولم يقدر أحد منهم أن يتقدم .

ثم عيت هذه الطائفة القليلة من الضرب والقتل والكثرة تغلب الشجاعة .

وما زال الغورى حتى بقى وحده وخلفه حامل السنجق ،
 أمير اللواء ، وكان رجلا كبير السن من مماليك اينال
 الأجرود . فمضى شدة ما حصل للغورى فانه انكسر قهرا ،
 ووقع على الأرض مغشيا عليه (★) .

ذكر

قطع رأس السلطان الغورى

قال . . فلما وقع السلطان الغورى على الأرض رمى
 حامل السنجق الرمح ، وأخذ القماش المطرز ، وكان يساوى
 ثلاثة آلاف ذهب ، فقال الأمير علان لأقبائى الطويل : ما ترى
 فى أمر السلطان ؟

قال له : قل ما عندك . .

قال : ان نحن تركناه ورحنا وخليناه ، يأتى العدو
 فيقتلونه ويأخذون رأسه ، يطوفون بها جميع بلاد الروم .
 قال : فما رأى ؟

قال : رأى ، نقطع رأسه ونرمى بها فى هذا الجب ،
 والجبنة بلا رأس لا يعرفها أحد .

قال : نعم رأى ! .

فأمر الأمير علان عبدا من عبيده ، فقطع رأس السلطان
 الغورى ، ورمى بها فى جب هناك .

(★) وكان هذا يوم الاحد الثانى من رمضان سنة ٩٢٢ الموافق أول بابة كما ذكر ابن
 اياس (٢٠ سبتمبر ١٥١٦) وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة
 سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما .

ثم ولى الأمير علان الى ناحية حلب ، وأما الأمير أقباي الطويل ، فانه طلب ناحية العجم ، وأقام بها الى أن مات .

وأما الأمراء الذين التهبوا بالقتال مع الروم فانهم فاض عليهم بحر المنايا وزاد ، وابتلوا بعساكر ملأت السهل والواد ، واجتمع عليهم ذلك الجمع الكثير ، وخاضت خيولهم فى بطون القتلى ، فقاتلوا قتال من قطع من الدنيا أباسه (٢٧) (٤) .

فقصدهم الرماة بالبندق ، فوقع الأمير سيباي والأمير سودون العجمي ، وأما الأمير قانصوه ابن السلطان جركس فانه مازال يضرب بالسيف حتى خرق عسكر الروم ، وطلع من ذلك الجانب على حمية .

فلما خلاص شم الهواء وردت اليه روحه بعد أن كان آيس من الحياة ، وألف حسنة لرجل خرج من بين الألوف ، ولكن اذا جاء أمر الله قضى بالحق ، ولا راد لله فيما قضى ، فوق فى نهر هناك ينبت فيه العرقسوس ، فالتفت عليه قوائم الفرس ، ففرق .

وكان عسكر الروم تنظر اليه على بعد ، فلما رأوه فى هذه الحالة طمعوا فيه وأحاطوا به فقبضوه وعروه من الملبس ، فقطعوه بسيوفهم .

وأما الأمراء فغال بهم تشتت فى البلاد ، وغالبهم قتل ، وانهزمت تلك الجموع ، فتمكن عسكر السلطان سليم من أوطاق الفورى ، وأخذوا كل ما فيه ، وكان شيئا يفوق الوصف من الذهب والفضة ، والقناطير المقتطرة ، ومن

البرق والملبوس والتحف التى جمعتها الملوك السالفة ذهبت كلها ، ونهبت فى يوم واحد .

وذلك بالنسبة لما أبقاء السلطان فى قلعة حلب ، وما أودعته الأمراء والأجناد عند أهل حلب ، وهو شئ لا ينحصر ، قليل جداً . ومما نقل أن السلطان الغورى لما خرج للملاقاة العثمانة أخذ معه مائة قنطار ذهباً ودنانير ، ومائتى قنطار فضة أنصافاً ، وكان قصده أن يجعل ذلك نفقة للمسكر ، ونوى أنه لا يزال ذاهباً حتى يصل أسلامبول ، ويأخذها من يد السلطان سليم .

وسبب ذلك أن السلطان سليماً أرسل له كتاباً على سبيل النصيحة ، وغالبه تهديد كالسم فى الدسم ، ومن جملة ما فيه أنه قال : « ان لم ترجع عما أنت فيه من الظلم والعناء على المسلمين والا جئتكم بعسكر من الروم ، وأخرب مضرک عليك » .

فكان هذا الكلام من جملة السبب المحرك للغورى على خروجه لحرب السلطان سليم .

فأرسل فى الجواب : أنا لا أحوجك للمجىء إلينا ، ولكن تأهب للقاء الأبطال ، وتنظر كيف تفعل الرجال .

وصدق فى قوله ، لأنه أفحم قلوب عسكره ، وأهلك غالب الأمراء من القرانصة ، فكرهته العساكر كلها ، وما خرجوا معه الا وكل منهم يتمنى ألا يرجع الى مصر ، وكان هذا من سوء تدبيره ، وكل ذلك حتى يجرى القضاء والقدر .

قال الراوى : وبات السلطان سليم فى مرج دابق ، ثم أصبح وأمر أن تعد القتلى من الفريقين .

فوجدوا الذى قتل من الجراكسة ألف نفس ، وأكثرهم من المدافع والبندقيات ، والذى قتل من عسكر الروم أربعة آلاف . ثم وجد فى القتلى رجل عظيم من الجراكسة ، وعليه من الملابس الفاخرة ما يناسب الملوك ، وعليه من الهيبة والوقار ما لا يوصف ، ووجهه يتلأأ نورا ، وقد جاء مضرب زان أخذ فخذه ، فجىء ببعض من يعرف الجراكسة ، فوجده سودون العجمى أمير كبير .

فأمر به السلطان ، ففسل ، وصلى عليه ، وأمر بدفنه ، فكان ترابه فى زاوية هناك ، تسمى زاوية الشيخ أبى النور القارئ . وأما ما كان من أمر الجراكسة فانه لما وقعت عليهم الكرة نهب بعضهم بعضا ، وصار كل انسان منهم يأخذ ما قدر عليه ، وكل من كان له عدو وقدر عليه قتله ، ولكل شىء آفة من جنسه .

وانظر الى قوله تعالى : « ولا تنازعوا ، فتفشلوا ، وتذهب ريحكم . . الآية » (٢٨) .

وقوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . . الآية » (٢٩) .

وقوله تعالى : « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . . الآية » (٣٠) .

ثم ذهب غالب العسكر قاصدين الى حلب ، فمنعهم أهل حلب ، لشدة ما قاسوا منهم حين مجيئهم مع النورى ، فتشتت شملهم ، وذهبت حميتهم ، وانكسرت شوكتهم بعد تلك القوة والمنعة العظيمة والبأس الشديد .

(٢٨) سورة الأنفال ، آية ٤٦ :

(٢٩) سورة الاسراء ، آية ١٦ .

(٣٠) سورة الرعد ، آية ١١ .

• وكان سبب سعادة أهل حلب من هذه الواقعة •
فأنهم كانوا أودع عندهم الجراكسة جميع أموالهم وخرجوا على
جرائد الخيل فطمعت فيهم أهل حلب ، وصدوهم عن الدخول
لأجل ذلك •

وأما خاير بك فإنه دخل حلب ، وأخذ سيدي محمد بن
المغوري ، وكان أبقاء أبوه على خزانته وأمواله بقلعة حلب ،
فأخبره أن شهور نازل على جيلان (★) بعشرين ألف فارس ،
وهو قاصد أخذك ، وأخذ حلب •

فقال سيدي محمد : فما الرأي يا أمير خاير بك ؟

قال : الرأي أن ننأى في المعسكر بالرحيل الى مصر ،
ويجتمع اليك ما شئت من المعسكر ، وتكون ملك مصر موضع
أبيك ، وأنا مساعد لك في ذلك •

فصدقه في ذلك •

ونأى في حلب بالرحيل الى مصر ، ومن له رغبة في
المسير الى مصر فليتبعنا •

فخرجت الناس على وجوههم ، وتركوا أثقالهم وأموالهم ،
واختاروا سلامة الروح ، وكانت مكيدة •

وخرجوا من حلب كالهاريين •

(★) جيلان قوم من أبناء فارس انتقلوا من نواحي اسطخر فغزلوا بطرف من البحرين
على الخليج العربي •

وفعل ذلك خاير بك حتى يأخذ حلب للسلطان سليم من غير حرب . .

وكان الأمر كذلك .

فانه أرسل الى السلطان يخبره بما فعل ، وأنتك تسير في هذا الوقت الى حلب ، فانها خالية من العسكر المصرى ، وأما عسكر حلب فمن أطاعنا أبقيناه . .

فجاء السلطان سليم بموكبه ، ودخل حلب من غير حرب ، وأطاعته الرعايا والعساكر ، فملكها ، وأخذ الأموال التي وجدها ، ونهب الغالب .

وتلاشى أمر ابن الغورى ، وما دخل مصر الا فى أسوأ الأحوال ، واذا أراد الله بأمر بلغه .

قال الراوى : فلما خرج ابن الغورى من حلب ، قصد دمشق الشام ، فخرجت عليه العربان ، فنهبت أثقاله وأثقال من معه ومن قدروا عليه ، ولولا الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير قنبردى الغزالى ، والا كانوا نهبوا جميع العسكر .

فان العسكر ماتت قلوبهم وألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب ، فما دخلوا دمشق الا فى أسوأ الأحوال ، فضاقت عليهم دمشق ، وغليت الأسعار ، فأقاموا بها ثمانية عشر يوما .

وأراد الأمير قنبردى الغزالى أن يتسلطن ، فقال الأمير أبرك : أولى ما تكون السلطنة أن تكون لابن السلطان . فأجابه الجلبان ، جملة واحدة وبعض من القرانصة : نعم .

فلما سمع ذلك الأمير قنبردى الغزالي آيس من السلطنة ،
فشرع فى الملاحاة عليهم ، وفى تعكيس أمرهم ، وكلما
دبروا أمرا تحصل منه منفعة يسخطهم فيه .

فقام الأمير علان وقال : تخت (٣١) السلطنة بمصر أم
الشام ؟

قالوا : بمصر .

قال : فاذهبوا الى مصر ، واجتمعوا بمن بها من الأمراء ،
واتفقوا على انسان تختارونه ، وسلطنوه ، فان السلطنة
لا تصلح لأحد الا لأشجعنا وأعقلنا . وخصوصا نحن فى
أضييق الأحوال ، وعدونا فى طلبنا ، كيف نسلطن علينا ولدا
صفيرا ؟ وان كان هو ابن السلطان ، ليس فيه كفاءة وقدرة
على السلطنة على هذا الوجه وهذا الحال .

فاستصوبوا رأيه .

وما قصده الا أن تكون السلطنة له ، فانه كان من
الفرسان المجترة المشهورة ، وكل انسان ما يريد الحظ
الأوفر الا لنفسه . فاقتضى رأيهم بالتوجه الى مصر ، وابن
الغورى معهم كأحد الناس ، لا يلتفتون اليه .

وأما القرانصة الرعوس فكل منهم يتمنى أن يكون هو
السلطان ، ولا يكون الا ما يريد مولانا سبعمه وتعالى .

ثم خرج العسكر من الشام قاصدين مصر .

فقالوا للغزالي : من يحفظ الشام ؟

قال : الأمير ناصر الدين بن الحنش .

فأرسل خلفه ، وخلع عليه خلعة تليق بمقامه ، فانه كان من أعيان شيوخ العربان بتلك الديار .

وقال له : البلاد بلادك ، تسلم حفظها حتى ننظر الأمر كيف يكون .

ثم ذهب الأمير قنبردى الغزالي مع العسكر الى مصر ، وهو كامن لهم الغدر ، لكونهم لم يسلطنوه ، وأضمر على معاكستهم ، ومال بقلبه الى رأى خاير بك فى تحريض السلطان سليم على أخذ مصر .

فانه كان قصده الرجوع من حلب الى شاه اسماعيل ، وما قصده أخذ مصر ولكن أطمعه فى أخذ مصر خاير بك والغزالي . فمازال الأمراء والعسكر سائرين الى أن دخلوا مصر ليلا ، وهم فى أسوأ الأحوال .

فنزل قنبردى الغزالي فى بيته ، وابن النورى فى بيت أبيه الذى بناه له فى البندقانيين (★) وهو الذى قدمه الحمزاوى ، وجعله خانا للتجار ، وبقيّة البيت باقية الى

(★) البندقانيين ، ذكر المقرئى أن البندقانيين كان خطا من أعمار الخطاط القاهرة وأنه كان قديما أحد اصطبالات الخلفاء الفاطميين لما زالت الدولة الفاطمية اختط وصارت فيه مساكن وسوق تعرف بسوق البندقانيين ، ومن جملة عدة جوانيت لعمل قسمى البندق ، ومكانه حاليا بين أجزاء سور الخورية بالقاهرة .

الآن ، وهى القاعة العظيمة وما حولها ، وبابها من ناحية سور الفورية (★) ، فسبحان من يغير ولا يتغير ! •

وكان الأمير أنس باى حاجب الحجاب فى رأس حدره البقر عن يمينك وأنت متوجه الى الصليبية (★★) ، وهو يعرف الآن ببيت حمزة الذى مات فى اليمن •

وتنم الزردكاش فى البيت الذى فى ازائه •

وبيت الأمير تانى بك النجمى فى حدره الصليبية عن يسارك وأنت قاصد قلعة الكباش (★★★) •

وبيت الأمير أذربك المكحل فى رأس المدايق (★★★★) عن يسارك ، الذى كان فيه المرحوم عثمان بيك قائم مقام •

وبيت قانصوه الفاجر أسفل منه من ناحية باب زويلة (★★★★★) •

(★) الفورية مكان معروف بالقاهرة بين باب زويلة وشارع الأزهر ، مشهور بالسوق •

(★★) الصليبية مكان بالقاهرة معروف بالقرب من مسجد أحمد بن طولون •
(★★★) قلعة الكباش ، الجزء المرتفع القائم شرق مسجد أحمد بن طولون حتى البغالة وهو معروف بمنظره التاريخية الجميلة ، وقد عرف بالكباش من اسم الجبل المبنية فوقه البيوت • وكان بهذا المكان دار الامارة زمن شمال مصر من قبل الخلفاء الامويين والعباسيين وفى أيام الفاطميين جعلوا فوقه قصورا سميت بمنظر الكباش ، وقد وصلها المقرئى •

(★★★★) المدايق الجزء الواقع فى جنوب مصر القديمة ، مشهور الآن بمصانع دبغ الجلود •

(★★★★★) باب زويلة واحد من أبواب القاهرة القديمة ، وقد بناه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٥ هـ نسبة الى قبيلة زويلة التى جاءت من القيروان مع جوهر ، وشد كانت مثبنتا هذا الباب عظيمتين جدا واكبر مما هما عليه الآن ، وقد دهم اعلاهما الملك المزيدي لما بنى الجامع داخل باب زويلة • وقال المقرئى كان باب زويلة عندما وضع القائد جوهر بابين بجوار المسجد المعروف باسم بسام بن نوح - انظر الخطط التوفيقية ، الصحيفة ٥٠ الجزء الثانى •

وبيت بخشيباي تجاهه .

وبيت أبرك رأس الجلبان في رأس الصليبة من ناحية الكيش .

وبيت الأمير طومانباي دوادار كبير على بركة الفيل (★) .

وبيت الأمير علاء على بركة الناصرية ، بجوار مدرسة أمير أخور .

وبيت قانصوه كرت بالقرب من قناطر السباع ، وأنت قاصد مصر القديمة بجوار مدرسة لاجين (★★) .

وبيت ابن السلطان جركس بقرب سيدى عماد الدين .

وبيت تقطبای نائب القلعة بقرب حمام بشتك (★★★) الذى فى رأس سويقة المزة من داخل الدرب ، وهو الذى كان ساكنا فيه قايد آغا ناظر الدشيثة .

(★) بركة الفيل ، مكان معروف بقسم السيدة زينب بالقاهرة . من جامع احمد بن طولون حتى شارع الخليج « بورسعيد » ، وكانت هذه الأرض كلها بساتين ليعن بها بناء ، ويشرف على البركة الناظر من أعلى جبل يشكر ، ويرى الناظر منها باب زويلة وباب مصر ومدينة مصر وقلعة الروضة وجزيرة الروضة ومجرى النيل . وكانت بركة الفيل من أجمل متنزهات مصر .

(★★) مدرسة لاجين : انشأها لاجين الفقارى حاكم الغربية . وكان مكانها فى اول شارع محمد على من عند ميدان العتبة . وكان بالقرب من المدرسة سويقة تعرف بسويقة لاجين .

(★★★) حمام بشتك ، وقد اندثرت معالاه ، ومكانه بالقرب من مسجد مصطفى باشا فاضل الموجود بدرب الجمامين على قرب من ميدان السيدة زينب بالقاهرة .

وبيت أركماس أمير مجلس فى الأزبكية (★) فى
بيت يزيك .

وتانى بك الخازندار فى بيت الأمير ماماي الذى هو
الآن بيت قاضى العسكر .

وسودون الدوادار فى بيت جانبلاط بالقرب من
الخرنفش (★★) ، مقابل مدرسة الباسطية .

وبيت قانصوه أبو سنة فى رأس سويقة (★★★) العزة
من ظاهر الدرب .

وبيت خوش كلدى فى التبانة بجوار سويقة البقلى .

واقباى الطويل فى بيت ترابيه .

(★) الأزبكية ، وتنسب إلى الأمير أزيك وكان أصله من معاتيق الظاهر جقمق .
وقد صاهره مرتين فى ابنتيه ، وتولى عدة وظائف منها حجوبية الحجاب ورأس نوبة كبير
وقد أنشأ عمارة الأزبكية سنة احدى وثمانين ، وكانت الأزبكية بستانا كبيرا غربى
الخليج يمتد من أولاد عنان إلى قنطرة باب الخرق فى مساحة تبلغ نحو ستين فدانا ، ولما
ضافت مصر بالسكان صارت أرض البستان تحكر شيئا فشيئا ، إلى أن كان زمن السلطان
قايتباى ، فدخل بال الأتابكى أزيك أن يبنى فيها مناخا يحوى القاعات الجليلة والدور
والمقاعد ، وأن يبنى بها مسجدا كبيرا فى غاية الحسن ، ثم أنشأ حول المسجد البناء
الكربوع والحمامات والقياسر وما يحتاج إليه من الطواحين والأفران ، ثم سكن أزيك
فى تلك القصور حتى مات .

(★★) الخريفش مكان معروف بالقاهرة ، أوله من عند سبيل التصرين وينتهى
عند حارة الشعراتى بقسم الجمالية ، وعلى جانبه عطف وحارات ، منها حارة برجوان .
خادم الخليفة العزيز باش ، أبو الفتوح برجوان ، وقد بنى برجوان فى هذا الجزء دارا
للضيافة سكنها أمير الجيوش بدر الجمالى حتى قدم مصر وتولى الوزارة بها . وبرجوان
هذا هو الذى تكفل بالحاكم بأمر الله بن عبد العزيز لما تولى الخلافة صغيرا وقد لازم
الحاكم إلى أن قتلته .

(★★★) سويقة العزة ، كذا فى الأصل ، وقد ذكرها على مبارك فى الخطط التوفيقية
سويقة العزى ، ومكانها بين شارع سوق السلاح وشارع الدرب الأحمر ، وقد عرفت هذه
السويقة باسم عز الدين إيبك العزى نقيب الحيش أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون . وهذه
السويقة كانت من جملة المقابر التى خارج القاهرة فيما بين الباب الحديد وبركة الفيل
وبين الجبل الذى عليه الآن القلعة .

وبيت الأمير قانصوه رجله فى الرميلة (★) .

وبيت جانبلاط أبو ترسين فى سويقة صفية .

وبيت كرتباى الوالى فى رأس سويقة العزة ، وأنت قاصد باب زويلة .

وكانت مصر بهذه الأمراء كالعروس المجلية ، وكل أمير من هؤلاء كالمملك المنفرد بنفسه ، وكل من فى حارته عايش فى رزقه وفى حمايته .

فسبحان من لا يحول ولا يزول ، ولا تراه العيون .

وبيت قانصوه أصقله بباب الخلق (★★) بالحدرة ، وأنت قاصد سويقة صفية ، وهو مشهور الى الآن، وكان يأمر السياس بأن يصقلوا جلد الحصان حتى يصير يلمع كالمصقول من الثياب ، فلهذا سمي « أصقله » . .

وكان بيت الأمير سودون العجمى فى رأس سويقة السباعين (★★★) على يسار القاصد للسويقة المذكورة .

فرحم الله تعالى تلك الأرواح .

(★) الرميلة مكانها الآن ميدان صلاح الدين بالقلعة فى القاهرة المعروف بالمنشية .
(★★) باب الخلق كذا فى الأصل ، وقد ذكر فى جميع كتب التاريخ القديمة باب الخرق ومكانه الميدان المعروف بميدان أحمد ماهر بالقاهرة (انظر ص ٥٠ الجزء الثالث من الخطط التوقيفية لعلى مبارك) .

(★★★) سويقة السباعين ، مكانها كان معتداً من درب الخليفة الى شارع الناصرية ، وكان يفصلها عن القاهرة أرض مزارع ، وكان المار من بوابة الناصرية الى جهة الشيخ ربحان يجدها عن يساره ، وقد ذكرها المقرئى فى ترجمة هكر الست مسكر حيث قال ، ان هذا الحكر بسويقة السباعين ، وكان هذا الخط من منشأة المهرانى الى المقسى .
بساتين ثم حكرت .

ذكر

اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر

ونرجع الى اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر ، وحكاية ما وقع لهم ، وكيف كسروا قهرا باختلافهم فى بعضهم ، وملاحاتهم على سلطانهم ، فانهم تسببوا فى هلاك سلطانهم وهلاك أنفسهم ، وكل ذلك ثمرة العناد ، كما قال القائل : « ولا تعاند تغلب ولو أنك سلطان » .

ثم اجتمع الأمراء والأعيان فى ثانى يوم بقلعة الجبل ، فاقتضى رأيهم جميعا سلطنة طومانباى (★) ، وبايعوه على السلطنة فى يوم الأحد خامس عشر من شهر رمضان سنة تسعمائة واثنين وعشرين .

وكان رحمه الله غليظ الجثة ، كبير البطن ، متوسط الطول ، كبير اللحية والوجه ، ورزق من الأولاد الذكور ثلاثة ، ولم يعيش له منهم سوى سيدى محمد .

وقد أخبر ولده هذا عن والده أن الغورى عاش من العمر ستا وسبعين سنة ، وقيل ستا وثمانين سنة .

(★) ذكر ابن اياس أن طومانباى أصله من كناية الأشرف قايتباى ، وقد اشتراه الملك الأشرف قانصوه الغورى وكان يلوذ به بقرابة ، فلما اشتراه قدمه الى الأشرف قايتباى ، ولهذا يدعى طومانباى عن قانصوه فصار من جملة مماليكه الكتائبية ، واستمر على ذلك حتى تسلط الملك الناصر محمد بن قايتباى ، فخرج له خيلا وقمasha وصار من فرج الملك الناصر ومعانيقه ، ثم بقى خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى تسلطن قريبه قانصوه الغورى فأنعم عليه بأمرية عشرة ، واستمر على ذلك الى سنة عشرة وتسعمائة ، فلما توفى ابن السلطان المقر الناصرى محمد أنعم عليه السلطان بأمرية طيلخانة وجعله شادا لشريخانة عوضا عن ولده بحكم وفاته ، واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة فلما توفى الأمير أئدمر بن على الكبير خلع عليه السلطان وقرره فى الدودارية الكبرى عوضا عن الأمير أئدمر الى أن خرج السلطان الى التجريدة بسبب ابن عثمان ، فجعله نائب الفقيه عوضا عن نفسه حتى يحضر من السفر ، فسار فى الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة وكانت الناس عنه راضية (انظر بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس * ج ٥ ، ص ١٠٣) .

ولما بايعوا طومانباى على السلطنة أراد أن يقبض على سيدى محمد بن الفورى ويأخذ ما معه من المال .

فقام الأمير أبرك رأس الجلبان وقام معه من بقى من الجلبان ، وقال : لا سبيل الى أذى ابن أستاذنا بوجه من الوجوه ، حتى تذهب أرواحنا . يهلك أستاذنا بينكم ، ويغلب قهرا ، وتريدون أن تهلكوا ولده الآخر ، فلا كان ذلك أبدا الا ان هلكنا جميعا .

فقاتل القرانصة - وكان المتكلم منهم الأمير علان والأمير كرتباى الوالى ، فانهم كانوا غرض طومانباى لما يعلمون من دينه وصلاحه وشجاعته وفروسيته ، وليس الخبر كالعيان - للجلبان : ما حصل لابن أستاذنا فى عرضنا وفى ذمتنا ، وأنتم تعلمون أن طومانباى رجل صوفى ، فقير من الدنيا وليس معه ما يقدم بنظام السلطنة ، وقصدنا نأخذ من ابن سلطانكم قدر ستين ألفا يدفعها لطومانباى ، يستعين بها على لقاء العدو والقادمين علينا ، وأما ابن أستاذكم فانه ولد صغير ليس فيه كفاية لذلك .

فاستحسن الجلبان هذا الكلام ، وخلوا ما كانوا عزموا عليه من القيام على طومانباى .

هذا ما كان من أمر الجراكسة .

وأما السلطان سليم فانه أقام بحلب نحو العشرين يوما ، وكان مع الفورى خلفاء المشايخ ، مثل خليفة سيدى أحمد البدوى ، وسيدى عبد القادر الجيلانى ، وسيدى ابراهيم الدسوقى وأمثالهم .

فلما وقعت الكسرة على الغورى بقيت المشايخ المذكورون بحلب . فلما سمعوا بأن السلطان سليما قادم الى حلب خافوا من سطوته ، فأخذوا فى الذهاب نحو الشام (٣٢) .

فلما رأهم على بعد مع الرايات والأعلام قال : ما هؤلاء ؟ قالوا له : هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا جاءوا مع الغورى ، فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب الى مصر . فأمر بإحضارهم .

فلما مثلوا بين يديه أمر برمى رقابهم واحدا بعد واحد ، ولم يرحم منهم كبيرا لكبره ، ولا صغيرا لصغره ، فقتلهم عن آخرهم ، فرحمهم الله أجمعين ، وكانوا يزيدون على ألف رجل ، قدر الله عليهم ذلك .

ثم أمر بالتوجه الى الشام (٣٣) .

وكان المشير له بذلك خاير بك .

ولما قدم على الشام (دمشق) أمر بإحضار على نائب القلعة ، فشنته لأجل عدم تقدمه على استقباله ، وشنق غالب جماعته .

وكان السلطان سليم ليس له اقدام على قتل النفس ، لا يفكر فى قتل أحد ، وكان الأمير خاير بك والأمير ناصر الدين بن الحسن شيخ بلاد الدوار هم المساعدون للسلطان سليم على مراده ليصير لهم عنده يد ، وتصير لهم مزية على سائر أهل البلاد ، ومن كان لهم عنده غرض يبقون عليه .

(٣٢) المقصود هنا دمشق .

(٣٣) أى دمشق .

قال الراوى : ثم قوى عزم السلطان سليم على المجيء إلى أرض مصر وما حرضه على مصر الا خاير بك ، فانه قصد الرجوع الى بلاده بعد أخذ حلب والشام (٣٤) كما فعل قبله السلطان تيمور بهادر خان ، فانه كان أخذ حلب وبر الشام بجملته وأخرب الشام وحلب مرة واحدة ، وأفسد العباد والبلاد وهتك حرمت الله ، فأخذ الله أخذه رابية .

وكان قصده أخذ مصر من يد سلطانها فراح بن قرقوف ، فخشى أن يتحول ، فعمل السكة والخطبة فى مصر والحرمين باسمه ، فعاد على عقبه .

وكذلك السلطان سليم لما أخذ بر حلب والشام قصد الرجوع الى بلاده ، فأغواه خاير بك وقنبردى الغزالى وناصر الدين بن الحنش على التوجه الى مصر ، وضمن له خاير بك أخذ مصر ، وذلك مكر منه . فانه علم أنه ان رجع السلطان سليم الى أرض الروم لم تبق الجراكسة على خاير بك ، ولو ذهب الى تخوم الأرض ، فما وسعه (٣٥) الا أنه التزم للسلطان سليم بأخذ مصر ان شاء السلطان .

فقال له السلطان سليم : وأنى لى بأخذ مصر ، وجميع العسكر اجتمعوا بها ، وقد أخذوا أهبتهم ، وسلطنوا عليهم طومانباى ، وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ، ولا بد لهم من أمر يريدونه ، ونخشى التجوين (٣٦) فى بلادهم ، وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا .

(٣٤) المقصود دمشق

(٣٥) فى الأصل (فما ساعه)

(٣٦) المقصود التوغل

فقال خاير بك : ان العسكر الذين رجعوا من يمد
الكسرة انقطعوا ، وانقطعت قلوبهم ، لا سيما والخلف
(بضم الخاء) واقع بينهم ، فانهم جميعهم مختلفون ، وكل
من الأمراء والأعيان قصده هلاك الآخر ، فحيثما كان ذلك
فلا تخش من شيء ، وانت منصور بنصر الله لك ، وقرأ قوله
تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

فطابت نفس السلطان سليم على التوجه الى مصر ،
وأخذها ، ولو فنى نصف عسكره .

ذكر

كتابة مرسوم الى السلطان طومانباي

قال : ثم أمر بكتابة مرسوم الى السلطان طومانباي ،
ملخصه :

« انى أريد أن تكون السكة والخطبة باسمى ، وأنت
نائب عنى ، وأبقيك على ما أنت عليه » .

فلما وصل المرسوم الى طومانباي قرأه ، وفهم معناه ،
وطابت نفسه على ذلك ، لكونه فيه حقن لدماء المسلمين .
فقدر الله تعالى أن الأمير علان طالع الديوان ، وإذا قد لاحت
منه التفاتة ، فرأى أولاقية (★) السلطان سليم واقفين تحت
الديوان ، والناس ينظرون اليهم ، وقد أشيع الخبر بأن

(★) الأولاقية هم الرسل .

السلطان سليما أرسل ، يطلب أن تكون السكة والخطبة باسمه (★) -

فلما رآهم الأمير علان لم يتمالك من نفسه الا أن جذب سيفه وضرب أعناق الأولاقية بيده ، وكانوا ثلاثة أنفار •

وطلع الى السلطان طومانباي وهو مملوء من الفيظ وقال له : أصبح ما قيل ؟

قال : نعم •

قال : فما الذي عولت عليه ؟

قال : أوافق على ما أراد ، وأكون سببا في حقن دماء المسلمين ، وبقاء كل واحد في وطنه ، فاني علمت من كلامه أني اذا لم أجبه يحصل فساد عظيم ، وعلى كل فهو قادم علينا ولا محالة ، وعلمت أن العسكر كلهم مختلفون ، وليس فيهم أحد مع أحد ، وما أظن الا أن الله تعالى أراد زوال ملك آل جركس من هذه الديار ، فما رأيك أنت ؟

قال : رأيي أن نقاتل عن بلادنا وحریمنا وأرزاقنا ، أو نقتل عن آخرنا -

قال : ولكم صبر على القتال ؟

قال : هذا أسهل ما يكون ، فاني قاتلتهم في مرج دابق ، وعرفت حالهم ، فانه ليس عندهم معرفة بالفروسية

ولا ركوب الخيل ، وانما غاية ما عندهم الرماة بالبندق والمشاة ، فنحن اذا صادمناهم ندكس عليهم دكسة واحدة ، ندعكهم تحت أرجل الخيل ، ولعل الله تعالى يمكننا منهم ومن سلطانهم ، فناخذهم أسيرا ، ونجمله مثلا ليوم القيامة .

فلما رأى طومانباي عزم الأمير علان على الحرب وانتشر الأمر ، فمنهم من أجاب الى ذلك ، واختار الحرب والطعن والضرب ، ومنهم من اختار الصلح .

فقام عليهم الأمير علان والأمير كرتباي الدالي (٣٧) . وشتعوا عليهم بالكلام ، وذموهم ، فما ساعهم الا أنهم اتفقوا على الحرب والدفع عن الحريم والأولاد .

وأما السلطان سليم فلما رجع له الخبر بأن أولاد قتيته قتلوا بمصر أرسل خاير بك .

فلما حضر أمره بالجلوس ، فجلس ، وكان السلطان يحب خاير بك لأنه لا يأتيه الا على مراده ، فان السلطان سليما كانت همته عالية ويحب أن يكون رأس الملوك ، وهو من كان خادما للمحرمين الشريفيين .

فقال السلطان سليم لخاير بك : ما رأى عندك ؟

قال : نركب الى مصر ، نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جملة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بعناية الله تعالى .

فالتفت السلطان الى يونس باشا ، وقال له : ما تقول ؟

فقال : أقول ان السلطان يأخذ من غزاة الى الشام (٣٨) ،
ويترك لهم مصر ، فاننا ان مشينا عليهم وتجوننا فى أرضهم
وبلادهم ما نأمن على أنفسنا ان حصل لنا كسرة ، لا سيما
وعندهم من العربان ما لا يحصى عددا والعرب تركن اليهم
أكثر منا ، لأنهم معتادون عليهم ، ومنهم من هو مصاهرهم ،
ونتندم حيث لا يتفعلنا الندم .

فتألم السلطان لهذا الكلام من يونس باشا ، وحقره فى
قلبه ، ولكنه أسرها له فى نفسه حتى قتله .

وسياتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ذكر

خروج السلطان سليم الى مصر

قال : ثم ان السلطان سليما أمر بالرحيل بعد ثلاثة
أيام الى أرض مصر .

وأما طومانباى فانه لما رأى الأمراء من الجراكسة
معوّلين على الحرب جمعهم ، وضرب المشورة على من يكون
باشا على العسكر ، فاتفق رأيهم على أن يكون قنبردى
الغزالي ، وكان ذلك أول عكسهم ، لكونه ملاحيا عليهم فى
الباطن .

وكان جملة العسكر الذين خرجوا معه فى هذه
التجريدة عشرة آلاف عسكرى ، وعشرة متقدمين من

الألوف (٣٩) ، وثلاثة من الأمراء والأربعينات ، وثلاثة من
الأمراء العشرات (★) .

ومن الأمراء المتقدمين من الألوف العشرة المذكورين
قنبردى الغزالى نائب اسكندرية ، وقانصوه أبو سنة ،
وقانصوه كرت ، وتقطبای نائب القلعة .

ومن الأمراء الأربعينات برسباي الشهبي ، وقرقماس ،
والأمير مسد ، وجانبردى ، والأمير قايتباي نائب الكرك .

ومن العشرات الأمير خوش كلدى وقانصوه استدار
صحبه ، والأمير جانم دوادار ، وسيدى محمد بن الغورى ،
وأخوه جان بك ، وقرقاس الشريفى .

ولم يسافر فى هذه السنة الحج ، لأن السلطان كان
مشفولا بالحرب .

ثم خرج العسكر فى أول شوال سنة اثنتين وعشرين
(وتسعمائة) (★★) فلما وصلوا خان يونس (★★★)

(٣٩) الصياغة الصحيحة : من مقدمى الألوف (وهى رتبة عسكرية) .

(★) كان عدة الأمراء مقدمى الألوف أربعة وعشرين أميراً ، يقوم بخدمة كل واحد
خانة مملوك وأرباب وظائف ، وهو مقدم على الألف جندى لفلان ذلك يسمى أمير مائة
مقدما على الألف ، ومن مظاهر حياته أن تدق على بابه ثمانية أحمال طيلخاناه وطبلان رصل
وزمران وأربعة أنقرة مرتين ، وفى الأمراء مقدمى الألوف من هو صاحب وظيفة ومن
ليس له وظيفة . وأما أمراء الأربعينات فقد كانوا أربعين أميراً ، كل واحد منهم يقوم بخدمته
أربعون مملوكاً وتدق على بابه ثلاثة أحمال طيلخاناه ونفيران . وأما أمراء العشرينات فكانت
عدهم عشرين أميراً يقوم بخدمة كل واحد منهم عشرون مملوكاً . وأمراء العشرات كانوا
خمسین أميراً يقوم بخدمة كل واحد منهم عشرة ممالك .

(★★) أول شوال سنة ٩٢٢ / ٢٨ أكتوبر ١٥١٦ وفى هذا اليوم استولى
الاسبانيون على جميع بلاد اسبانيا .

(★★★) خان يونس ، بلد بفلسطين ، كان أول محط لنزول الوافدين على مصر من
طريق الشام ، وبالقرب منه قبر الشيخ زوين ، وكان من أعراب البوادي الصالحين ، ولاهل
خان يونس فيه اعتقاد عظيم .

واذا بعسكر السلطان سليم قد أشرف ، فوقف كل من
العسكريين ، وأرسل كل منهما فارسا يكشف الخبر .

فلما اجتمع الفارسان سأل بعضهما بعضا .

فكل منهما أجاب عن قومه .

ثم افترقا ورجعا ، وأخبرا بالأمر .

فلما تحقق كل من الفريقين الخبر تهيأوا للقتال
وترتبوا ترتيب الحرب ، ودكست الجراكسة بالخيال العربية
دكسة تهد الجبال ، فلاقتهم اليكنجرية برش بندق ، خلت (٤٠)
الراقد أكثر من الواقف . فدكس الغزالي ، وجاءته الحمية ،
وأفحش في القتل ، فتكاثروا عليه وجذبوه بالكلايب (٤١)
وأخذوه أسيرا .

فتعصب له الزعر (★) من الغلمان ، وخلصوه من قلب
العدو بعد أن قتلوا من اليكنجرية مقتلة عظيمة ، وخلصوه .

وكانت الكسرة على الجراكسة .

= وكلمة « خان » لقب متعدد المعاني اختصار « قاغان » أو « خاقان » ، وقد استعملت
مرادفة لكلمة ملك أو شاه ، كما تضاف الى أسماء بعض الأماكن مثل خان الخليلي
في القاهرة ، وفي هذه الحال الأخيرة يكون معناها مكانا أو موضعا أو سوقا ، وغالبا
ما تطلق عند اضافتها لكان على الوكالات والفنادق المعدة لاستقبال التجار ودوابهم
... الخ وقد تعنى أماكن العبث واللهو .

(٤٠) أى جعلت .

(٤١) المشابك .

(★) الزعر ، أو الزعارة وهم الزعاع والمقصود العامة وسواد الناس . وهي قرية
المعنى من الحرافيش ، ولا تبعد كثيرا عن الشلاق أو الشلق .

وأما جند العسكر الروم فانه كان فرهاد باشا تقدم على عسكر السلطان بقدر بريد (★) ، وكان المساعد له شيخ العرب المسمى باب البريق على الجراكسة ، ولا ضرهم الا البندق . فانه يأخذ الرجل على حين غفلة ، لا يعرف من أين جاءه ، فقاتل الله أول من صنعها ، وقاتل من يرمى بها على من يشهد لله بالوحدانية ، ولرسوله ﷺ بالرسالة .

ونرجع الى سياقة الحديث .

فأما السلطان سليم فلا زال سائرا على الراحة حتى دخل قطيا (★★) ، فلم يجد بها أحدا من العسكر مطلقا ، فأقام بها ثلاثة أيام .

فرد عليه أحمد بن بقر (٤٢) شيخ بنى وائل ، ومعه أولاده ، عبد الدايم ، ويبيرس ، والجذامي ، وخاطر .

وكان خاطر أصغرهم .

فخلع عليه وعلى أولاد السلطان سليم خلعا .

وكان أحمد بن بقر (بقر) صاحب طبل خانة (★★★) في مصر ، وأقره على ما هو عليه من بلاده وأرزاقه ، وكذلك مشايخ العربان .

(★) البريد مسافة تقدر باثني عشر ميلا .

(★★) قطيا أو قطية مدينة كانت في شبه جزيرة سيناء تتخذها الجيوش نقطة ارتكاز

وتموين .

(٤٢) بقر (بتشديد مع فتح القاف) .

(★★★) طبل خانة ، وتكتب متصلة طبلخاناة هي دار بها من الكورسات التي تدق

على باب السلطان أربعون حملا ، وأربع طبل كبيرة ، وأربعة زمر ، وعشرون تميرا ، ولها رئيس وبها عدة خدم . والمقصود أنه كان ذا شان .

ثم ان السلطان سليما أمر باحضار خاير بك ووزرائه ،
وقال : ما تقولون فى حيلة يكون بها تفريق شمل الجراكسة ؟

قالوا : وما هى ؟

قال : ائتوني بفلان الكاتب .

وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة أقلام ، ويعاكي جميع
الخطوط . فحضر .

فقال له السلطان : أريد منك أن تكتب كتبا تحاكي
فيها خطوطا مختلفة على لسان أمراء مصر ، وابن النورى ،
بأنهم معى فى الباطن ، ويحرضونى على المجيء الى مصر ،
ويكونون معى ، ويساعدونى على طومانباى ، وعلان ،
وكرتباى الوالى .

فكتب الكاتب على لسان الأمراء المذكورين ، وربط
الكتب المذكورة ، وأوصلها لرجل من جماعة خاير بك ،
وأمره بالذهاب الى أوطاق طومانباى ، وأن يرمىها بالقرب
من مجلس السلطان ، ويقف لينظر ما يقع بينهم من
الخلف (٤٣) ، ثم يرجع ليخبر السلطان سليما . ففعل ذلك .

فرأى المكاتب بعض ممالك طومانباى فأخذها ،
وأوصلها الى أستاذه .

فأخذها ، وقراها .

وجمع الأمراء ، وأخبرهم بذلك .

فأنكروا كلهم ذلك ، وحلفوا الأيمان المعظمة أن هذا
لم يصدر منهم . فتحرير طومانباي في أمره .

وافتنن العسكر ، وكادوا أن يقتل بعضهم بعضا .

فقال لهم طومانباي : ربما تكون هذه مكيدة من
الأعداء ، كادونا بها ليفتنونا ، ولكن الله تعالى يقابل كلامنا
بما يستحق ، ولكن كونوا على أهبتكم للقاء عدوكم .

فلما كان يوم الثلاثاء آخر شهر ذى الحجة الحرام جاءت
الأخبار بأن السلطان سليما دخل الخانقاه (★) .

ونادى السلطان طومانباي في عسكره : كل من جاء
برأس رومى له ما يريد من كل شيء .

فصارت فرسان الجراكسة تشن الغارة على عسكر
السلطان سليم ، وكل من استطرفوا (٤٤) به أخذوا رأسه ،
وجاءوا بها الى طومانباي ، فصار يجزل عطاياهم .

سـ

فساء ذلك قنبردى الغزالي .

فلما دخل الليل دخل خيمته ، وكتب كتابا ، وختمه ،
وذكر فيه جميع ما فعله طومانباي ، وأنه أخرج المدافع
الكبار التى أودعوها فى الجبل هناك ، وجعل آلات الحرب

(★) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وأول خانقاه بمصر أنشئت فى زمن
صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة تسع وخمسين وسنمائة برسم الفقراء الصوفية الواردين
من البلاد الشامية ، وقد وقف عليها عدة أملاك يصرف عليها من ريعها . . ثم ضعف
حال الخانقاه واستبدل بها التكايا مجال إقامة الدراويش . وقد كانوا كلهم من الاعاجم .
(٤٤) استطرفوا به أى وجدوه متطرفا أى يعيدا عن مجموعته أو كتيبته .

فى الريدانية ، وقد أشرت عليهم بدفنها فى الرمل ، لئلا ينظرها أحد من الجواسيس فيخبركم بذلك .

فقبلوا منى ذلك بعد جهد عظيم منى ، خشيت على عسكر السلطان من هذا البلاء العظيم ، والصواب أن السلطان يدور ويأتى من جانب الجبل فيصيرون اذا رموا لا يفيد رميهم شيئا .

• وأرسل الكتاب الى خاير بك .

• فأوصله الى السلطان سليم .

• فسر بذلك ، وأجزل عطاء القاصد به .

• ورد الجواب .

ورجع فى جوف الليل الى سيده الغزالى ، ولكل شىء آفة من جنسه .

ففى صبيحة ذلك اليوم ، أمر السلطان سليم بالرحيل الى ملاقة طومانباى .

وأما السلطان طومانباى فانه اتفق مع الأمير علان والأمير كرتباى الوالى ، أن يتفرق بعضهم عن بعض ، ويحمى بعضهم بعضا ، وقد علموا أن الغزالى ملاحى عليهم ، وتحققوا ذلك ، وقصدوا قتله ولكنهم خشوا ان قتلوه أن يفتتن العسكر ، ولكن توكلوا على الله ، وأخلصوا نياتهم .

واتفق أنهم يقصدون سنجق السلطان سليم فلا يرجعون الا أن يقتلوه أو يقتلوا .

فلما أصبح الصباح ما طلعت الشمس الا وعسكر
السلطان سليم منسكب ناحية الجبل كالجراد المنتشر من
وراء ظهر عسكر طومانباي .

فارتجوا لما رأوا ذلك ، وأيقن طومانباي بأن عسكره
ملاح عليه ، وأن اشارتهم عليه بدفن المدافع مكيدة منهم له ،
ولم ير له حيلة يحتال بها .

فلم يسعه الا التسليم لله تعالى فيما حل به ، لم يرم شيئا
من تلك المدافع مطلقا ، الا أن رجلا واحدا ، وكان آخر من
رمى مدفعا ، يسمى مجنونه ، رماه ، وهرب .

فتفتح في عسكر السلطان سليم زقاقا .

فارتج العسكر الرومي ، وظنوا أن خاير بك والغزالي
مكروا بهم .

فأرسل السلطان سليم خلف خاير بك ، وكان قريبا
منه ، فقال :

— ما هذا الذي ذكرته في ردم مدافعهم بالرمل . فما
هذا الحال ؟

ورأى منه الغضب .

فقال خاير بك : مهلا علي .

وأرسل جاسوسا ، يكشف الأمر .

فغاب ، ورجع مسرعا .

وقال : رأيت المدافع كلها مردومة بالرمل ، وانما هذا رجل أخرس لم يردم مدفعه بالرمل ، وأبقاه مكشوقا ، وقال ، انه ضامن لذلك ، فرمى به ، وهرب .

فاطمأن السلطان سليم .

وأما السلطان طومانباى ، فلم ينظر الى شيء ، وانما قصد سنجق السلطان سليم هو والأمير علاء وكرتباى الوالى .

فما زالوا فى مشوارهم وهم يطعنون بالقنطاريات حتى غاصوا فى جميع عسكر الروم بجملتها ، قلله درهم من فرسان ، لكونهم لقوا هذا الجيش العظيم بنفوسهم !

وليس الخبر كالعيان .

فما زالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا سنجق السلطان .

فظن السلطان طومانباى أن الذى تحت السنجق السلطان سليم .

فقال له يا سليم : أنت غير صالح .

وجذبه من على سرجه بيده اليسرى ، ورفع به بأعلى رأسه ، وخبطه على الأرض ، فطبق أضلاعه بين جنبيه .

وضربه الأمير علان من على يساره فأزال رأسه .

وكان معه محمود بن رمضان صاحب أضنة (٥٤) .

(٤٥) وتكتب أيضا أطنه (بالطاء) وأدنه Adana وتقع جنوب الأناضول شمال غرب خليج اسكندرونه - محمد فريد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٢ . تعليق احسان عباس .

وكذلك فعل الأمير كرتباي الوالى بالأمير على بن شهوار .

فلما فعلوا ذلك قوى قلبهم ، واشتفى غليلهم ، وبقيت الروم باهتة بأعينهم كأنهم قطيع غنم بلا راع . فأعقب الفرحة ترحة ، وظهر آن الذى قتله طومانباي انما هو الوزير الذى يسمى سنان باشا .

وسبب ذلك آن السلطان سليما وخاير بك وفرهاد باشا ويونس باشا التفوا من طرف العسكر ومر عليهم طومانباي عند رجوعه وصحبته علان وكرتباي وهم ينظرون اليهم ، فلم يقدر واحد منهم أن يتعرض له ، ولا يقربه ، مع أنهم لو علموا أنهم هم ما برحوا حتى أخذوهم ، ولكن الحى ما له قاتل .

فرجع طومانباي من حملته تلك فلم ير أحدا من عسكره ، فاذا به منكسر والعدو فى اثره ، فكشف عنه هو والأميران المذكوران ، وردوا الروم عنهم .

واذا ببندقية جاءت للأمير علان فى قصبة رجله ، فكسرتها ودخلت فى جنب الحصان ، فقتلته لوقته ، فوقع من ساعته ، الا أن الأمير علان حمل نفسه ، وهم عن الفرس قبل أن تصل الأرض ، وجاءوا له بجنيب (★) فركبه ، وقد أيس من الحياة .

فرد السلطان طومانباي ، ولوى عنان فرسه الى قناطر بنى وائل .

(★) الجنيب هو الفرس الذى يسير دون راكب الى جنب فرس آخر مركوب -
 فاذا نشر المركوب تحول الراكب الى الجنيب .

فلما عاين طومانباى ذلك آيس من الحرب ، ولم يبق معه أحد الا كرتباى الوالى فقصد نحو القلعة وطلبوا من خلفها • فمازالوا حتى نزلوا بركة الحبش ، وتمادوا الى طرا (★) •

وأما الأمير علان فانه مازال سائرا حتى وصل المنيل (★★) وعدى لبر المنوفية ، وذهب الى فلاحه ابن بغداد الأمير حسام الدين ، فلاقاه أحسن ملتقى ، ورحب به ، وأرسل فجاء له بالمجبر ، وبقي عنده نحو اليومين ، فرأى من عينه الغدر ، وانه يريد أن يقبض عليه ، ويرسله الى عدوه •

فلما تحقق ذلك تأسف على نفسه ، وأمر بأن يشد له الحصان لأجل أن يشم الهواء ••

فظنوا أنه لم يقطن بهم ، فركبوه •

فلما ركب جواده طلب سيفه وترسه وقنطاريته •

فلم يقدر أحد أن يتعرض له ولا يقربه ، مع أنه لو علم أنهم كذا ما كان يقرب اليهم •

ولما ركب على حصانه التفت الى الأمير حسام الدين وقال له : ستنظرون أرواحكم بعدنا يا خونة ، الله يخون الخائن • ولوى عنان جواده ، فلم يتبعه أحد ، وكلما لاقته سرية عرب يقول لهم : أنا علان •

(★) طرا هى بلدة طرة الواقعة على خط سكة حديد حلوان جنوبى القاهرة • وقد أصبح لها الآن شأن عظيم حيث يوجد بها مصنع لاستخراج الاسمنت من محاجر جبل المقطم الذى يشرف عليها من الشرق •

(★★) المتيل ، ويعنى به الجزء المعروف الآن بالمتيل والجزء المعروف بالروضة •

فلم يقدر أحد أن يقربه .

فما زال حتى عدى بر الجيزة ، وقصد نحو الصعيد ،
فما زال حتى دخل بلداً فى إقليم البهنسا (★) يقال لها
نويرة .

فنزل عن فرسه ، واستقبل القبلة ، فمات ، رحمة الله
عليه .

فصلى عليه أهل البلد ودفنوه فى زاوية هناك .

وأما السلطان طومانباي ، فانه لما رجع من الحرب لم
يجد أحداً من عسكره الا وقد ولى منهزماً من كثرة البندق
والضرب بالزانات ، فلم يستطع أحد أن يقف أمام ذلك .

فطلع من وراء القلعة ، وقصد ناحية طرا والعدوية ،
وتبعه بعض العسكر يقفون أثره ، سرية بعد سرية الى أن
سار معه سبعة آلاف فارس ، الأعيان منهم ، الأمير قانصوه
كرت ، وقانصوه رجله ، وقانصوه الفاجر ، وأنس باي
صاحب الحجاب ، وبخشباي أمير مجلس ، وشار بك الأعور ،
والأمير قانصوه المادلي كاشف المتوفية ، وأزبك المكحل ،
وثانى بك النجمي ، والباقي مماليكهم وأتباعهم .

وأما الأمير جانبلاط فانه قد تجون(٤٦) فى قلب العدو ،
وما بقى يقدر على الهرب ، فلما آيسن من نفسه صار يقاتل

(★) البهنسا ، بلد عن أعمال مركز مغاغة بمحافظة المنيا على الشاطئ الغربى
من بحر يوسف ، وهى من البلاد القديمة ذات الشهرة العظيمة فى تاريخ الفتوح الاسلامية .
وكانت قاعدة إقليم ، لها أربعة أبواب الى الجهات الأربع .
(٤٦) أى توغل .

الى وراء ! فما زال كذلك حتى وصل الى قبة الهواء ، فبطل جواده ، فنزل عنه ، وصار يقاتل راجلا - يعنى ماشيا •

فلما رآته الروم ترجل طعموا فيه ، وقالوا : هذا رجل ونحن رجال •

فانطبقوا عليه كالجراد ، فصادفته ضربة زان فوقع الى الأرض ، ووقعوا عليه بالسيوف حتى صار لا يعلم له رأس من رجل ، وكذلك الأمير قانصوه رجليه فى الرملية • وما بقى من عسكر الجراكسة ، منهم من قتل بالبندق ، ومنهم من هرب ، ومنهم من تبع السلطان طومانباي ، وباتت مصر ليس فيها جركسى الا ان كان مخفيا •

فعند ذلك دخل خاير بك على السلطان سليم ، وأخبره بما وقع ، وانه أمر بارسال صوباشى (★) ، فملك القلعة وليس فيها أحد غيره ، والرأى لما يراه مولانا السلطان •

فشكره السلطان على ما فعله من تمليكه ملك مصر الذى ماتت بحسرتة الملوك •

فقال السلطان : صف لى مصر كأنى أنظر اليها •

فوصفها له من أولها الى آخرها •

فاختار النزول على شاطئ النيل فى الجزيرة الوسطانية •

(★) صوباشى ، وظيفة عسكرية فى الجيش التركى ، وكان راتب النفر منها ثلاثين دينارا شهريا بينما راتب الانكشارية خمسة عشر دينارا ، والكمولية عشرة •

وانما طلع الى القلعة ساعة ، وجلس على المصطبة التي
تجاه الديوان ، ثم نزل على الفور خيفة على نفسه من الغدر
من أحد من الأعادي ، وبات في الجزيرة .

ثم انه شرع في ارسال العسكر الى طومانباي ، فلم
يجدوا بمصر جركسيا ، وباتت مصر ليس فيها منهم أحد .

وأما طومانباي فانه سار بمماليكه الى طرا والعدوية ،
وتبعته العساكر الجراكسة حتى بقى معه سبعة آلاف خيال ،
فاقتضى رأيهم بالرجوع الى مصر ، وأن يحاربوا عدوهم حتى
يفنوا عن آخرهم .

فرجع طومانباي ونزل في الشيوخونية (★) ، وتفرقت
العساكر في الحارات ، فقتلوا من الروم نحو العشرة آلاف
أو أكثر في ليلة واحدة ثم أصبحوا ، فجاءتهم عساكر الروم
من جهة الكبش ، ومن جهة حدره الحنة (★★) ، فاقتتلوا
مرات عديدة ، وظهرت الجراكسة على الأروام ، وقتلوا منهم
نحو خمسة عشر ألفا في ثلاثة أيام ، وفي كل مرة يرجع
الروم منهزمين .

(★) الشيوخونية تطلق على المنطقة الموجودة بشارع الصليبية حول مسجد شيخون
الى ما تحت القلعة ، وكانت هذه الجهة من جملة قطائع ابن طولون وكانت مساكن
فاشتراما شيخون سيف الدين الناصري رأس فوية الأمراء في سنة ست وخمسين وسبعمئة ،
وقد ذكر ابن ايساق في حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمئة أن السلطان طومانباي كان ينزل
بجامع شيخون أمام محاربته للسلطان سليم ، فلما علم بذلك أرسل عساكره لانتشرت
في الصليبية وأحرقت الجامع فاحترق سقف الأيوان الكبير والقبعة التي كانت به ، وأحضرها
خطيب الجامع الشرفي يحيى بن العداس بين يدي السلطان فهم بضرب عنقه ، ثم تشفع
فيه ، وخلص من القتل .

(★★) حدره الحنة ، كذا في الأصل . وقد جاء ذكره في خطط المقرئ حدره الحناء ،
وهو شارع يبتدىء من آخر شارع الصليبية الى مسجد الجاولي بأول شارع مارسينا بقسم
السيدة زينب حاليا . وهو بوسطه شارع قلعة الكبش .

فعند ذلك اقتضى رأى السلطان سليم أن يركب هو نفسه ويأتى من جانب القرافة (★) ، ويلقى طومانباى فى الرملية ، فاما له واما عليه ، ونوى ان وقعت الكسرة عليه يرجع سائرا الى بلاد الروم .

فلما فعل ذلك وجاء الى الرملية أطبق الجو من ضرب البندق والضرب بالزانات .

فلما سمع الجراكسة ذلك بعدوا ، بعد أن كانوا غالبين مستبشرين بالنصر ، وهرب غالب عسكرهم ، وقالوا : من يقابل هذه النار المهلكة .

وأما طومانباى فانه لم يهرب ، وحطم عليهم حطمة (٤٧) الأسد الغضبان ، وقتل فيهم قتلا حتى كل ساعده ، ولكن ماذا يفعل الواحد فى مائتى ألف وأكثر .

ثم رجع ، فلم ير خلفه أحدا من عسكره ، فمازال طالبا نحو الشيوخونية ، فلم ير أحدا .

وكان قد تواعد مع عسكره أنهم ان حصل لهم هزيمة يكون موعدهم الجيزة .

فتوجه اليها هو وبقيّة ممالكه وبعض المساكر حتى صاروا نحو الألفين .

وأما السلطان سليم فانه رجع منصورا الى الجزيرة الوسطانية وأرسل الى خاير بك ، فقال له :

— ما رأى عندك ؟

(★) القرافة : المقابر الموجودة حول مسجد الامام الشافعى بالقاهرة .

(٤٧) المقصود حط عليهم حطة .

قال له : ما بقى لهم بعد هذه الصدمة رأس تقام أبداً ،
قد هرب غالب العسكر ولم يتبعوا طومانباي ، فالرأى عندك
تنادى لهم بالأمان ، وبعد ثلاثة أيام كل من وجد عنده
جركسى مخبى شفق على باب داره ، وكل من كان عنده واحد
منهم ، وأخبر السلطان به وقبض عليه فعليه الأمان هو
ومن يلوذ به .

فبقيت أولاد مصر كل من كان عنده جركسى يأتى الى
خاير بك ويخبره بما عنده فيرسل له جماعة يقبضون عليه ،
ويأتى به الى أوطاق السلطان سليم ، فيضربون عنقه
ويرمونه فى البحر .

فمن جملة من كان مختبئاً الأمير كرتباي الوالى ، فانه
جاءته بندقية فى فخذه فأضرته ، فما ساعه الا وهرب فاختفى
عند رجل من أصحابه من المباشريين يسمى ، يحيى بن بكر ،
فلما سمع بالنداء قال فى نفسه ، أحسن ما يكون وأفعل أن
أذهب الى أوطاق السلطان سليم ، وأخبره بأن كرتباي الوالى
مخبى عنده ، وأن يرسل له منديل الأمان وأقابله به .
وأكتفى شره ، وتصير لى يد عند السلطان .

فجاء الى أوطاق السلطان سليم واجتمع به مع خاير بك ،
ففرح السلطان بذلك ، وأوعده بأن يعطى له أى منصب
شاء ، وأرسل معه منديل الأمان والمصحف وكتب له كتاباً ،
ان جاءه وقابله لا يفعل فيه شيئاً وعليه الأمان ، ولا يرى
منه الا ما يسره .

فرجع ابن بكر الى كرتباي الوالى وبشره بالفرج ، وانه
اجتمع مع السلطان سليم وأعطاه منديل الأمان ، وها هو ،

وحسن له عبارة في المقابلة ، وأنه يصير آمنا على نفسه
وماله وعياله .

فدخلت رأسه الجراب (٤٨) وأجاب الى المقابلة ، وقام
من ساعته وركب معه الى أوطاق السلطان سليم .

فلما رآه خاير بك فرح به فرحا يورث ترحا وقال له :

يا أمير كرتبای ، أين عقلك ، تتبع هذا المجنون
المخاطر بنفسه ؟ يشير الى طومانباي - فسوف ترى كيف
نأتى به ذليلا حقيرا ، ولكن حيث جئت طائعا مختارا فما بقى
عليك خوف بعد اليوم .

ثم دخل خاير بك على السلطان ، وأخبره بمجىء كرتبای
الوالى .

فخرج السلطان الى ظاهر الخيمة ، وجلس على كرسى
نصب له ، ونظر الى كرتبای الوالى ، وقال له :

- أنت كرتبای ؟

قال : نعم .

قال : أين فروسيك ؟ وأين شجاعتك ؟

قال : باقية على حالها .

قال : أتذكر ما فعلته مع عسكرى .

قال : أعرفه ولا نسيت منه شيئا .

قال : ما فعلت بعلى بن شهوار ؟

(٤٨) تعبير يقابل العبارة العامية (وقع فى الخبة) ، أى انطلت عليه الحيلة .

قال : « قتلته مع جملة من قتلتهم من عسكرك » بعد أن عرف من عين السلطان الغدر وأنه يقتله ، ولا بقى له منه خلاص ، فترك الأدب وتكلم كلام من أيس من الحياة وجعل عينه في عين السلطان ، ورفع يده اليمنى في وجه السلطان ، وقال له :

— اسمع كلامى ، وأصغ اليه حتى تعلم أنت وغيرك أن منا فرسان المنايا والموت الأحمر ، ولو يلى واحد منا بعسكرك بنفسه وحده ، وإذا لم تصدق فجرب ، فأمر عسكرك أن يتركوا ضرب البندق فقط ، وهأت معك مائتا ألف من جميع الأجناس ، وقف مكانك ، وصف عسكرك ، ويخرج لك منا ثلاثة أنفار ، أنا عبد الله ، والفارس الكرار السلطان طومانباى ، والأمير علان ، وانظر بعينك كيف تفعل هذه الثلاثة ، تبقى تعرف روحك ، ان كنت ملكا ، أو يصلح لك أن تكون ملكا ، فان الملك لا يصلح الا لمن يكون من الأبطال المجنورة كما كان عليه السلف الصالح ، رضى الله عنهم ، فانظر فى التواريخ ، ما كان من الامام عمر بن الخطاب — رضى الله تعالى عنه وخذل باغضيه — من الشجاعة ، وكذلك الامام على بن أبى طالب — رضى الله عنه وكرم الله وجهه — وأما أنت فقد لفقت لك عساكر من أطراف الدنيا من نصارى ومن أروام ، ومن غيرهما ، وجئت بهذه الحيلة التى تحيلت بها الافرنج ، لما أن عجزوا عن ملاقات العساكر الاسلامية .

وهذه هى البندق التى لو رمت بها امرأة لمنعت بها كذا وكذا انسانا ، ونحن لو اخترنا الرمى بها ما سبقتنا اليه ، ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد ، ويا ويلك كيف

ترمى بالنار من يشهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة .
وقد جاء بهذه البندقية رجل مغربي للسلطان الملك
الأشرف قانصوه الغوري - رحمه الله تعالى وقتل قاتله -
وأخبره أن هذه البندقية ظهرت من بلاد البندق ، وقد
استعملها جميع عساكر الروم والعرب ، وهي هذه .

فأمره أن يعلمها لبعض مماليكه .

ففعل .

وجيء بهم ، فرموا بحضرته ، فساء ذلك .

وقال للمغربي : نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة
النصارى ، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى : « ان ينصركم
الله فلا غالب لكم » (٤٩) .

فرجع ذلك المغربي وهو يقول : من عاش ينظر هذا
الملك وهو يؤخذ بهذه البندقية .

وقد كان كذلك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

فقال له السلطان سليم : حيث كانت فيكم الشجاعة
والشجعان والفرسان وأنتم على الكتاب والسنة كما زعمت
فبأى سبب غلبناكم ، ومن أرضكم أخرجناكم ، واستعبدنا
أولادكم ، وأفنيينا جموعكم ؟ .. وهانت حضرت أسيرا
بين يدينا ؟

(٤٩) لم يستخدم الممالك البندقية لصعوبة استخدامها من فوق ظهر حصان ، وكانت
الفرسية هي محور المهارة المملوكية ، فالمسألة إذن في طبيعة الاجتماع المملوكي ولا علاقة
لها بسنة الرسول ﷺ . انظر الدراسة الثانية .

فقال الأمير كرتباى : والله ما أخذتم أرضنا بقوتكم ولا بفروسياتكم ، وانما ذلك أمر قضاء الله تعالى وقدره فى الأزل ، وقد جعل الله لكل شىء بداية ، ولكل بداية نهاية ، ولكل دولة مدة معلومة وقسمة مقسومة ، وقد جرت عادة الله سبحانه فى خلقه بذلك ، أين الأئمة المجتهدون ، أين الملوك والسلطين ؟ وانت أيضا لابد أن تموت ، ويحترم هذا النظام . وما أظنك الا من الذين قال الله تعالى فى حقهم : « ... سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم ، ان كيدى متين » (٥٠) .

كيف بك اذا وقفت بين يدى الله رب العالمين ؟

فانفهم منه السلطان ، ولكنه أظهر الحلم وفؤاده يتوقد من شدة الغيظ لما أغلظ عليه كرتباى ، وأقام عليه الحجج المسكتة التى ليس لها جواب .

ثم قال له : وأما قولك انك أخذتنى أسيرا فانه كلام باطل ، وانما جاءنى رسولك بكتابك مختوما بختمك ، وما هو ، فظننت أنك تقف على قولك ، فما رأيت من ذلك شيئا ، وما ورد من هذا المعنى : « المؤمنون عند أقوالهم » وأيضا « المؤمن ان قال صدق ، وان قيل صدق » وقال مولانا عز من قائل : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » (٥١) .

فازداد السلطان سليم غيظا ، ولكنه أظهر الحلم .

وأما خاير بك فقد طأطأ رأسه ، وصار العرق يقطر
من وجهه •

وبقية الوزراء واقفين حولهم ينظرون ويسمعون الكلام
ولا يقدرّون على شيء •

ومما ورد في الحديث الشريف أن أربع خصال من
كن فيه فهو منافق : من إذا أوّتمن غدر ، وإن عومل نكر ،
وإذا خوصم فجر ، وإذا قوطع هجر (٥٢) وأنت تزعم أنك
تريد أن تكون خادماً للحرمين الشريفين ، وأنت من أهل العدل
والانصاف ، فما رأينا شيئاً من ذلك ، وانما رأيتك من أهل
الجور والاعتساف ، يا ويحك ، كيف تنادى للناس بالأمان ،
وإذا جاءوك تخوفهم ، ولكن كفك أن اسمك سليم خان ،
والله قد رأينا في التواريخ ، أن الملوك التي كانت قبلنا من
الأتراك والاكراذ - رحمهم الله تعالى - كان النصارى إذا
قالوا لهم قولاً وحلفوا لهم عليه ، أو قالوا للنصارى قولاً
وعاهدوهم عليه لا يخلفوهم فيه وهم نصارى ، فكيف بمن
يدعى أنه من الملوك العادلة ، ويريد أن يكون خادماً للحرمين
الشريفين ، وهو لا يصدق في قوله ، والكذب شيمة المنافقين ،
فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، فلا يغرنك ما أنت
فيه ، وما أصبحت دولتك فيه من الاقبال ، فإنه لا بد لكل
اقبال من ادبار ، ولكل جمع من تفريق ، ولكل فرح من ترح ،
انصرام ، ولكل توفيق من اختلاف ، ولكل فرح من ترح ،
وقد كنا أقوى منكم وأشد بأساً ، وأعظم مراساً •

وانظر كيف فعلت بنا هذه الدنيا الغدارة المكاراة ،
وبعد ما حصل لنا ذلك أنا بينكم واحد بمقردى ، أوامر

عسكرك أن يضربوا على يذك (٥٣) ، ويسيروا الى مائة بمائة ، أو مائتين بمائتين ، أو ألف بألف ، وانظر ما أصنع فيهم .

كل ذلك والسلطان سليم ساكت يسمع قول كرتباي ، وجراسته في هذا الكلام ، واستحضاره هذه الأجوبة مع أنه متحقق الهلاك ولا محالة .

ثم قال : بأى سبب تدمنا فى قولك وتزدرينا وتسبنا ، والله لا يهمننا كثرة جموعكم ولا رميكم بيندكم وأحجاركم ، وانما كان السبب لزوالنا خلف حصل بينا .

فنظر السلطان الى خاير بك ، وأشار اليه بأن يقرب منه حتى يشاوره فى أمر كرتباي الوالى .

فلما وقف قدام الكرسي قال له : ما تقول فى هذا الرجل وجوابه وقوة قلبه ، ان قتل مثل هذا لا يليق ، وأفتخر بمثل هذا فى عسكرى ، وأجعله سنجقا (★) .

فاصفر لون خاير بك وقال : يا مولاي ، ان أبقيت عليه وجعلته وزيراً لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ، ويفسد جميع عسكرك .

وما قال ذلك خاير بك الا بغضا فيه وفى آبناء جنسه .

(٥٣) اليزك - بفتح الزاى هو رئيس العسس ، ولكن المعنى لا يستقيم بذلك .
(★) السنجق أو الصنّجق والسنجاق مفرد الصناجق ، كلمة تركية معناها العلم أو اللواء ، أو تطلق على القسم من الولاية الكبيرة . ولا يزال مرادفها فى العربية - وهو اللواء - يطلق على المعنى نفسه فى بعض البلاد العربية . والصنّجق أيضاً هو الحاكم على هذا الجزء من الولاية ، وقد تكون الصنّجقية مجرد رتبة دون أن يكون حاملها حاكماً للصنّجقية ، وكان على الصناجق « مال مبرى » يؤدونه للحكومة نظير وظائفهم .

فقال له السلطان : فما رأى ؟

قال : اضرب عنقه بلا تأخير .

وتأخر خاير بك ، ووقف مكانه ولونه مصفر متغير .

فعرف الأمير كرتباى أنه حسن له قتله .

فقال الأمير كرتباى للسلطان : ان هذا قائدك الى جهنم ، اصنع ما شئت ، من لم يمت بالسيف مات بغيره .

فعند ذلك نظر السلطان اليه نظرة الغضب ، وقال له :

— انى أردت أن أعتقك وأفرج عنك ، وأجعلك أميرا من أمرائى ، قرأيتك قليل الأدب ، جرىء اللسان ، والذي يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة .

فقال له كرتباى الوالى : معاذ الله أن أكون من أمرائك ومن أتباعك ، وأنت بهذه الصفة .

فنادى السلطان بأعلى صوته وقد احمر وجهه من شدة الغيظ ، وقال : أين الجلاد ؟

فتقدم نحوه مائة وخمسون جلادا .

قال : اضربوا عنق هذا الملعون الجرکسى .

فقال كرتباى : قطع رأسى وحدى لا يفيدك منه شيء ، فان ورائى أبطالا وشجعانا ، وكفى بالسلطان طومانباى — نصره الله .

فلما سمع السلطان بذلك أمر بالسياف أن يضرب عنقه •

فقال له والسياف فوق رأسه : اذا قطعت رأسي خذها وهي بدمها بيدك واجعلها في ... امرأتك (★) يا خائن ، يخونك الله •

فضربه السياف ، فطير رأسه قدامه ، وذهب الى حاله •

وأما السلطان طومانباي ، فانه لما وقعت الكسرة على الجراكسة كان وعدهم قبل ذلك وقالوا : ان جاءت الكسرة علينا يكون ميعادنا بر الجيزة • فلما كان كذلك عدى الى بر الجيزة وتبعه بعض الجراكسة حتى صار معه ألفا خيال ، فيهم كل فارس يقوم بألف فارس ، الا أن الكثرة غلبت الشجاعة ، والنار لا يقابلها أحد ، ولولا النار التي مع السلطان سليم ما غلبهم في الحرب ولا مرة ، ولكن اذا أراد الله بأمر بلغه ، والله في هذه ارادة •

فذهب السلطان طومانباي الى نحو الصعيد ، وقصد هواره (٥٤) ، وطلب منهم النصره ، وأن يرفع عنهم الخراج ثلاث سنوات • فأبوا •

وقالوا : قد بلغنا أن الروم تقاتل بالنار ، ومن يطيق النار ؟

(★) مكانه في الأصل اللفظ العامي لبعض التناسل عند المرأة ، والحديث بهذا العضو ، وغير ذلك من الأعضاء من أهم خصائص الاجتماع المملوكي - طبيعة الحديث في مجتمع العزاب العبيد •

فانشئ راجعا وتبعه من العربان نحو سبعة آلاف فارس
محبة فيه ، فانه كان ، رحمة الله عليه ، محبوب الصورة لكل
أحد ، ولكن اذا تم الأمر ترقب زواله اذا قيل تم .

فلم يزل قادما حتى وصل الى قرب أطفيح (★) فرأى
قلوعا بكثرة وهى مقلعة .

فلما عاينها وقف ، وقال : ما أظن الا أن السلطان
سليما جاءنا أو أرسل لنا جيشا .

قال : فلما عاينوا بعضهم بعضا دخلت المراكب البر ،
وطلع منهم من الرماة نحو خمسة آلاف رام بالبندق
والضربانات ، ومن المدافع خمسون .

وكان القيم على ذلك رجلا يسمى جانم السيفى كاشف
الفيوم ، فانه جاء مع السلطان طومانباى بعد كسرة
الريداتية ، واجتمعوا عند طرا والعدوية ، واتفق رأيهم
بأن يكبسوا على السلطان سليم بالجزيرة الوسطانية التى بين
بولاق وقصر ابن العينى .

فلما علم ذلك جانم قال فى نفسه : أحق أن أفعل ، أن
أذهب الى السلطان سليم خان وأخبره بذلك ، وأخذ لى منه
الأمان ، وأكون من حزبه فان دولتنا قد ولت .

فخرج ليلا من عسكر السلطان طومانباى هو وأمير آخر
يسمى أبو حمزة ، ومعهم مماليكهم نحو المائتين .

(★) أطفيح بلد من أعمال مركز الصف محافظة الجيزة . وكانت من البلاد المهمة
ذات التاريخ .

فلما أصبحوا علموا أن جانما السيفى قد خرج ليلا ،
فاستقصوا خبره .

فقال بعض الأجناد للسلطان طومانباي : قد سمعناه
وهو يقول ، ان الذى يريد السلامة لنفسه يتبع السلطان
سليما ، فان اسمه سليم ، ومن تبعه سلم ، ومن عصاه ندم .

فتكدر السلطان طومانباي ، وقال : سيندم حيث
لا ينقعه الندم ، وهل يرتجى من العدو خير ؟ ولكن لا دافع
لله فيما قضى . فلما اجتمع جانم السيفى والسلطان سليم
وأخبره أنه جاء راغبا فى طاعته وأن طومانباي قد عول على
كبسه فى الليلة القابلة أخذوا أهبتهم ، واستيقظوا لأنفسهم .

فجاءت الأخبار لطومانباي بأن جانما السيفى دخل فى
طاعة السلطان سليم ، وأخبره أنك تريد أن تكبس عليه ،
فاخذوا أهبتهم ، وعبوا النار من كل جهة ، فان فعلت شيئا
من ذلك أهلكت نفسك وأهلكت من معك .

فأعرض عن ذلك ، واقتضى رأيه أن ينزل فى الشيخونية ،
ويعاربهم ، كما تقدم .

ثم انكسر وذهب الى الجزيرة .

فلما علم السلطان طومانباي أن هذه المراكب ما جاء بها
الا جانم السيفى (غضب) .

فانه لما اجتمع بالسلطان سليم وعرف صدقه وأمانته
كان السلطان كلما يجلس فى ديوانه يرسل خلف خاير بك

وجانم هذا ، ويأمرهم بالجلوس بحضرته ، ويستشيرهم بما فيه الصواب ، ويظهر لهم أنه ان تمكن على ملك مصر يعطى خاير بك باشويته ، الى أن يموت ، اقطاعا ، ويعطى لجانم الفيوم اقطاعا .

ثم قال لهم : قصدى أرسل طومانباى جيشا لعل أن أظفر به .

فقالوا له : حبا وكرامة ، قل ما شئت فانا لأمرك طائعون ، ولرايك سامعون .

فقال : من يكون باشا على العسكر ؟

فقال جانم السيفى : أنا أكفيك ذلك ان شاء الله ، وأرجوا ألا أرجع برأس طومانباى ، أو أقبض عليه قبضا باليد ، وآتى لكم به أسيرا .

فشكره السلطان على ذلك .

فأرسل معه خمسة عشر ألف راكب ، وخمسة آلاف رامى بندق ، وخمسين ضربانات ، وخلع عليه خلعة ، وخرج خرجة أطبقت الجو حين أقلع ، ورمت الرماة طلقا أظلم الدنيا .

وأيقنت الناس أن طومانباى لا طاقة له بهذا الجيش ، وخصوصا جانم السيفى مقدم عليهم .

وكان جانم هذا من الأبطال المشهورة والشجعان المجنونة .

فلما عاين عسكر طومانباي أمر بدخول المراكب الى
البر ، وسيبوا طلقا تزلزلت الأرض منه ، وأرسل الى
طومانباي يقول له : فى غد الحرب بيننا وبينك .

فقال طومانباي : حبا وكرامة .

ذكر

التقاء طومانباي مع جانم السيفى

قال : فلما أصبح النهار تصافوا للحرب .

فأما العرب التى كانت تجمعت مع طومانباي فانهم لما
رأوا هذه النيران قال بعضهم لبعض :

— ومن يطيق هذا الأمر المهلك ؟ لا يقاتل هؤلاء
الا مجنون أو فارغ من الحياة ، ولكن نحن نرتفع عن هؤلاء
الى بعد . فكل من رأينا الكسرة عليه نهبناه .

هذا ما كان من أمر العرب .

وأما السلطان طومانباي فانه ثبت للحرب ، ولم يتأخر
من مكانه .

فكان أول من خرج فى حومة الميدان جانم السيفى ،
ونادى بأعلى صوته : لا يبرز لى الا الأمير طومانباي .

ولعب آندابا فى الميدان حتى أدهش الناظرين .

وقوى قلب الروم حين رأوا منه ذلك .

وقالوا : ما يفاوم طومانباى فى الفروسية الا هذ
البهلوان ، وصاروا يشكرونه . .

فلما سمع منهم ذلك زاد فى لعب الأنداب حتى تعجب
الحاضرون من الروم .

ثم بعد ذلك وقف فى حومة الميدان ، وقال للجراكسة :
— أين فرسانكم ، أين شجعانكم ؟

فخرج من بينهم فارس كأنه الباشق (★) اذا انقض على
الصيد وقال له :

— غرتك نفسك يا جانم ، وختت أبناء جنسك ، فسود
الله وجهك يا خائن .

فقال له : بطل الكلام ، وابرز للضرب بالحسام .

فقال : اصبر حتى أريك لعب الأنداب .

وكان ذلك الفارس هو الأمير دولتباى كاشف الجيزة .

فلعب فى الميدان أندابا فاق عليه .

فتعجب الروم .

ثم التحم الاثنان فوقع بينهما من الحرب ما حير النظار
من أول النهار الى الظهر .

فلما آيس جانم من خصمه رمى الرمح وسحب السيف ،
 وضرب دولتباي على خوذته (★) فقطعها ، وجرحه جرحا
 غير بالغ . فلما ساح دمه عيطت الروم بأجمعها ، أفرم ،
 أفرم .

فقوى قلب جانم ، وضرب خصمه ضربة أزال رمحه .

فبقى الرمح فى يد دولتباي من غير حربة .

فألقت الركين (★★) وحذفه على جانم فدخل الركين
 فى جنبه شبك بين أضلاعه ، فوقع عن جواده ، فنزل دولتباي
 ليقطع رأسه ، فاندلعت عليه الروم بجملتها ، فلم يتمكن من
 عدوه ، فما ساعه الى أن تركه ، وانثنى على جواده .

والتطم الجيشان ، فله در ألفين تقاتل فى عشرين
 ألفا ، وتكسرهم حتى أوقفوهم فى مراكبهم ! .

وكان النهار قد ولى ، فنزل عسكر الروم الى المراكب ،
 وعدوا الى ذلك البر الغربى .

وأما السلطان طومانباي فانه بات فى البر الغربى .

فلما جن الليل جلس طومانباي ، ودعا الأمير شار بك
 الأعور وبقية الأمراء ، وضربوا المشورة ، فاقتضى الرأى
 أن يقتسموا الى فرقتين ، فرقة مع الأمير شار بك ، وفرقة مع

(★) الخوذة : غطاء معدنى للرأس ويلبس فى القتال .

(★★) الركين : الجزء الأسفل من السيف .

السلطان طومانباى ، وأن يذهب الأمير شار بك الى بعد ،
ويقف السلطان طومانباى فى موضع المعركة ، فان عدى
الأروام وجاءوا لنا أخذناهم بواسطة •

فاتفقوا على ذلك •

وأما العسكر الرومى ، لما أصبحوا قالوا لجاتم :

— ما رأى عندك ؟

قال : نذهب للحرب ، اما بنا واما بهم ، ولا نرجع
عنهم ، ولعلنا نظفر بهم •

فلما رأوا جانبا مصمما على الحرب قالوا له :

— أنت مجروح ، وليس لك قدرة على الحرب •

فقال لهم : أنا واحد وأنتم ألوف لا تحتاجون الى
واحد •

وكان المخاطب له أغاة اليكنجيرية •

فلما سمعوا منه ذلك قالوا : صدق فى قوله •

فعدوا الى البر الغربى وطلعوا الى موضع المعركة •

فرآهم الجراكسة ، فبادروهم بالقتال والحرب ،
والتطموا معهم •

فبينما هم فى قوة الحرب ، اذا هم بالأمر شار بك
الأعور قد دهمهم من خلفهم بعد أن أخذ المراكب التى على
الساحل بجملتها ، فما انفلت منه غير مركبين .

وأرسل الجميع مع عشرين جنديا الى أوطاق السلطان
طومانباي ، وانطبقت على الروم الفرقتان من الجراكسة ،
وهم كل فرقة منهم نحو الثمانية آلاف والروم نحو العشرين
الفا غير العربان ، فما مضى غير ساعة حتى انكسرت الروم
وقصدت المراكب ، فلم تجدها ، فانقطعت قلوبهم ، وتبعتهم
الجراكسة ، فأفنوهم ، وما نجا منهم سوى جانم وأبى حمزة
وأغاة اليكنجرية المسمى باياس أغا ، فانهم لما انهزموا قصدوا
المراكب فلم يجدوها فأطلقوا عنان خيلهم على شاطئ النيل ،
فتبعهم قانصوه ، لكن كان بينه وبينهم مسافة رأى العين ، فلم
يدركهم ، فنجوا بأنفسهم فقط ، وجميع ما كان معهم من
الضربانات والبندقيات وآلات الحرب وغيرها كله بجملته
غنمته الجراكسة .

وأما جانم ورفقته ، فانهم مازالوا رامحين على شاطئ
النيل حتى لحقوا بالمركبين اللذين انفلتا من الأمير شار بك ،
فما صدقوا أن ينزلوا فيهما ، وارتخوا فى التيار .

فلما رآهم قانصوه العادلى قد طلعا فى المركبين آيس
منهم ، ورجع متأسفا لكونه لم يبلغهم .

وكان السلطان طومانباي افتقد من قتل من عسكره
فوجدهم ألفين وثلاثمائة غير العربان ، وكلهم من البندق .

فلما رجع جانم وأبو حمزة والأغا منهزمين وقتل غالب
عسكرهم ، وعلم السلطان سليم بذلك كاد أن ينفلق قلبه

من شدة ما حصل له من القهر والغم ، وأرسل خلف خاير بك ، وقال له :

— قد غررت بنا وأدخلتنا في بلاد هؤلاء ، ولا أحد يسهل عليه ترك بلاده ، ولو أن طومانباي أعطاني الخطبة والسكة باسمي لرجعت منهم الى الشام ، وما كنت دسب هذه الأرض يرجلى ، ولا كنت مائلا على دماء رقابهم ولا على مالهم وأولادهم ، من حين دخلنا أنا كنت أحسب أنهم زمرة قليلة ، وشرذمة ذليلة ، وانه جمع على رأسه جماعة من بقية سيوفنا وحصل منه ضرر على عسكرنا ، نحن من الدوحة المباركة العثمانية ، لا نرحم كبيرا لكبره ، ولا صغيرا لصغره ، سيوفنا لامعة على رءوس أعدائنا ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، وأنا الذى هدمت الدولتين في ركبتين ، والسلطين تفتخر بعبوديتنا ، والرمال تعد ولا تعد كثرة عساكرنا ، من تقرب الينا شبرا تقربنا اليه ذراعا ، ومن تقرب الينا ذراعا تقربنا اليه باعا ، وان الحرب دأبنا ، والجهاد صنعتنا ، نحن من الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ويوم الحرب تمطر من سماء غضبنا حجارة ورصاصا من السماء على أعدائنا ، والذين هم كأصحاب الفيل نرميهم بحجارة من سجيل ، فيصيح كل مدفع من مدافعنا صيحة الرعد وفيه البرق والسحاب الثقيل ، وان هذا المتغلب الجاهل وفرعون الباطل ما هو أكبر من سلطان العجم ولا من الغورى ، فانهم لم يقدرُوا أن يقفُوا أمامى يومين كاملين ، فكيف يلم العرب والجراكسة ويعارك مع عسكرى ، ويعمل عليهم حيل اليهود ، وعندى عسكر لا يقف عليه سلاطين العالم ، واذا عازى لي مثله الى عسكر بفرد حكمى يجيبونه عسكر من دار سلطنتى أولهم يكون فى مصر وآخرهم

يكون في القسطنطينية ، وما مراد هذا الكافر الفاجر هو
 وغيره ، والغورى ، وقايتباي كانوا ممالك لنا ، أى شيء
 كان لهم نسبه بالسلطنة ، لا تليق السلطنة الا لنا ، لأن
 أجدادنا سلطان ابن سلطان الى سيدنا نوح عليه
 السلام ، وشغلنا الجهاد والقتال للكفار والروافض (٥٥)
 وأهل الطغيان والعدوان .

فقال له خاير بك : يا مولانا ، السلطان طومانباي
 رجل عاقل ، وأنا أعرف أنه ليس له رغبة أن يكون ملكا
 ولا له على السلطنة استحقاق ، وانما عبدكم الغورى أوصى
 جميع أمرائه أنه اذا أصابه شيء لا يسلطون عليهم الا
 طومانباي لما يعلم من عقله ودينه وفروسيته وشجاعته ،
 فانه فريد عصره وبعده شار بك الأعور ، والأمير علان الذى
 قد مات ، وجاءنى خبره ، أنه جاءته ضربزانه فى فخذه
 كسرتة ، وكرتباي الوالى الذى قطعت رأسه .

فقال له السلطان سليم : أنت أغررتنى وطمعتنى فى
 أخذ هذا الاقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك ، كيف
 تعرف ، والا فهيا برأسك .

واغتاظ السلطان سليم من خاير بك غيظا عظيما .

فخرج من عنده ، وهو أعمى أصم ، لا يعلم كيف يصنع .

فلقيه يونس باشا الوزير الأعظم ، فقال له :

— ما خبرك ؟

فأخبره بما قال له السلطان سليم .

فقال الوزير : والله صدق السلطان فى قوله ، والله لو
سمع قولى لأشرت عليه بأن ينادى فى عسكره بالرحيل ،
ونرجع الى بلادنا وأوطاننا ، وما نعرف كيف صارت أحوال
بلادنا من هجوم الكفرة والرفضة ، فانك لأجل غرضك
وكراهيتك لأبناء جنسك ، جونتنا بين هؤلاء الملاحين ،
وأبعدتنا عن بلادنا .

فخاف خاير بك على نفسه ، وحسب حساب يونس باشا
أن يكرهه ، وربما يتكلم مع السلطان سليم فى حق خاير بك
ويقتله . فانتشى خاير بك راجعا الى خيمة السلطان ،
واستأذن فأذن له فى الدخول .

فقال له السلطان : ما الذى دبرت من الرأى ؟

قال : فليعلم مولانا السلطان أنى ما جئتك الا راغباً
فى طاعتك ، ومحبة لك ، وأثرتك على جميع أبناء جنسى ،
وقد اطلعت على بعض الملاح فرأيت الرموز تدل على أنك
ستملك هذا الاقليم . وتصير سلطان الحرمين ، ولكن
يا مولانا السلطان ، أريد منك فرد شئ . وهو أنك لا تقبل
فى حقى كلام أحد الا بما يقتضيه رأيك السديد ، فان
اقتضى رأيك أن تقتلنى فافعل ، فقد حللتك دمي .

فتبسم فى وجهه السلطان ، وقال له :

— لولا تحققى محبتك ما أطلعتك وجئت معك الى هنا ،
ولكن كن بنا فى تدبير ما فيه الصلاح .

فقال : والله يا مولانا السلطان لا أبقي ممكنا في
نصرتك ولو بروحي الا فعلته .

فشكره السلطان على ذلك ، وأمر له بخلعة عظيمة .

فلما رجع من عند السلطان وهو لا بس الخلعة ورآه
يونس باشا وهو قادم عليه علم أن خاير بك دخل على عقل
السلطان ، ومشى معه على مراده .

فقام له ويجله ظاهرا ، مع الكراهة له باطنا .

فقال له : ما الذي اقتضى رأى الأمير ؟

قال : ما يكون الا خيرا ، وأرجو من الله تعالى أن يمكننا
من طومانبای ونأتى به أسيرا بين يدي السلطان .

فقال له يونس باشا : ان شاء الله تعالى يسعد دولة
سلطاننا .

فلما رجع جانم وأبو حمزة وإياس آغا الى أوطاق
السلطان سليم تكدر السلطان وتدم على ارسال جانم .

ثم انه عمل ديوانا .

فلما حضرته الوزراء والأمراء قال : أين خاير بك ؟

فجاء ووقف بين يدي السلطان ، فقال له :

— ما تقول ؟

قال : الأمر أمرك ، ونحن بين يديك مهما أمرتنا به
فعلناه ، ولو كان فيه هلاك أرواحنا .

قال السلطان : ان قلبى حس من الأول أن جانما ليس هو كفؤا لطومانباى ، ولكن أنا أريد أن أرسل له كتابا بالأمان مع قاصد عاقل يرد الجواب ، فلعل الله أن يهديه ونبقيه على بلاده ، وأخبره أنى رضيت منه بالاسم فقط ، بأن أصير سلطان الحرمين وتصير لى مزية على ملوك الأرض ويجعل الخطبة والسكة باسمى ، وأعطى له مصر الى أن يموت .

فقال خاير بك : يفعل مولانا السلطان ما يقتضيه رأيه فى ارسال الأولاقى ، ولكن أنا أعرف أنه معاند وجاهل لا يوافق على شيء من ذلك ، وربما يقتل القاصد .

فقال السلطان : اذا لم يوافق والا-أنا ألقاه بنفسى والله يؤيد بنصره من يشاء .

فعند ذلك أرسل قاصداً يسمى مصطفى ، وكان عارفا عاقلا ، طلق اللسان أدبياً ، وأرسل معه أيضاً خمس مائة نفس ، لأن الطريق كانت مخيفة من العربان .

فلما وصل الى أوطاق السلطان طومانباى وكان بالقرب من ناحية منية ابن خصيم (★) ترجل عن فرسه ، ونزل هو وجميع من معه فاستأذن فى الاجتماع على السلطان ، فاذن له ، فأوصل المكاتيب للسلطان طومانباى فقرأها وأعطاها للأمير شار بك .

(★) كذا فى الأصل ، والصواب منية ابن خصيم وهى قرية مشهورة شمال مدينة أسيوط وهى منسوبة الى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هرون الرشيد . راجع كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك .

فانه قد أرسل لكل أمير كتابا بخصوصه ، يخبرهم بأنه لا حاجة له ببلادهم ، وأنه ما يريد الا الاسم فقط ، وان كل من قابله خلع عليه ، وأعطاه مرسوما بالآمان ، وأنتم على ما أنتم عليه وأنتم فى آمان الله تعالى . والله يخون الخائن . وأوثق كلامه بأيمان وأقسام .

فقال السلطان طومانباي : ما تقولون يا أغوات ؟

فقال الأمير شار بك : أما رأيى فقتل هؤلاء الطائفة التى ساقتها الأقدار الالهية الينا ، لنكتفى من شرهم ، وأما أنت ان مالت نفسك الى طاعة عدوك فاعلم أن ما بينك وبين الهلاك الا أن تصل اليه ، وتقف بين يديه ، فتصير الأمانة خيانة ، والعزة اهانة ، وتكون كالذى ألقى بنفسه الى التهلكة وطلب منها السلامة ، وندم حيث لا تفيد الندامة ، وأما أنا فلا أدخل تحت آمان العدو فى عمرى ولا مرة واحدة .

وذلك لأنى أعرف أن ما آخر كل حياة الا الممات . وقد جعل الله تعالى لكل شئ ميقاتا ، فان دخلت تحت طاعته لا يزيد فى عمرى ، لعلمى أنه الموت لا مفر منه ، وأن كل حى لابد له من الموت .

فاقتضى رأيهم ان يقبضوا على القاصد الذى جاءهم ومن معه ، وأن يضربوا رقاب الأولاقيه .

فهرب الذين جاءوا معه الى السلطان سليم .

ثم أمر السلطان طومانباي بالمسير الى جهته ، فلم يزالوا سائرين حتى أشرفوا على بركة الحبش ، فرأوا بها أوطاق

السلطان سليم ، وهم من ذلك البر على بعد ، فوقفوا ينظرون ويتأملون ويضربون الرأى كيف يصنعون ، وعلموا أن السلطان سليما انما خرج الى بركة الحبش مريدا للحرب ويريد أن يعدى الى بر الجيزة .

فبينما هم واقفون ، اذا بكردوس من الخيل قادم اليهم ، واذا به الأمير رزمك الناشف ، فقدم على السلطان طومانباى وقبل يديه ، واعتذر له بأنه كان معذورا بسبب جراحة أصابته يوم الريدانية ، وأخبره قانبرى الغزالي كان رأس الملاحين عليهم حين أخرجوا المدافع ، وأمرهم بزدمهم تحت الرمل ، وكان هذا غاية المعاكسة لهم .

فقال السلطان طومانباى ، والله انى عرفت أنه ملاحى علينا من أول مرة لما أرسلته بالجيش ، فقتل أكثره ، وانهزم ، فعلمت أنه بالقصد منه .

وأما السلطان سليم ، فانه لما جاءه جانم وأبو حمزة منهزمين وأخبراه بما جرى لهم ، وأن السلطان طومانباى قادم بجموعه التى جمعها فارتاب السلطان سليم ، فعند ذلك أمر يونس باشا بأن يرسل ويأتى بالأمرء المسوكين عندهم ، فانهم كانوا قد نادوا لهم بالأمان .

وكان ذلك مكيدة من خاير بك .

فبقوا كل من يأتهم بالأمان يحبسونه ويوعدهم خاير بك بأنه اذا تم الأمر للسلطان سليم يطلقهم ويبقيهم على مراتبهم ومناصبهم التى كانوا عليها ، وباطنه بخلاف ذلك .

فلما جاءت الأخبار للسلطان سليم بأن السلطان طومانباى قتل القاصد الذى أرسله السلطان سليم وجميع من معه اغتاض لذلك غيظا كبيرا وأرسل أحضر الأمراء المحبوسين بقلعة الجبل من الجراكسة ، وأمر بضرب أعناقهم أجمعين ، وكانوا نحو الستين أميرا ، منهم ما هو أمير مائة مقدم ألف ، ومنهم من هو أمير أربعين ، ومنهم من هو أمير عشرة .

فلما حضروا بين يديه سألهم عن صاحبهم ، فأخبروه .

فقال لهم السلطان سليم : لم تركتم ملككم وجئتم الى عدوكم ؟

قالوا : آثرنا خدمتك على طاعته ، واخترنا أن نكون من أجنادك .

فقال : لو كان فيكم خير كان لطومانباى .

فعند ذلك أمر بضرب أعناقهم بين يديه ، وهو ينظر اليهم .

فأول من ضرب عنقه تقطبباى نائب القلعة ، ثم أنس باى حاجب الحجاب ثم تنمر الزردكاش ، ثم أركماس أمير سلاح ، ثم الأمير أزبك المكحل صاحب البيت الذى كان فيه المرحوم الأمير عثمان قائم مقام ، ثم الأمير قانصوه الفاجر ، ثم الأمير مغلبباى الزردكاش ، ثم الأمير قاينك رأس نوبة ، ثم الأمير ماماي المحتسب وهو صاحب بيت قاضى المسكر ، ثم الأمير يشبك ملوخية ، ثم جانبلاط الأبيج ، وكان قد عمله السلطان طومانباى نائب القلعة ، ثم الأمير خاير بك

الخازندار ، ثم خاير بك المعمار ، ثم بقية الأمراء الذين كانوا جاءوا له بالأمان حتى صار الموضع كالمجزرة .

ثم أمر السلطان سليم بالتعدية الى البر الغربى ، فكانت كل تعدية يكون فيها نحو الألفين أو أكثر من الروم .

وأما السلطان طومانباى ، فإنه كان واقفا يترقب نحو ربوة عالية ، وأقام واحدا ينظر له الخبر .

فلما أخبره بأن الروم وصلت الى البر قال فى نفسه ، أحسن ما يكون أن أقطعهم أولا بأول .

فعند ذلك رمح عليهم رمحة واحدة ، فما شعروا الا وهو كابس عليهم وأوقع القتل فيهم ، فما وصلت التعدية الثانية الا وقد أفنى غالب الأولى .

٢٠٨

فارتج عسكر السلطان سليم وتشتت أمرهم ، فمئهم من قتل ومنهم من انقلبت بهم المراكب بما فيها ، فحصل للسلطان كرب عظيم ، وتدم على فعله ذلك ، وقال :

— لو أشار على أحد بذلك لقتلته أشد قتلة ، ولكن يهون الله تعالى .

فعند ذلك أمر ألا يعدى أحد ، وأن يضعوا ضرباتات على شاطئ النيل ويرموا بها على الذى فى ذلك البر من الجراكسة .

فرموا عليهم طلقا أودت به الدنيا .

فبينما هم في تلك الحالة وإذا هم بغبار قد طار من
خلف أظهرهم ، وصيحات وعيطات وخيل قد ملأت الوادي
فوقفوا ينظرون ما هذا الأمر .

فلما قربوا منهم وإذا بهم عرب غزاة (٥٦) ، يتقدمهم
حماد بن خير وأخوه سلام ، وكان سلام هذا بطلا لا يطاق ،
فبادروا السلطان طومانباي بالسب والشتم والكف عن
معاربة السلطان سليم ، وقالوا له ، ان لم ترجع عن معاربة
السلطان سليم والا كنا كلنا عليك ، ونأخذك بواسطة ،
ولكن ارجع الى حيث شئت ، واخرج من أرض مصر ، فانكم
قد قتلتم منا خلقا كثيرا في أيام ولايتكم ، وما منا من أحد
الا وله أحد قد قتلتموه ، اما أخوه ، واما أبوه ، واما
قريبه . وقد أزال الله تعالى دولتكم وجاء بهذا الملك العادل -

فقال لهم طومانباي : ستنظرون أرواحكم بعدنا .

وكف السلطان طومانباي ، وانثنى راجعا بعد أن
خادعهم بالكلام .

فلم يقبلوا منه قولا واحدا .

فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، اعلموا
يا أغوات أن دولتنا قد زالت ، وأجالنا قد مالت ، وما بقي
لنا في هذه الديار نصيب ، ولكن لنا أسوة بمن كان قبلنا ،
وانظروا الى هذه الحالة ، وما النصر الا من عند الله ، وقرأ
قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم
فمن ذا الذي ينصركم من بعده » (٥٧) فما الرأي عندكم؟

(٥٦) في حاشية سابقة أن بعض المراجع تشير اليوم بعرب عزاله بالعين غير المعجمة -

(٥٧) آل عمران ، آية ١٦٠ .

قالوا له : الرأى ما تراه ، وما نحن بين يديك ، كل ما تفعله نحن موافقون لك عليه .

فقال لهم : سيروا بنا الى جهة الهرم .
فساروا .

فيئما هم سائرون واذا بكردوس (٥٨) من الخيل قدموا عليه ، فأرسل ينظر من هؤلاء ، واذا به الأمير قيت رحبى الذى كان محبوسا بالاسكندرية وقد كان حبسه السلطان الغورى ، وكتب على قيده : «مخلد» ، فلما تسلطن طومانباى وحصل له ما حصل تذكر قيت رحبى ، وكان من الفرسان المجنورة .

فقال : أحق ما يكون أن أرسل فأطلق قيت رحبى ، وأخلع عليه ليكون لنا عوناً على هؤلاء الأعداء .

فكان مجيئه فى ذلك الوقت .

فقبل يد السلطان طومانباى وتلقته الأمراء ولبسوه خلعة السلطان ، وسار معهم الى جهة أهرام الجيزة ، وبكوا بكاء كثيراً ، وحكوا له ما وقع للغورى ، وما جرى لهم من أوله الى آخره .

فقال لهم : بالله المستعان ، وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ولا تستعينوا الا بالله ، وكان من أهل الرأى والدين ، وكان قارئاً كاتباً عارفاً بأنداب الحرب ، ولهذا حبسه السلطان الغورى خوفاً من أن يدبر عليه أمراً .

(٥٨) الكردوس أو الكردوسة ، وجمعها كراديس ، هى الفرقة الحربية الراكبة .
عاشور ، مرجع سابق ، ص ٤٤٢ .

ثم قال الأمير قيت رحبى : يا مولانا السلطان ، اختير
عندى أن نجعل هذه الواقعة نظما ، ونكتبها على هذا الهرم
ليكون لنا بها الذكر على ممر الدهور والأينام ، وكونا بأزاء
الأهرام .

فقام السلطان والأمراء إلى الهرم الغربى ، فوقفوا
عنده .

قال الناقل : فأخذ وشرع السلطان طومانباي ينشد
والأمير قيت رحبى يسمع ، والأمير شار بك يكتب على الهرم
هذه الأبيات التى جاءت من أحسن المعلقات ، تتضمن جميع
ما جرى لهم من أول الحرب إلى آخره نظما حسنا .

وهى هذه الأبيات :

وقلبى ذاب من كثر احتراق
ولا دمعى يفيض من اختناق
وهم فوق هم واشتياق
بمصر ، والعلا والعز راق
وبدر الضد فى درج المحاق
أقانا الروم من جهة العراق (٦٠)
عظيم الملتقى مر المذاق
مليكا شبه بحر فى اندفاق
وكان المرج وعدا للتلقي
قولى جيشنا والحرب باقى
طريحا والدمى فى الانهراق
وخاير بك المبوطن فى التفاق

دموع العين فاضت من ماقى (٥٩)
فلا نارى طففاها دمع عيى
وبى أسف على أسف وحزن
على زمن تقضى فى نعيم
وشمس السعد فى شرف المعالى
ولما أن أراد الله هـذا
وسلطان الجميع سليم شاه
وكان الماجد الغورى مـ
وقد قاد الجيوش لقو حرب
وكان الحرب يوم الحد لكن
وسلطان لنا أضحى قتيلا
وكان الخائن الكلب الغزالى

(٥٩) الماقى هى مجارى الدمع - المعجم الوجيز .

(٦٠) ان صحت نسبة القصيدة لطومانباي ، فهذه العبارة تفيد أن السلطان سليما كان
بالفعل فى طريقه إلى فارس لحرب الشاه اسماعيل الصفوى ، وما توجه للشام الا نتيجة
تصرفات الغورى غير المحسوبة .

الى حلب كخبيل فى سباق
وزاد الكرب مع ضيق الخناق
رجع لعدونا يبغي شقاق
وابرك عاقه كل العيباق
لغزة ثم مصر فى لحاق
نسلطن ايكم لعدو واق
براي الفيل علان الجواق
عشرة الآلاف فرسان استباق
ولم يعلم بسبوء الاختلاق
سلاح الحرب خوفا من دهاق
وقد حازوا البلاد مع الاتفاق
وكان الشر يوم الحرب راق
وزادوا فى الخصام وفى الخناق
كبصر مالح فى الاندفاق
حسبت الرعد محلول الطلاق
وأشعل بالمشقة والدقاق
علينا كالسحاب على الشراق
فليس لنا من الأحياء يواق
تموت الناس والتذكارات باق
كأسد لا تخاف ولا توافى
واستقيناهم كأس الرهاق
اتونا كالجبال على انطباق
فخروا للثرى مذ كنت ساق
بطعن فى الصدور وفى الأماق
اتوا بالصيد من قلب الوطاق
واختار الهزيمة بالنفلاق
وكان به المنية والفرار
وودعنى وداع الافتراق
بدمع لا يمل كما السواقى
وصار الفخذ منه كالنطاق
أبو يس فى الشجعان راقى

هما اصل الهزيمة عن حقيق
وسار الجيش من حلب لمصر
وعند حماة خاير بك المخامر
وفى الشام الغزالي كاد كيدا
وساروا بعدها سيرا حثيثا
ولما استجمعوا فى مصر قالوا
ولم أيننا أهل لهذا
وسيرنا الشريعة عظم جيش
وقدمنا على الكل الغزالي
فاختار الهزيمة وهو سال
وجاءتنا رجال الروم مصرا
خرجنا بالجموع لانتقيهم
وفى خط المدافع قام قومى
وقد جاءت علينا الروم زحفا
وزاد الرمي بالبارود حتى
وأطبق كل ناحية وفج
وقلت لكرتباى ترى الأعادى
وقلت الى الفتى علان خفنا
فقال اليوم نصلبها بطعن
وقمنا بعد ذلك قد حملنا
قتلنا من ملوكهم ثلاثة
ولما قد رأوا ذا الفعل منا
فاستقيناهم كأس المنيا
وبددت القوارس فى مجالى
وعدنا عودة للأسد لنا
وقد صلبنا الغزالي قد تولى
وفى علان جاءت ضرب زان
فوا أسفا عليه وقد تولى
تظل العين بناكية عليه
وجاء بركيته كمثل هذا
كذلك جانبلاط غدا طريحا

فلم يؤقه بيوم الحرب واق
فلم يبارزنى وحر الحرب باقى
بسيقى لورقى سيعا طباق
على وقد نأى منى رفاقى
وحسيت القنا والله باقى
وسرنا الشرق ، يا يابئس الشرق
كبسنا الروم والديجور باق
بضربات المهنده الرقاق
وفيشا والعساكر فى محاق
ويرموتى أسيرا فى وثاق
وكان بنفسه لى خير واق
وكان له رحيق المسك ساق
وصرت أجد من عظم اشتياقى
وقوق الالف معه فى رهاق
واحذر من طبيعات الحماق
كمثل البحر زايد فى تراق
كمثل السم لا يتفعه راق
ونحن على المضرة والعنقاق
عداد الرمل جمعا فى انطباق
حسبت الحشر قام مع التلاقى
وولينا جميعا يافتراق
جموع من نسانا فى زعاق
وجاءتنى خوند (٦٢) بثوب طاق
وليس لنا ثرى فى الحى واق
طويل الثاب والمخالب باق
وفيك اللاحقات مع البواقى
فانا فى مضيق وانفلاق

واما قانصوه امير قطيا (٦١)
وكم قد رمت قتل سليم شاه
واقسم لو آراه غدا قتيلا
ولما أن رأيت الحرب دارت
فوليت الجيود لنحو مصر
وعند طرا اتانا الجيش جمعا
وعدينا لمصر لأجل حرب
قتلنا منهم جمعا غزيرا
ثلاثين بان القتل فيهم
وقومى قد أرادوا يغدرونى
وشاربك احتمى عنى بسيف
جزاه الله عنى كل خير
ورحنا قلقشند (٦٢) ثم عدنا
وجدنا جانما امسى قتيلا
فقلت لشاربك اذهب سليما
فان اعدائنا جمع عظيم
فقال اليوم نصليها بطعن
وقاتلنا الجموع وقاتلونا
وبعد الظهر جائتنا جيوش
وزلزلت البلاد بهم الى ان
فقلت لرفقتى خلوا وقلوا
دخلت البيت نحميه لقانا
وقاموا فى ضجيج مع نصيب
قالت لى تخلفنا على من
وتهرب من نئاب وأنت ليث
وفيك السابقات لكل خير
فخلصنا من الأورام ياذا

(٦١) فى سيناء .

(٦٢) مركز طوخ - محافظة القليوبية الآن .

(٦٢) لقب يفيد الاحترام للنساء والرجال على سواء ؛ لكن السياق هنا يفيد أنه يخاطب

صبوح الضرب بالببيض الرقاق
على كاس وإبريق وسباق
مدامى واصطياحي واعتبأقي
لقد قلت جموعى مع رفاقي
بقيد الأسر فى أرض العراق
وبعد سنين جالما يلقى
ويرقى الأوج من بعد انمحاق
ويرجع رجعة كالسهم فاق
كرجعة عتري يوم السباق
تضج الضج من ألم الفراق
فراقك عندنا مر المذاق
ودعتك للذى رفع الطباق
كسبل سال من بحر الأماق
كما قالوا راقنا فوق راق
فولى هاربا دون الزقاق
تقاد مع الحمولة والنيق
فياله ماجد طلق انطلاق
على الجود المضمرة العتاق
وأشك نيل مصر بانهر اق
غزاة قد اتونا فى استباق
وان البغى اشام الاختلاق
لقينا قيت سيد من يلقى
كنظم الدر فى حسن النساق

فقلت لهم ورب البيت ائى
أحب الى من شرب الملامى
وشرب دما الفوارس كل يوم
وائى ان ذهبت الى اعتذار
وعتقر غاب عن عيلة سنينا
ونام الزير دهرنا عن كليب
وان النيل يعلو بعد نقص
وان اللبث يهرب من لهيب
وائى يعرف أمضى ثم ائى
فعادت وهى نادبة بقهر
وقالت ياطومانباى المقدى
فسافر فى امان الله ائى
فرجعت الجواد ودمع عينى
وسافرت الصعيد فحزت جيشا
وجانم قد ائى وبدا بحرب
وسرت لنحو مصر فى جيوش
ورزمك قد لقانى فى طريق
وصبحتا جيوش الروم صباحا
وزدنا القتل حتى كل سيفى
وقد رمنا نعدى البحر لكن
وراموا حريتنا ويقوا علينا
فعدنا عن قتال الروم قهرا
وعلقنا على الأهرام شعرا

قال الراوى :

فاقتضى رأى السلطان طومانباى ومن معه من الأمراء
أن يدخلوا الى دهشور (★) وينادى فى البلاد ، أن
الخراج (★★) بطل ثلاث سنين ، وأنه من أراد القتال

(★) دهشور قرية قديمة من أعمال مركز الجيزة .

(★★) الخراج ضريبة الاطيان والمعنى أنهم معفون من الضرائب مدة ثلاث سنوات .

ونصرة السلطان طومانباي فليسرع اليها ، وله ما لنا وعليه ما علينا .

فلما كان كذلك اجتمع لهم عالم عظيم من عرب وفلاحين وغيرهم .

ثم اقتضى رأيهم أن الأمير شار بك يكون باشا على عشرة آلاف فارس ، راكب وماش ، الى قتال السلطان سليم في أي محل صادفه فيه ، وإن السلطان طومانباي يستمر في دهشور حتى يأتيه الخبر من شار بك .

هذا ما كان من أمر هؤلاء .

وأما ما كان من أمر السلطان سليم فانه ضاق صدره وندم على دخوله مصر ، وخشى أن يطول عليه المطال ، ويدخل عليه الشتاء ، وينقطع عنه خير بلاده ، وخشى من أمر النصاري أن يدبروا أمرا في غيبته على أخذ الممالك الاسلامية ، فاشتغل فكره ، ودخل عليه الوسواس ، فنوى أن يبطل بخاير بك ، فانه هو الذي حسن اليه التوجه في أخذ مصر ، وخصوصا وعده السلطان أن يجعله باشا على مصر الى أن يموت .

فبينما هو في هذا التفكير وقد دخل عليه الوزراء وأخبروه أن بلاد الاطفيحية خرجت عن طاعة السلطان سليم ، وقامت العربان كلها على ساق لنصرة السلطان طومانباي ، فازداد غما على غمه .

فاقتضى الرأي أن يرسلوا تجريدة تمهد العربان وتأمرهم بطاعة السلطان سليم ، وأنه ما قصده الا عمارة

البلاد ، وأنه لا يحصل منه أذية لأحد من العرب ولا من
الفلاحين ، وإن كل من عاند أو خالف ليس له جواب إلا
السيف .

فقال السلطان : من يكون سردارا (٦٤) على التجريدة ؟

فقال : كل من اختاره السلطان .

فقال : يكون قانبردي الغزالي ، فإنه يعرف بأمر هذه
البلاد وبقتال العربان .

فلما حضر أمره السلطان بذلك .

فأجاب بالسمع والطاعة ، وقال ، أمر العريان هذا
أسهل ما يكون ولا يهم مولانا السلطان بشيء من ذلك أبدا .

قال الشيخ أحمد بن زنبيل الرمال : إن السبب في
وصول الغزالي إلى طاعة السلطان سليم هو أنه لما عاكس
السلطان طومانباي في أمر المدافع ، وغطوها بالرمال عنادا
وتكبرا منه ومن بعض الأمراء ، فلما حصل ما حصل من
الهزيمة في وقعة الريدانية وانتهزم من جملة من انتهزم
وحسدا منه للسلطان طومانباي ، وكان قصده أن
يتسلطن هو .

فلما اقتضى رأى الأمير علان والأمير شار بك الأعور
والأمير كرتباي الوالي والأمير قانصوه العادلي والأمير أبرك

(٦٤) السردار أى القائد ، من الفارسية : سر بمعنى الرأس ودار بمعنى صاحب .
محمد السعيد سليمان ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

رأس الجلبان وبقية الأمراء والأعيان أن يسلطنوا طومانباي
لما يعلمون من فروسيته وشجاعته وديانته وانسانيته
وتواضعه وزهده في الدنيا وعدم التكبر والتجبر ، وليس
يستحق السلطنة الا هو .

فلما كان كذلك غلب الحسد قلب قانبردي الغزالي
والبغض لأبناء جنسه حيث أنهم لم يؤهلوه للسلطنة وقدموا
عليه طومانباي ، وكان أحق بها وأهلها نسبة الى غيره .

والغزالي أخذ يعاكسهم في كل أمر ديروه ويخطيء
رايهم فيما يفعلونه .

فعلم السلطان طومانباي والأمير علان أنه ملاح عليهما ،
فأراد الأمير علان أن يبطش بقانبردي الغزالي .

فقال له السلطان طومانباي : لا تفعل .

فقال له : أما تنظر الى معاكسته لنا وعناده .

قال : اخشى أنك ان قتلته ربما تقع الفتنة في عسكرنا
وينخرم نظامنا ، ولكن اصبر الى ثاني مرة ، وما يكون
الا ما يريد الله تعالى ولا يغلب الله غالب ، والله سبحانه
وتعالى يعلم أننا ليس لنا رغبة في قتل أحد ، وانما هؤلاء
القوم بغوا علينا ويريدون أن يأخذوا بلادنا وأموالنا
وأولادنا ، ويهتكوا حريمنا ، فوجب علينا أن ندفع عن
أنفسنا وعن أموالنا وأهلنا وأولادنا ، دع كل من قدر على
شيء أن يفعله ، والله يفعل ما يشاء .

فقبال الأمير علان والأمير شار بك : والله مادام هذا الحبيث الولد الزنا (٦٥) بيننا لا يقام لنا نظام أبدا ، ومادام خاير بك مع عدونا لا يرد الخصم عنا أبدا .

فقال السلطان طومانباي : والله ثم والله ، ليس لي رغبة في سلطنتي وانما أنا واحد منكم ، ولولا أنكم اخترتموني وألزمتموني بذلك ما طاوعتكم في شيء من ذلك ، ولكن الله التديب .

فلما انهزم قانبردى الغزالي تبعه اثنا عشر أميرا ، فصادف منهم الأمير سودون الدوادارى ضرب زان ، أخذ فغذه فسار معهم الى قليوب (★) ، وهو بلا فخذ ، فتصفى دمه ، فمات هناك ودفن بها ، فجاء بعد ذلك على باي وأخرجه من قبره وحمله الى مصر ، ودفنه في تربته . وسار الأمير قانبردى الغزالي ومعه أحد عشر أميرا ، وكان من جملةهم رزمك الناشف الى أن وصلوا الى الأمير أحمد بن بقر (٦٦) ، فخرج الى لقائهم ورحب بهم ، وأقام بخدمتهم .

وما زالوا عنده والأخبار ترد عليهم .

وشاع ذكر طومانباي وما ظهر منه من الفروسية وما فعله في عسكر السلطان سليم ، ومن قتل منهم ، وكذلك

(٦٥) طبعة الاجتماع المملوكي (العبيد البيض) يتسم باستخدام الفاظ تشير دائما الى الام وتتهمها ربما بما ليس فيها .
(٦٦) بقر .

(★) قليوب مدينة بمحافظة القليوبية شمالي القاهرة . وكانت قليوب على الشاطئ الشرقى للبحر السردوسى ، وقد تذكر ابن اياس أن قليوب كانت محلا للقضاء من ياتى من القسطنطينية من طرف الملك ، وتعد له فيها الدفات الحافلة .

الأمير شار بك الأعور ، والأمير قانصوه العادلي وغيرهما من
الأعيان الذين تبعوا السلطان طومانباي . فحصل عندهم
الغيرة من ذلك .

فان الجراكسة كانوا قوما نفوسهم شامخة ، وأعطاهم
الله الشجاعة والفروسية ، وكانت هي فخرتهم ، فكان كل
منهم يتحدث نفسه انما يكون السلطان الا هو ، فلهذا أخذوا
عن دابرهم ، فان أخذ الملك ليس كان عندهم الا بالشجاعة ،
والملك ليس بقوة ، وانما هو أمر الهى يعطيه الله لمن يشاء
الله من عباده .

ولما ترادفت الأخبار بما فعله طومانباي ، صاروا يتعجبون
من ذلك ، فان طومانباي ما كان مشهورا عندهم الا بالدين
والصلاح ، وكان الذى ينظره بهذه السكينة والوقار لا يشك
فى صلاحه ، وكان محبوب الصورة عند كل أحد .

فلما صارت منه هذه الشجاعة والفروسية صاروا
يتعجبون ، فقال لهم الأمير رزمك الناشف :

— أنا سمعت قول القائل : الشجاعة صبر ساعة .

فقالوا له : صدقت يا أمير ، لكن من يصبر على ملاقات
هذه النيران وضرب الزانات والبندقيات ؟ ولو كانوا مثلنا
يقاتلون على ظهور الخيل كان الواحد منا يقاتل منهم مائة
ومائتين ، لأنهم ليس عندهم معرفة فى ركوب الخيل ،
ولا الجولان فى الميدان .

فقال الأمير رزمك : الحى ما له قاتل .

وقال في نفسه : ما ثمة بقائنا في هذا المحل وسلطاننا
يقاتل بنفسه والله ليس هذا من المروءة .

ونوى على الذهاب الى السلطان طومانباي .

وبات ، ما أصبح .

ففتش عليه الغزالي ، فلم يجده ، فعلم أنه سار الى
السلطان طومانباي ، فخشي أنه ان قام يوما آخر رجعت
بقية الأمراء الى طومانباي ، وتخبره بمحل الغزالي الذي
هو فيه .

فقال في نفسه ، وتكلم مع الأمراء الذين معه ، وقال
لهم :

— يا أغوات ، اعلموا أن دولتنا قد ولت ، وما بقيت
هذه البلاد الا لهذا الملك ، والأولى والأحسن أن نذهب اليه
ونأخذ له إمانا ، فاذا صرنا في أمانه أمنا على أنفسنا
وأموالنا وحریمنا ، وأيضا ليس هو مقيما في هذا الاقليم ،
فانه حيث تمكن من البلاد بأخذها وقتل طومانباي ، وأقام
خاير بك نائبا عنه ، ذهب الى بلاده ، فاذا ذهب عنا بقيت
البلاد في أيدينا نتصرف فيها كيف نشاء .

قَالُوا لَهُ : ومن أين لنا أنه يعطينا الأمان ؟

قال لهم : أنا أضمن لكم ذلك ، فان بيني وبين خاير بك
اتفاقا باطنا لا يعلم به أحد الا أنا وهو .

فعند ذلك أطاعوه وذهبوا معه الى آن وصلوا الى كيما
الريش ، وأرسل أعلم خاير بك بقدمه .

ففرح خاير بك بذلك فرحا شديدا ، وذهب إلى حضرة السلطان سليم وأخبره بذلك .

ففرح السلطان أيضا فرحا عظيما ، وأرسل له خاير بك والوزراء وأعيان دولته ، فتلقوه ، ودخل من باب القنطرة (★) في موكب عظيم ، وخلع عليه خلعة عظيمة من أعظم خلع الملوك ، وقابل السلطان سليما ، ورحب به وأمنه ، وأمن جميع الأمراء الذين كانوا معه ، وصار معززا مكربا عند السلطان سليم وعند عسكره .

ونرجع إلى سياق الحديث :

قال : فلما أخبروا السلطان سليما أن العربان قامت على ساق ، وعصوا وخرجوا عن طاعة السلطان ، اقتضى رأى السلطان فى إرسال تجريدة ، فأرسل الغزالي باشا على العسكر ، وكان معه خمسمائة فارس من الجراكسة ، وخمسمائة رامى بندق من اليكنجيرية إلى بر الاطفيحية .

فلما وصل إلى اطفيح ورأى البلاد كلها قائمة على ساق ، والعربان مجمعة ، ورأوه ، قصدوه وبادروه بالسب والشتم ، ثم وقع بينهم الحرب فكانت الكسرة على العرب .

فانه بادر برمى البندق ، فلم يثبتوا لذلك .

فولوا هاريين ، فتقفاهم ومزقهم كل ممزق وشتمهم ، وأمر بنهب نجوعهم وحريمهم وأولادهم ، وأرسل جميع ذلك إلى السلطان سليم ، فأمر ببيعهم فى الرميلة .

فبيعت النساء والأولاد الأحرار كما يباع الرقيق ،
ولكن بأبخس قيمة ، فصارت الناس كل من كان في قلبه
رحمة يشتري منهم الذي يشتريه ويمتقونهم في الوقت .

ووقع على الغزالي من دعاء العامة ما لا يحصى عددا حتى
دعت عليه اليهود والنصارى .

ولما سمعت العربان بذلك عصت جميعا ، وكذلك
العسير والحواف .

وكان سيدي يحيى ابن الأمير أزبك صاحب بركة
الأزبكية لما كانت وقعة الريدانية ، وانهمزت الجراكسة فر
على ظهر فرسه الى بلاد بنى حرام ، وكان بينه وبينهم
مصاهرة ، وتم مقيما عندهم والأخبار تنتقل اليه وترد عليه
وقلبه مع طومانباي ولكن لا وصول له اليه .

فلما كان كذلك وعصت جميع العربان والبلاد رأى له
طريقا الى الخروج فصار هو وبنو حرام يخرجون ويدورون
في البلاد والطرقات حتى وصلوا الى باب النصر (★) وباب
الشعرية (★★) ، وكل من وجدوه روميا قتلوه .

فقتل من الأروام خلقا كثيرا خصوصا من الأروام الذين
يسمون عجم أو علان ، فانهم كانوا يدورون ينهبون كل

(★) باب النصر أحد أبواب القاهرة الخمسة : باب النصر ، باب الفتوح ، باب
القنطرة (باب الشعرية) ، باب زويلة ، باب الخليج . ومع هذا فلم تكن القاهرة محاطة
بسور حصين ، ولكن المنازل شامخة ، وكل منها أشبه بقلعة .

(★★) باب الشعرية اسم ميدان معروف بالقاهرة ، وكان اسمه قديما باب القنطرة .

ما يجدونه من مأكّل أو غيره ، فكانت الزعر والفلاوية (★) ،
وحسن القتل في ذلك الزمن .

وكان سيدي يحيى ابن الأمير أزبك شجاعا عظيما ،
وكان من الفرسان المخبورة حتى أجمعت الناس على أنه
كان فريد عصره ووحيد دهره في كل فن من فنون الحرب ،
وكان فيه محاسن تفوق عن الوصف .

فلما سمع بأن السلطان طومانباي يقاتل السلطان
سليما عند المناواة (★★) ، ورحل عنها الى دهشور ، وأنه
جعل الأمير شار بك الدودار الكبير مقام نفسه في جميع
أموره ، واشترط على نفسه ان أيده الله تعالى بنصره جعله
ولى السلطنة من بعده لأجل ما نظر من شجاعته وقوته في
الحرب .

فعند ذلك قام سيدي يحيى ابن الأمير أزبك وعزم على
التوجه الى السلطان طومانباي وعدى من بر الشرق الى بر
الغرب وتم سائرا وكل من تلقاه من العربان يترحب به ويفرح
به ، ويلثم اليه (٦٧) ، فانه كان مشهورا ومخبورا عندهم
بالقروسية ، فلا زال سائرا حتى وصل الى دهشور ، واجتمع
بالسلطان طومانباي ، ففرح به السلطان وسأله عن حاله ،
فأخبره بما فعله هو وبنو حرام من قتل الأروام ، فشكره
السلطان على ذلك وأمره أن يكون مع الأمير شار بك من
أصحاب المراتب .

(★) الفلاوية . ويطلق عليهم بعض المؤرخين الفلاتية . وهم أوياش الناس .

(★★) المناوات . قرية من قرى محافظة الجيزة .

(٦٧) لعلها (يلثم يديه) .

قال الراوى : هذا ما كان من أمر هؤلاء ، وأما ما كان من أمر السلطان سليم فانه لما نظر الى هذه الأمور المفزعة والأحوال المضطربة خاف على نفسه وضاق صدره من أجل ذلك وتحير فى أمره ، فقال لأرباب دولته :

— ماذا تقولون فى هذه الطائفة القليلة ؟ كلما أقول ان أمورهم هانت فما أراها الا تزيد فى كل يوم ، وقد حصل لنا منهم غاية الضرر .

فقال يونس باشا : والله كان رجوعنا من الشام هو الصواب ، الا أن خاير بك لما ائنه وعده بآن يكون ملك مصر مادام حيا صار يدبر فى تحصيل مراده ، ولا قدرة له على ذلك ، فهو يحسن لمولانا السلطان العبارة ، ويسهل لك الأمور ، ويظهر لك أن ما قصده الا أن تكون البلاد بلادك ، والحال أنه فى باطن الأمر اتما يستعين بك على بلوغ مراده ، وهو هلاك أبناء جنسه ، واستقلاله هو بالبلاد والملك ، وترجع أنت ومن معك ان سلمنا ، ويستقل هو بالبلاد لنفسه ، وقد طمعت آماله بأنك لا تأخذ منه مالا أبدا ، فهو مجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد .

فحصل عند السلطان سليم تغير عظيم على خاير بك حتى أيقنوا أجمعين بأنه لا يبقى عليه أبدا .

وكان يونس باشا الذى هو الوزير الأعظم يكره خاير بك فى الباطن لما رأى منه من قلة الخير فى حق أبناء جنسه ، وكان ليونس باشا من الأخلاق الحميدة والأوصاف الجميلة ما يفوق الوصف ، وكان يعرف أن خاير بك ما قصده الا بلوغ مراده ، ولكنه دخل فى عقل السلطان سليم وصار يصغى لقوله .

وصار السلطان مستحيرا ان هو قتل خير بك وهو
متجون في مصر قامت عليه جميع البلاد من الشرق والغرب *

فقال السلطان سليم لأرباب دولته : انا نحن قد أخذنا
أرض هؤلاء القوم ، وسبينا حريمهم وقتلنا أكابرهم ،
فماذا نريد بعد هذا ؟ وكفى ما جرى ، وصار الأحسن فيما
أرى أن نجعل بيننا وبينهم صلحا ونترك لهم بلادهم *

فأشاروا عليه بإرسال خوشقدم *

فقال لهم : حبا وكرامة ، ولكن اذا لم يوافقوا على
ذلك ، والا كنت أنا أول من يقاتلهم *

ثم خرج من عند السلطان سليم *

فطلبه يونس باشا ، ووصاه بألا يغلف عليهم في
الكلام ، فان الكلام اللين تقبله النفوس *

فلما وصل خوشقدم الى دهشور رأى جيشا عظيما
وخيلا كثيرة *

فلما وصل اليه فاذا به بالأمير شار بك ومعه هذه
العساكر ، وهو قاصد قتال السلطان سليم *

فلما اجتمع به ووقعت العين في العين قال خوشقدم :

— يا معاشر الأمراء والسادات ، انى أريد الأمير شار بك
وأتكلم معه أنا وهو فيما يكون فيه الصلاح لنا ولكم *

فتقدم الأمير شار بك وعن يمينه الأمير أبرك رأس
الجلبان ، وعن يساره قانصوه العادلى والأمير قليج ، وحركوا

خيولهم ، وقد خرجوا عن قومهم حتى التقوا بالأمير خوشقدم ، وصار بينهم قدر رمحين •

فكان البادى بالسلام الأمير شار بك •

فرد عليه خوشقدم السلام •

فقال الأمير شار بك : ما معك أيها الأمير ؟ وفي أي شيء جئت ؟

فقال : جئت في الصلح بينكم وبين هذا الملك الذي هو سليم شاه الذي هو أعظم ملوك الأرض ، ولست أرى لكم أن تعادوه ، والرأى عندي أن تدخلوا تحت طاعته أحسن من أن تصيروا في قبضته وتذوقوا بين يديه العذاب ، ويقطع منكم الرقاب ، لأنه أرحم عليكم وأنتم أرحم على أرواحكم وأرقابكم وأولادكم ونسائكم وعيالكم ، فكفوا شره عنكم •

فقال الأمير شار بك : أما أنت فأمرك أمر عجيب •

فقال : لماذا ؟

قال : لأنك كنت تقول قبل هذا الملك ، الذي يقول انه أعظم ملوك الأرض ، ان جاء من الروم الى أرضنا أول من يقاتله أنا ، وأكون فداء لأبناء جنسى جميعا ، فلما ذهبنا الى شرق أطفيح ، ورجعنا الى حرب عدونا وضربنا الرأى أن نكبس عليهم ليلا فهربت أنت منا ورجعت الى عدونا الذي كنت تقول انك أول من يقاتله ، وأخبرته بما دبرنا ، وأطلعته على ما أضمرناه ، فلا أدري أفعلت ذلك من جبن في قلبك أو خلل في عقلك ، وأعجب من هذا أنك جئت اليوم تزعم أنك تريد الصلح فلا ندرى أخصم أنت أم حكم ؟

فقال له خوشقدم: صحيح انى فعلت ذلك ، وما فعلته
(ليس) اجبنا من الحرب ولا خوفا من الطعن والضرب ،
وانما فعلت ذلك لما انى رأيتك صرت دوادارا كبيرا ، وتعاليت
علينا هذا العلو الزائد . كرهنا أن نكون تحت أمرك ، وأن
نتقاد لقولك وفعلك .

فقال له الأمير شار بك — من حسن عقله وحلاوة لسانه
وطول روحه وأدبه فى جوابه :

— والله يا أمير خوشقدم لو أخذت ألت هذه الوظيفة
التي حسدتنى عليها لكنت أول من يخدمك فيها ، ويقوم
بحوائجك .

فقال له خوشقدم بعد أن خجل منه واستحيا (٦٨) :

— والله اننا كنا حسدناك عليها ، ولكن لما سمعنا عنك
ما لم نصدق من الشجاعة والفروسية ، ورأينا ذلك عيانا
قلنا . والله انه أحق بها وأهلها ، ولولا أن السلطان طومانباي
يعلم منه أنه يستحق ذلك ما أعطاه له ، ولكن هذا قليج ، من
أين حتى يكون فى مرتبة كرتباي الوالى .

فلما سمع الأمير قليج منه هذا الكلام ما ساعه عقله أن
يسكت عن الجواب .

فقال له : والله لو علم الله فيك خيرا أعطاك أعلى منا
ولكن الله تعالى علم أنك رجل خائن خارج عن حدك مارق عن
أبناء جنسك .

فلما سمع خوشقدم ذلك الكلام انعرف مزاجه ، وكان عنده طيشان عقل ، وخرجت منه الحدة ، فثلث قنطاريته وطمعن الأمير قلع طعنة بقوة عزمه يريد بها هلاكه ، فأخلى عنها بمعرفته ، فراحت في البطال ، ومن شدة الطعنة كاد أن يسقط خوشقدم عن جواده .

فلما عاين ذلك الأمير شاربك خرج منه الحدة ، وكان في يده طبر جناح (★) ، مكتوب على ظهره بالذهب ، هذا دليل لنهب الأرواح ، فضربه به خوشقدم على قنطاريته ، فأبراها كما تبرئ القلم .

فلما سقطت قنطاريته من يده جذب سيفه وقصد الأمير شاربك ، فضربه ضربة ثانية بالطبر على خوذته فقطعتها وجرح رأسه جرحا عظيما .
فلما رأى الدم على وجهه ولى هاربا .

فلما رأوه أتباعه (٦٩) ولى هاربا والدم يقطر من لحيته ولوا وتبعوه منهزمين .

فتبعهم شاربك قدر ميل ، ورجع عنهم ، فما سلم منهم الا القليل .

فلما وصلوا الى أوطاق السلطان سليم وشاع الخبر بأن خوشقدم منهزم ، وولى مجروحا ، ووصل الخبر الى السلطان سليم اغتاض غيظا عظيما .

(★) طبر جناح الة من آلات الحرب .

(٦٩) المقصود فلما راه أتباعه ، لكن استخدام الفعل في صيغة الجمع منبوعا بفاعل

جمع ، صيغة صحيحة لغويا رغم ندرتها .

فامر باحضار خاير بك ، فقال له : اننى أريد الرجوع
إلى دار سلطنتى ، لأن الأعادى فى حوالى مملكتى ، وقد قرب
الشتاء واشتد الغلاء ، وأترك هذا الخراب لأهله .

فلما سمع خاير بك ذلك عسر عليه هذا الأمر وقال :

— يا مولانا السلطان ، ان فعلت هذا سقطت من أعين
الملوك ، ويقولون هرب من الجراكسة ، ولكن الصبر عاقبته
الفرج ، ومن تأنى نال ما تمنى .

فعند ذلك أمر باحضار من كان مع خوشقدم من
الأروام وقال :

— لا تأتونى بجرکسى أبدا ، ولا ترونى أحدا منهم ،
وكل من يجيب أسارى يجيبهم قدام الخيمة ويقوم
المشاعلية (★) يقطعون رؤوسهم ، وكل من يجيب رأسا يؤديه
الى الوزير الأعظم .

فلما وقف كبيرهم بين يدى السلطان قال له :

— ما اجتمعت بطومانبای ؟

فقال : لا والله ما اجتمعنا به ، وانما وجدنا شار بك
وهو سائر الى جهتنا وقاصدنا .

فقال السلطان : فى كم فارس يكون ؟

(★) المشاعلية هم المكلفون بتنفيذ أحكام الوالى . وكان عملهم فى الأصل السبر
أمام الوالى بالشاعل .

قال : معه ألفا فارس من مدرع ولا بس وفي الحديد غاطس ، وهو أمامهم يقول في نفسه ، انه يقدر أن يفتح بهم الأرض شرقا وغربا .

فقال له السلطان : أنت نظرت شار بك الأعور .

قال : نعم وقربت منه حتى نظرت في وجهه .

فقال له السلطان : صف لي صفته ، فانهم وصفوه عندي مرارا كثيرة .

فقال : ليس هو طويلا ولا قصيرا ، وانما هو شرطة الناس ، وليس هو سمينا ولا رقيقا الا أن قوائمه كقوائم البعير ، أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعا ، حنطى اللون ، عربى الوجه ، وليس هو أعور كما يقولون وكما يسمونه بالأعور ، ولا به حول ، وانما اذا مال بعينه الى حاجب يكون أحد بياضها أزيد من سوادها .

فلما سمع منه السلطان هذا الكلام قال له : صدقت .

ثم قال له : وهل طال الكلام بينكما حتى تمكنت أنت من النظر اليه ؟

فقال : نعم ، حتى انى سألت من جماعة خوشقدم عنه ، فقالوا اننا رأيناه بأعيننا وهو يمسك الفحل الجاموس من قرنه ويجذبه فيقلعه من مكانه ، ويلوى قرونه بيديه ، فيقلبه على جنبه ، والناس ينظرون اليه .

فقال له : صدقت ، إنى سمعت عنه ذلك ، ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر ، فلا تفيد الشجاعة ، فسوف ترى أنى

سأقبض عليه ، وأقطع رأسه وأنت تنظر اليه ، فان دولتهم
قد انعكس طالعها .

ثم ان السلطان ألقى كليته الى الحرب وأمر أن تمسك
جميع المراكب ، ويجعلوها صفا واحدا من بر مصر (٧٠)
الى بر الجيزة وأن تربط في بعضها باحكام واتقان .

وأمر أن تعدى العساكر على المراكب .

ففعّلوا كما أمر .

وأخذ معه نحو أربعين ألف خيال ومثلهم مشاة غير
أتباعهم ، ولكنهم نقاوة النقاوة من شجعان عسكره ، وطلب
قتال الأمير طومانباي .

وترك في مصر الوزير يونس باشا وبقيّة العساكر
وأوصاهم بحفظ البلد ، وأخذ معه خاير بك نائب حلب ،
وأوصى الوزير الذي هو يونس باشا أنه اذا جاءهم الغزالي
يرسله اليه .

فأمر الوزير من وقته وساعته بكتابة مرسوم الى
قانبردى الغزالي يأمره بأن يعدى من الشرق الى بر الصعيد ،
وان السلطان سليما يريد قتال السلطان طومانباي ، وهو
مجد له في الطلب ، وأنت اذا وصلت اليك تلك المكاتبة
تكون على أهبة حتى تجتمع بالسلطان سليم وتكون أنت
وهو على طومانباي حينما يكون وحيث ذهب .

ذكر

تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة

قال : فلما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة ومعه سيدى محمد ابن المرحوم السلطان الغورى ، وكان سيدى محمد قد قابل السلطان سليما فى أول دخوله مصر على يد أخى جلىبى وقاضى العسكر محمد أفندى بحكم وعهد كتبه له السلطان سليم ، وحلف له أيضا أنه لا يضره بوجه من الوجوه أبدا .

ولما قابله كرمه السلطان غاية الاكرام ، وخلع عليه خلعة تليق بالملك ، وزاد فى اكرامه حتى اطمأن اليه ، وصار يأخذه معه فى كل بلد ومحل يذهب اليه .

ولما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة كما تقدم ، صار يسير بهم على الراحة لأجل ما معهم ، من المدافع والضربانات والأحجار والأثقال .

قال الراوى : هذا ما كان من أمر السلطان سليم وسيره بالمساكر .

وأما ما كان من أمر شار بك ، فانه سار بمن معه حتى وصل الى بر الجيزة وعن يمينه الأمير قانصوه العادلى وسيدى يحيى ابن الأمير أزبك والأمير دولتباى كاشف الجيزة والأمير باردىك ، وعن يساره الأمير أبرك رأس الجلبان والأمير تنمر الزردكاش نائب الاسكندرية والأمير دولتباى الكبير كاشف الصعيد ، والأمير قلج صديق الأمير شار بك ، وهم سائرون .

فقال الأمير شار بك : والله يا اخواني اظن ، والله أعلم
أن في هذا اليوم تقع لنا مضايقة من قبل عدونا ، فان قلبي
قد جربته ما حدثني بشيء الا وقد صادف الصحة ، ولكن
قال العارفون ، من ثبت نبت ، والشجاعة صبر ساعة .

فبينما هم في هذا الكلام الا وقد ظهر على بعد جيش
عظيم والسناجق والأعلام .

فقال لهم الأمير شار بك : رأيتم ما قلت لكم ؟ ولكن
تأهبوا وقفوا مكائكم .

وأما السلطان سليم فانه لما عاينهم عرفهم ، فانه قد
جاء له بدوى من عرب الفيوم ، وأخبره بأن شار بك الأعور
قادم عليك ومعه ألفان من خيار عسكر طومانباي ، كل واحد
في نفسه يقول ، انه يلقاك بمفرده .

فعند ذلك أمر السلطان سليم الرماة أن يبدعوا بالرمي .

ولما تقارب الجمعان ، حمل الأمير شار بك عليهم حملة
واحدة ، وركس عليهم .

فلما عاينوا ذلك رموا عليهم طلقا من البندق والمدافع
والمكفيات والسبقيات (★) حتى أودت الدنيا وتزلزلت تلك
الصحارى ، ولا بقى أحد ينظر أحدا ، فهلك من هلك ، وهرب
من هرب ، وثبت من ثبته الله ، ولكن الأمراء الذين تقدم
ذكرهم لم يهلك منهم أحد ، ولم يهرب منهم أحد ، بل توكلوا

(★) المكفيات والسبقيات ، آلتان من آلات الحرب وقد استعملهما الروم في حروبهم
مع المماليك ، وما كان للمماليك عهد بهما من قبل .

على مولاهم وأسلموا أمرهم اليه ، وحطوا أيديهم في الروم ، وقاتلوا قتال من يأس (٧١) من الحياة .

وقاتل الأمير شار بك قتال الجبايرة ، فما مضى من النهار قدر نصفه إلا وقد تقهقرت الروم الى ورائهم ، ورأوا من الأمير شار بك ما لا يروونه من أحد غيره .

فعند ذلك أمر السلطان سليم عسكره أن يتفرقوا (٧٢) عليه من كل جانب فصار كل من قرب منه هلك لوقته ، فلم يقدر واحد منهم أن يضربه ضربة لا بسيف ولا بعود ، وصار يصرخ فيهم ، ويقول : خلوا عن الحرب يا علوج (٧٣) الروم وارجعوا الى شورتكم وبوظتكم . ثم كلمهم بكلام فاحش ، ذكره الحاج فازس ، وهو غلامه الذي كان من وراء ظهره بالجنيب (٧٤) .

قال : وقد استقل الروم حتى عجزوا عنه بجملتهم وأيسوا منه ولم يبق أحد منهم بقربه ، فانه كل من قاربه

(٧١) الصحيح : ينس .

(٧٢) المقصود : يتحلقوا .

(٧٣) العلوج ، والمفرد علج ، كلمة تطلق على من تحول للإسلام ولم يحسن إسلامه . وقد كثرت طائفة العلوج هذه في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكان غالب العلوج من السواحل الأيوبية للبحر المتوسط ، والتحقوا بالبحرية العثمانية طلبا للمربح وطمعا في الغنائم خاصة أثناء حركة الجهاد البحري التي شاركت فيها الدولة العثمانية المسلمين المطرودين من الأندلس ، وبزبر الشمال الأفريقي . وقد أبدى العلوج بسالة - في بعض الأحيان - في هذه الحروب ، ولما كانت الدولة العثمانية دولة حربية في الأساس ، فقد وصل فيها العلوج لمناصب مهمة خاصة في مصر ، ومما يذكر أن دولة المماليك (السلطنة) كانت أيضا تستخدم العلوج خاصة في حكم بعض المناطق الساحلية ، بل لقد احتفظ بعض العلوج Ilizis بدينهم ولم يدخلوا في الإسلام الا في وقت لاحق ، والمعروف المقصود في العبارة أن الروم (العثمانيين) لم يحسن إسلامهم . عن العلوج ومجتمعهم راجع أيضا مقدمة ترجمة كتاب ميكول ونفر : المجتمع المصري تحت حكم العثمانيين (الهيئة المصرية العامة للكتاب) - سلسلة الألف كتاب () .

(٧٤) الحصان الاحتياطي .

هلك ، وهو ينادى ويقول : أين أنتم يا سليم ؟ يا من يريد أن يكون سيد الملوك والسلاطين ، ابرز الى الميدان ان كنت سلطان ، آه يا جبان يا ابن الجبان ، يا من يقاتل المسلمين بالنيران .

ثم التفت عن يساره فوجد كردوسا من الروم نحو الألفين وأكثر قد أحاطوا بالأمير دولتباى كاشف الجيزة ، فمال عليهم ميلا منكرا ، فما شعر الروم إلا وهو حاطم عليهم حطمة الأسد الفضياب .

فانه لما راح السلطان الغورى بهؤلاء الأمراء والعساكر الى مرج دابق كانت عسكره من جلجولية الى لولجن ، ولم يكن أحد يقول ان هذا العسكر ينكسر أبدا ولو اجتمع عليه أهل الدنيا ، فانه كان كل واحد من هؤلاء الأمراء يقول فى نفسه ، انه مقوم بجيش وحده ، ولكن لما اختلفت كلمتهم وقامت النفوس بعضها من بعض ، ولاحوا على بعضهم ، كسروا بعضهم جبرا ، وكسروا ملكهم قهرا .

فلما التحم الحرب مع السلطان سليم لم يصبروا غير ساعة وهى من طلوع الشمس الى وقت الغداة ، وكانت الكسرة عليهم .

قال الراوى : وما زال الأمير شار بك كلما سمع الجاويشية يصيحون على الطوائف ويعرضونهم على الحرب فيعيدونها ، فيحمل بنفسه عليهم حتفا ، ويقول ان هؤلاء أحق بالقتل من غيرهم ، فانهم يأمرؤن الناس بقتل بعضهم ويعرضونهم على ذلك ، وهم لا يقاتلون شيئا ، بل يكبرون العمائم ، ويجهرؤن بالأصوات .

ثم عمد الى ناحية من الجاوشية وقاتل قتالا لا يدخل تحت الحصر حتى صارت الرجال مطروحة راقا فوق راق .

وأما باقى الامراء من الجراكسة ، فان كل أمير منهم كسر من بين يديه من العساكر ، ولكن ما ولت الروم كل الهرب ، وانما تقهقرت مواكبهم وتنحت كتائبهم وعجزوا العجز العظيم ، وذاقوا البلاء العميم لأنهم فى طول عمرهم ما قاسوا قتالا مثل هذا اليوم .

وكان السلطان سليم يتأوه ويتحسر ويتقلق ويتضجر ويقول : ما كنت أظن أن أقاسى من أحد مثل ما قاسيت فى يومى هذا ، ولا كنت أقول انى بهذه العشرة آلاف فارس ورجال التى هى خيار قومى ، ويتبعها أكثر من عشرين ألفا ألقى فى هذا الأعور الذى هو فى أقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه ، ويفنى أكثر عسكرى .

فقال له خاير بك : والله يا مولانا السلطان كذلك أنا أقول ، ما كنت أظن أن شار بك بهذه الصفة ، ولا كنا نعتبره بين الفرسان ، ولكن ابرز أنت بنفسك الى العسكر ، وازجرهم وأمرهم بالحملة ، لعل النصر يكون لك .

فعند ذلك خرج السلطان سليم على عساكره وصاح فى وجوه أكابرهم : الحرب . . الحرب . . ما هذه الفترات ؟ أين تذهبون ؟ وإلى أى أرض تهربون ؟

ثم انه صار يوعدهم بالترقى والعطاء الجزيل ، ويقول لهم : انظروا لهم ، فانه ما بقى منهم الا الخمسمائة فارس ، انزلوا عليهم بجمعكم ، وابطشوا عليهم بقوتكم ولا تبقوا

منهم على أحد ، واقطعوهم الى أبد الأبد وأسرعوا في الحركات .

فلما تكلم السلطان سليم بهذه الكلمات المعجزات مع أكابر دولته ، خرجوا من بين يديه وهم لا يدرون ما يصنعون وصاحوا على الطوائف المجتمعة وحمل كل صف من ناحية ، وكانت الجراكسة قد أيقنوا بالنصر والظفر ، وما دروا أن في ذلك اليوم الموت الأحمر والبلاء المنتظر ، ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر .

وما بقي مع الأمير شار بك الا نحو خمسمائة فارس من الألفين الذين كانوا معه ، وأما البقية فمنهم من قتل ومنهم من هرب ، ولكن لم يهرب منهم أحد من ضرب سيف ولا عود ، ولكن انما هربوا من النار ومن البندق والضرايبانات ، وكذلك الذين قتلوا ، لم يقتل أحد منهم بالسيف الا القليل جدا ، وانما قتلوا بالبنادق والنار .

ولما كانوا هزموا الروم ووقفوا حول الأمير شار بك وهو بينهم كالأسد ، وكل منهم يدعو له ، ومنهم من يقبل يديه ، ومنهم من يقبل رجله لما رأوا منه من الشجاعة التي لا تسمع الا عن عنتر بن شداد ، فصار يسأل عن الأمراء ويتفقدهم واحدا بعد واحد ، فما وجد واحدا منهم قتل ولا جرح ، ففرح بذلك .

وانما الذين قتلوا والذين هربوا كلهم مماليك وأتباع ، وأما الرؤوس الأعيان مثل الأمير قانصوه العادلي والأمير يحيى بن أزبك والأمير قانصوه كرت والأمير أبرك رأس الجلبان والأمير دولتباي كاشف الجيزة والأمير دولتباي

كاشف منفلوط ، وكان صديقه قلع عن يساره ويتحدث معه حتى مر على الأمراء المذكورين جميعا ، وهو يتفقددهم هل جرح منهم أحد ، فوجددهم كلهم طيبين .

فقال لهم : الشجاعة صبر ساعة ، انظروا لما صبرتم كيف ظفرتم ، وأيدكم ربكم ، فثبتوا نفوسكم حتى يتم الأمر لكم ، ومن تعب منكم يقف في مكانه ولا يولى دبره فيكسر قلب أصحابه ، ويطمع الأعادي فينا ، وكلما كنتم حزمة واحدة كنتم أنتم الغالبين .

فقالوا : والله يا أمير ، ليس منا أحد يهرب لا من طعن ولا من ضرب ، فان هؤلاء القوم قد عرفناهم ، ليسوا بأفرس منا ولا أشجع منا حتى نهايهم ، وانما ضرورتنا (٧٥) من هذه النار ، وهذا البندق والرصاص ، ومن هذه الضرايبانات التي لو رموها على الجبال لأزالوها .

قال لهم : لا اعتبار بشيء من هذا مطلقا ، والحي ما له قاتل ، والانسان اذا فرغ أجله مات وهو على فراشه ، وقد قال مولانا سبحانه وتعالى : « لكل أجل كتاب » فلا يزيد العمر بالهرب ، ولا بالثبات ينقص العمر ، يومك يومك ، طيبوا نفوسكم ولا تجبنوا فان الله تعالى يكره الجبان ، واعلموا انكم ما تقتاتلون الا عن حريمكم وأولادكم وأموالكم وبلادكم ، فمن قتل منكم مات شهيدا ، ومن عاش منكم عاش سعيدا ، وأما هؤلاء فانهم باغون عليكم ، والباغي له مصرع .

وبينما هم في هذا الكلام وظنوا أن الروم قد بطلت همتهم عن الحرب واذا بهم قد أقبلوا عليهم زحفا مثل قطع الفمام ، فصاح عليهم الأمير شار بك : الحملة ، أسرعوا يا كرام غير لئام .

فكان هو أول من حمل بعد ما فرغ من الكلام ، ونطح الجيش بصدره كأنه الليث الضرغام ، فرمت عسكر الروم أول طلق والثاني والثالث بالبندق والضرابزانات حتى صارت البندق والأحجار نازلة كالطر المردار ، والجراكسة قد التحموا في الروم حتى صار بينهم حملات ومحاربات ومصادمات ومهاجمات ومضايقات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وصار لهم وقع بالسيف والدبابيس على الأبدان كوقع مطارق الحداد على السندان ، أو كوقع حوافر الخيل على الحجر الصوان . وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعه الأذهان ، وكان لهم يوم مشهود لم ير مثله في قديم الزمان .

وكان الأمير شار بك قتاله في هذا اليوم قتال من استقتل ، كالليث الفضنفر ان مال على جماعة طحنها أو على طائفة مزقتها ، وفي يده سيف يقطع به الأعمار قطعاً ، ويصدع الأكباد صدعاً ، فلم يكن الا شيء قليل حتى انطفت جمرة الروم وخمدت وكلت حركاتهم وجمدت ، ورد جموعهم الأمير شار بك قهراً وزجراً يحد سيفه .

فتراجعت مواكب الروم بين يديه الى الهروب ، وقالوا : ان هذا البطل ما له من البشر مطيق ولا يليق لأحد أن يقاتل هذا السبع الفضنفر . فله دره من بطل الأبطال وهازم الأقيال ، حتى صار بعض أكابر الروم يدعون له كما

يدعون لأنفسهم مما رأوا من شجاعته وفروسيته ، وعلموا أنهم لا يقاومونه لا فى ركوب الخيل ولا فى ضرب السيف ولا فى رمى السهام ، وانما عمدتهم على رمى البندق والضرايزانات وآلات النار .

فقال أكابرهم ، بعضهم لبعض ، ان القتال مع هؤلاء الأبطال فى الفارغ البطل ، فتقهقرت الروم الى ورائهم ، فلا زالوا حتى وصلوا الى النيل السعيد ، وقصدوا انفضاض الحرب .

فهم فى هذه الحالة واذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار ، فوقفت الروم تنظر الخبر ، ووقف الأمير شاربك أيضا ، هو ومن معه من الجراكسة ينظرون وقد بقوا فئة قليلة ، ولكن كل واحد منهم مقوم بالوف ، ولولا النار التى مع الروم لكانوا أفنؤهم عن آخرهم .

فلما قرب الغبار ظهر من تحته خيل تركض الأرض ركضا فقال لهم الأمير شاربك : لا يخلو هذا الجيش القادم من أن يكون السلطان طومانباى ، والا فهم عرب غزاة قد جاءوا لنا لنصرة عدونا .

قال : فما تم الأمير شاربك كلامه حتى قربت الخيل اليهم وتحققوهم واذا هم عرب غزاة يقدمهم سلام بن خبير وأخوه حماد ، وهم قاصدون الى العسكر الجراكسة ، فلما نظروا الى الأمير شاربك بادروه بالسب والشتم .

فلما عاين ذلك منهم عرف أن الأمر صعب ، فاقتضى رأيه أن يظهر لهم الهزيمة حتى يتبعوه ، فاذا تبعوه وبعدوا عن

الروم يرد عليهم ، وربما أن الروم يرمون عليهم طلقا فيكون فيه هلاكهم . وكان الأمر كذلك فانه لما أظهر لهم الأمير شاربك الهزيمة طمعوا فيه وتبعوه ، فلما بعدوا عن الروم رجع عليهم الأمير شاربك رجعة الأسد وقاتلهم قتال من يشس من الحياة ، فما ثبتوا بين يديه ولا درجة واحدة وقد ولوا منهزمين ، فانه ما بقى بقربه أحد الا قتله ، فما ساعهم (٧٦) الا الهروب .

وأما السلطان سليم فانه لما رأى العرب انهزمت على الفور أمر الرماة أن ترمى ، فقالت له الأعيان كيف ترمى على العرب وقد جاءوا لنصرتنا .

قال : ارموا ودعوا كل من فرغ عمره يموت .

فرموا عليهم طلقا ، فأصاب غالبهم .

فلما رأت العرب ما حل بهم من الروم اغتاضت قلوبهم ، وقال بعضهم لبعض ، انظروا الى هؤلاء العلوج ، نحن نقاتل عنهم وهم يرمون علينا بالنار ولا يرحموننا ، ونادوا لبعضهم من يرد السلامة يتبع الأمير سلاما وأخاه حمادا .

فخرج سلام وتبعته العربان ، وما سلم منهم الا طويل العمر .

فما مضى غير ساعة حتى انعزلت عرب غزالة الى بعد ميل ووقفوا ينظرون ، ماذا يكون الأمر بين الفريقين .

فلما عاين الأمير شاربك ذلك حسب الحساب ، انه متى رجع الى قتال الروم تتقفاه العرب وتضايقه وتعوقه عن مراده ، فأمر الأمير قانصوه كرت أن يكون في مائة فارس تحت السنجق بمن معه ، فأينما وجد العرب حملوا يلقاتهم بالمائة فارس ، والعرب ألوف ، وقد قتل منهم نحو ألف أو أكثر .

ثم حمل الأمير شاربك والى جانبه قانصوه العادلى والأمير أبرك والأمير قلعج والأمير تنمر والأمير بردبك والأمير أبو يزيد والأمير دولتباى كاشف الجيزة ، والأمير دولتباى كاشف الصعيد وسيدى يحيى ابن الأمير أزيك صاحب بركة الأزبكية ، فهم صف واحد ، كل واحد مقوم نفسه بجيش وحده ، فله درهم من فرسان أفراد ، وأتباعهم نحو الثلاثمائة ، تحطم على ألوف مؤلفة ورماة بالبندق وبالنار على سائر آلات الحرب .

فلما رأت الروم الأمير شاربك قد رجع عليهم يريد الحرب صاروا يتعجبون منه غاية العجب ، وقالوا : لا شك أن هذا الرجل مجنون أو معه أحد من الجن يساعده ، وانما العاقل لا يلقى نفسه فى هذا الهلاك .

فأمرهم السلطان سليم بالرمى عليهم ، فرموا طلقا حتى صار البندق عليه كالطرر ، فلم يرجع عنهم ، وصار فى حملته حتى حطم عليهم وحط يده فيهم ، فما صرت تنظر الا رؤوسا طائرة وفرسانا تتساقط وعملوا فى بعضهم كما تعمل النار فى الحطب .

وكان النهار قد ولى ، وغربت الشمس ، وألح لحا عظيما السلطان سليم فى الحرب ، وأمر أجناده أن يضايقوهم ،

وكان يرجو أخذهم فى ذلك الوقت لأن غالب عسكر الأمير شاربك ، منهم من قتل ومنهم من هرب ، وما بقى معه الا الأمراء الرؤوس القرانصة وبعض مماليكه .

فطمعت فيهم الروم غاية الطمع وبذلوا جهدهم فى الحرب ، فله در هؤلاء الفرسان القلائل ، كيف اصطلوا هذه الحرب بأنفسهم ، فلما عاين السلطان سليم الأمر بخلاف ما أملة ودخل الليل أيس من أخذهم ونادى فى عسكره بالانفصال .

فما كانت غير ساعة حتى رجع عسكر الروم تحت سنجقهم .

وصار الأمير شاربك يشتمهم ويقول لهم بلسان تركى : اذهبوا الى شوربتكم يا علوج الروم ، يا كفرة ، يا فجرة (٧٧) .

وعسكر الروم تشتمه وتقول له : ان شاء الله تعالى ، يا معرص نقطع رأس طومانباى ورأسك ، ونخليهم تحت أرجلنا مثل رأس الكلب و . . . امرأتك وامرأة غيرك ، يا نصرانى يا ابن النصرانى ، يا كبشة حرامية . . يا عرصات ، يا ملاعين ، يا خنازير ، أى شىء لكم نسبة بالسلطنة أو الامارة يا كفرة ، يا مماليك ، لو كان على رأسكم دولة كنتم تعملون سياسا عند سلطاننا لأن سلطاننا خير السلاطين وسلطان الخواقين (٧٨) ، ونحن غزاة الاسلام ،

(٧٧) الاصل فى العلاج ما ذكرناه فى حاشية سابقة ، لكن المعنى انصرف فى العامة

المصرية الى ما يعلمه القارئ .

(٧٨) جمع خاقان أى الملك .

وعززنا الله على الأعراب والأعجام ، كلنا مجاهدون مع الكفار والفجار ، وما نحن مثلكم أشرار أولاد كفار ، لعنة الله عليكم وعلى من اتبعكم الى يوم القيامة •

فرجع الأمير شاربك لينظر محلا ينزل فيه هو وجماعته •

فقال له الأمير يحيى ابن الأمير أذربك صاحب بركة الأذربكية : انزلوا على شاطئ النيل تجاه عدونا •

فقال الأمير شاربك : هو رأى صواب ، غير أن عندي رأى أصوب منه ، وهو أن بالقرب منا بركة ماء على الطريق ، فربما أن السلطان طومانباى يرسل لنا أحدا أو يأتى هو بنفسه فلا ينظر إلينا ، ولا يعرف فى أى جهة نزلنا •

فاستصوبوا رأيه ، فما لبثوا غير ساعة الا وقد أقبل عليهم خمس فوارس من عند السلطان طومانباى ، فاجتمعوا بالأمير شاربك ، وأخبروه أن السلطان نازل على دهشور ، وهو مشغول الفكرة عليكم ، وما جاءه عنكم خبر الا عند الغروب ، فهم أن يأتى اليكم ، فرأى النهار قد ولى ، وبلغه أيضا أن عرب غزالة قد حاربوكم مساعدة لعدوكم ، فسأه ذلك وانتقبض خاطره ، وبقي متحيرا فى نفسه •

فقال الأمير شاربك : ليته قد جاءنا فى ذلك الوقت ، والله لو جاءنا وقت الحرب ، وأسعفنا بالطنن لهم والضرب لأخذناهم عن آخرهم فان الروم ليس لهم عزم ولا قوة الا رمى النار ، ولما بطل رمى النار ولم يبق الا السيف والعود ما عاد لهم قدرة على ذلك ، ولو أن السلطان طومانباى صح

منه الرأى كان جاءنا على الفور ، ولكن الله أعلم أن دولتنا قد ولت وانقضت ، فانى أنظر أن الرأى والصواب ننسأه ولا نعرفه حتى يفوت وقته وأوانه ، والرأى الخطأ نتبعه ، فهذا دليل على الزوال ولا شك ، لكن لا دافع لله فيما قضى ، والله تعالى يعلم أننا لم نقاتل فى حظ أنفسنا وانما قتالنا عن أنفسنا وحریمنا ، وعن ديارنا وأموالنا وأولادنا ، فانه قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » والله تعالى يعلم أنهم ياغون علينا ، وقد قال الله تعالى : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه ، لينصرنه الله » وقد أسلمنا أمرنا اليه تعالى ، وهو يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء .

ثم قال له القاصد : ان السلطان أمرنى أن ساعة وصولي اليك لا تتأخر ساعة واحدة ، وتحصله على ضيعة وردان ، فانه ينتظركم هناك . فعند ذلك أمر الأمير شار بك بالرحيل ليلا ، وترك الحرب واختار الهروب وقال :

— من كان منا يتبعنا .

وقام من ساعته ، وأمر بالرحيل خوفا من سطوة سيف السلطان سليم .

فلما بلغ مناه وخجل عن دعواه قال له بعض الأمراء :
— فان تبعنا العدو فى هذا الليل كيف نصنع ؟

فقال لهم : وهل سمعتم أن الروم تقاتل ليلا أبدا ، وما رأيتم لما أن دخل الليل كيف بيتوا ، أين عقلكم ؟

فلما ساروا ومروا على الروم من بعيد لم يخرج اليهم
أحد .

وقال السلطان سليم ، لا أحد يتبعهم منا ، فانهم ربما
فعلوا ذلك مكيدة لكم وحيلة عليكم .

وفرح السلطان سليم بمرورهم لجهة البحر المالح .

فلا زال الأمير شاربك سائرا طول الليل الى أن طلع
النهار وهم فى الوراق (★) .

واذا بالسلطان طومانباى نازل هناك .

فلما رأوه على بعد ، أمر السلطان جميع من معه من
العسكر أن يذهبوا الى ملاقة الأمير شاربك فارس الزمان .

فلاقته العسكر أحسن ملتقى ، ودعوا له ، وفرحوا
بسلامته .

فلما قرب من السلطان أراد أن ينزل عن فرسه ، فأقسم
عليه السلطان طومانباى ألا يترجل أحد منهم عن مركوبه .

فامتلوا قواه ، وسلموا عليه وهم على ظهور الخيل .

وسار السلطان طومانباى والأمير شاربك عن يمينه
والأمير قيت الرحبى عن يساره ، ومن ورائه الأمير أبرك
رأس الجلبان ، والأمير قانصوه كرت .

(★) الوراق قرية من قرى محافظة الجيزة قسم امباية ، والمراد منها وراق الحضر
المقابلة لشبرا الخيمة ، وبجوارها قرية أخرى تسمى وراق العرب غربى وراق الحضر
وأحدث منها .

فلما وصل السلطان الى أوطاقه ترجل عن جواده ،
وترجل الأمير شاربك وبقية الأمراء والأجناد ، وجلس
السلطان على الأرض من غير كرسي ، وكذلك الأمير شاربك ،
وبقية الأمراء على قدر مراتبهم .

فقال السلطان للأمير شاربك : أخبرنا يا أمير بما وقع
لك من الروم وبما فعلت فى محاربتهم .

فقال الأمير شاربك :

والله يا مولانا السلطان وقع لنا معهم حرب يشيب
الأطفال فى المهدي ويلين لعظمته الحجر الجلمود ، وكنا نحن
الظافرين عليهم والغالبين لهم ، وقد كسرناهم حتى رميناهم
البحر ، ولكن ما سلمنا من عرب غزاة ، فانهم هم الذين
عاقونا عن مطلبنا وصدونا عن مقصدنا ، وصدونا عن
غرضنا ، وانى والله العظيم رب زمزم والحطيم لو ثبت معى
الآلفان اللذان خرجت بهم من عندك ما كنت رجعت عنهم
وكنت قسمتهم قسمين : قسم يقاتل الروم ، وقسم يقاتل
غزاة . وما كنا بتنا الا فى مصرنا ، ولكن ما شتتهم الا هذه
النار . التى يرمون بها فما يشعر الانسان الا وهو مضروب
بها وما يعرف من أى جانب جاءته ، فان غالب عسكرنا
لم يقتل منهم أحد بالسيف الا القليل ، ولكن هذا ما جرت به
المقادير من الرب القدير ، ونسأله اللطف والتدبير ممن له
الحكم واليه المصير .

ثم قال الأمير شاربك :

— والله يا مولانا السلطان ، لو حزمت أمرى وضبطت
رأيتك لكنت لما سرت أنا والآلف فارس وقاتلت العدو ،

وصبرت أنت ، وسرت وجئت بشيء يسير من خلفي ، وقاطعت على العدو من ورائهم لكننا أخذناهم بواسطة من قبل أن تأتيهم بقية المساكر وعربان غزاة ، وما كنا بتنا الا في مصرنا ، وكان انفصل الأمر بيننا وبينهم ، وارتاحت قلوبنا من هذا العناء ، فان السلطان سليما كان معه نحو عشرة آلاف ، وكانوا نقاوة عسكره ، وأتباعهم نحو العشرين ألفا ، ولكن ما كنت أنظرهم في الميدان الا كالبهائم ليس فيهم من يسوق حصانه في حومة الميدان الا أن يكون جركسيا منا من الذين خانوا أبناء جنسهم ، وذهبوا اليه ، فالله يخون الخائن .

والله أعلم أن دولتنا دعائمها سد مالت وأيامها قد زالت ، واني أرى أن الرأي الصواب ننسأه ولا نذكره حتى يفوت ويمضي حكمه ، وان الرأي غير الصواب نتبعه ولو تعلق بالسحاب ، وهذا مما يدل على الاضطراب والانتقال ، فنعوذ بالله من العكس في الأسباب التي توجب الى الذهاب من غير اياب ، ومن عظم مصيبة تتعير فيها عقول ذوي الألباب .

فقال له السلطان طومانباي : دع عنك الأفكار والغم بما فات ، واعمل الرأي فيما هو آت .

فقال الأمير قيت الرحبي : صدق السلطان فيما قال ، اضربوا لكم رأيا فيما تفعلون ، فان العربان صارت كلها أعداء لنا ، وعونا لعدونا ، وليس فيهم من يقاتل معنا ، ويكافح عنا ، لأنه ما منهم أحد ، الا من قتلنا اما آباء ، واما أخاه ، واما ابنه ، واما ابن عمه ، واما واحدا من أقاربه ، وذلك لما كانوا يعصون علينا ، فهم الآن كل واحد منهم

يطالبنا بثأره القديم ، وأما عدونا فانه قد جاءهم جديدا وليس بينه وبينهم شيء من العداوة ، ولا نالهم منه الا الخير ، فانه تذهب اليه آكابرهم فيعطيههم ويرضيهم ويعلق آمالهم بجزيل المطامع ، ويحلف لهم أنه لا يؤذيهم ولا يقتل منهم أحدا ، ولا يأخذ منهم خراجا ، وانما يأخذ منهم العشر ، ويحكم بينهم بالعدل ، ولا سيما معه هذان الشيطانان الخبيثان خاير بك والغزالي ، وهما يرسلان شيوخ العربان ، ويقولان لهم ، هذا ملك عادل ، مسلم ابن مسلم ، وسلطان ابن سلطان ، الى سابع جد ، ويجب الخير والانصاف ويكره الظلم والاسراف ، ويميلان قلوب الناس اليه ، ويعطفونهم عليه ، ويسميانه بالملك العادل ويشكرانه لكل أحد عاقل وجاهل .

وبعد هذا فما بقى لكم من الراى الا أن ترسلوا قاصدا لقبيلة غزالة التى هى أشد القبائل علينا ، وتوعدهم بكل خير ، فلعل أن يميلوا الينا ويطيعونا ، فان حصل ذلك كان خيرا ، وان أبوا فالاستعانة بالله خير لنا من كل أحد ، وغاية الأمر الموت ، فانه أمر لا بد منه .

وعند ذلك أمر السلطان طومانباى بكتابه الى عرب غزالة ، فأول ما بدأ فيه بشيخهم حماد بن خير ، ويخوفهم من الله تعالى وعاقبة المكر والبغى ، وحلف لهم ان أطاعوه ودخلوا فى طاعته ليقابلنهم بأحسن مقابلة ، وان لم يقبلوا ذلك يكفوا عن قتالنا ولا يعارضوننا فى قتال عدونا فانهم كانوا يجتمعون على بعد من الحرب ويرسلون من ينظر لهم الخبير ، فلما تقع الكسرة على الروم يرمحون رمحة واحدة

على الجراكسة من خلف ظهرهم ، فيضيقون علينا من شدة
هزيمة عدونا .

فلما ترى الجراكسة الأمر قد جاءهم من خلفهم يرجعون
عليهم ، ليكفوهم عن أنفسهم ، ويردون عليهم ، فتصير
الجراكسة في الوسط ، فبهذه الوسيلة تغلب الجراكسة غاية
الغلبة .

فلما وصل كتاب السلطان طومانباى الى حماد بن خبير
وعرف مضمونه وأعطاه لأخيه سلام ، فقرأه الآخر وعرف
مضمونه قال سلام لمحمد شيخ البكارية (★) :

— أنت يا محمد ما تعرف ما جرى بيننا وبين الجراكسة
وما قتلوا منا وكم يعطوننا الأمان ، ثم يغدرونا .

فقال له محمد : انما كان يفعل ذلك السلطان الفورى ،
وأما هذا الرجل طومانباى فانه رجل صالح وفارس فالح ،
وما سمعنا عنه لأحد سوءا أبدا ، وأنا ضامن لك عهده ،
فانه رجل صادق فى قوله ، وليس هو كالفورى .

فقال له سلام وأخوه : حتى ننظر ، ان كانت العرب
تطيعنا أو لا . ثم نادى فى جميع عرب غزاة أن يجتمع
الأعيان منهم .

(★) البكارية ، طريقة صوفية ، تنسب الى الشيخ أسد الأبى بكرى ، وقد ذكره السخاوى
فى كتابه تحفة الاحباب ، وقبره فى زاوية المصفر يمين شارع السيوفية . وقد قال على
مبارك لى كتابه الخطط التوفيقية ان الزاوية موجودة وان لها منبرا وخطبة ومطهرة
ومراحض وفيها بئر وحولها قبور .

فاجتمعوا كلهم ، فقرأ عليهم كتاب السلطان طومانباي .

فلما سمعوا قاموا كلهم قومة واحدة ، وقالوا : لا سمع
له ولا طاعة ، ولا بيننا وبينه الا السيف .

فقال محمد شيخ البكارية : يا وجوه العرب ، أما ما
قلتكم عن السلطان الغورى فانه كله صحيح ، وقد نظرتكم
كيف أخذه الله تعالى ، وأما هذا الرجل طومانباي فهل سمعتم
عنه شيئا من الظلم والبغى قديما أو حديثا ؟

فقالوا : لا ، ما سمعنا عنه سوءا أبدا ، لا فى زمن
الغورى ، ولا فى هذا الآن ، وانما هذه الطائفة دولتهم قد
زالت وولت ، وأوقاتهم مالت وأيامها ولت ، وأعزأؤها
ذلت ، لو قمنا معه ونصرناه لا يفيدنا ذلك بعد أن ولت
دولته ، وان تركنا نصرة السلطان سليم واعتزلنا لا نسلم
من عتبه علينا فيما بعد ذلك ولا نأمن على أنفسنا منه ،
فانه صاحب البأس الشديد ، والأولى أن نجعل لنا عنده يدا
نأمن بها على أنفسنا فيما بعد ، وبعد ذلك لا تطل فى الكلام ،
واقصر فى الجواب ، فما بقى لك معنا كلام ، والسلام .

فلما أيس منهم انثنى راجعا الى السلطان طومانباي ،
وأخبره ، بذلك .

فقال لهم الأمير شاربك : الآن قد بان لكم صحة قولى .

ف قالت جميع الأمراء ، والله ان رأيك فى جميع الأمور
هو الصواب من يوم الريدانية ، وأنت تقول لا تدفنوا
المدافع فى الرمل ، وقانبردى الغزالي يقول ، الصواب دفنها

حتى لا ينتظرها أحد ، وانما كان ذلك منه مكرا وعنادا ،
فلا لقاء الله خيرا •

فأمنت جميع الأمراء على دعائه عليه ، وكان كذلك ، فلم
يلق نصرا الى أن قتل أسوأ القتلات •

وسياتى خبر قتله فيما بعد ان شاء الله تعالى •

فقال لهم السلطان طومانباى : يا أمراء ، يا أغوات ،
الرأى عندى أن نتوكل على الله ربنا ، سبحانه وتعالى ، فان
الأمر بيده ، وما يضرنا اذا متنا شهداء ، فان الله تعالى يعلم
أنهم قد بغوا علينا ، وقد قال تبارك وتعالى : « فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله
واعلموا أن الله مع المتقين » • • فما بقى لنا الا التسليم لله فى
الأمر كلها ، ونقاتل الى أن نقتل ، والسلام • وأما حريمتنا
وذريتنا فالذى خلقهم هو أرحم بهم منا •

ثم قال : يا قوم ، نحن أقمنا هاهنا يومنا ، وقد ثقل على
أهل هذه القرية من جهة الأكل والعليق ، والرأى أن نرحل
الى قرية أم دينار (★) •

ثم أمر السلطان بالرحيل ، وقام من وقته وساعته ،
فقامت جميع الأمراء الذين بقوا معه من الأعيان ، وعلى
رأسهم شاربك والأمير قانصوه العادلى والأمير قانصوه كرت ،
والأمير تنمر نائب الاسكندرية ، والأمير دولتباى ، والأمير
أبرك رأس الجلبان ، وباقى الأمراء الذين تقدم ذكرهم •

(★) قرية أم دينار ، قرية قديمة من قرى مركز الجيزة ، يقال ان هاجر أم اسماعيل
عليه السلام من أهل هذه القرية ، وقد ذكر المقرئى أن هذا خلط بين أم دينار وأم دنين •

فما كانت غير ساعة حتى وصلوا الى أم دينار ، وتلقاهم
أهلها أحسن ملتقى ، وباتوا تلك الليلة .

فلما أصبح الصباح ، قدم عليهم خيال من أهل تلك
البلاد وهو يصيح بهم : الخيل قد أخذتكم .

فما استتم كلامه حتى أظلم البر من شدة الغبار وكثرة
الخيـل .

فلما لاح لهم ذلك الغبار ركبوا وخرجوا الى الحرب
والقتال ، فالتقوا من غير ترتيب اليمين والشمال .

والتقى الجمعان ، فوقع بينهم من الحرب ما يعجز عنه
الوصف ، فلله در الأمير شاربك وقانصوه العادلي ، وما فعلوا
هذا اليوم مع هذه الجموع ! .

وأما الأمير قيت الرحبى ، فانه تصادم مع قانبرى الغزالي
فى حومة الميدان ، فاقتتلا قتالا شديدا حتى تحيرت النظار
فيما وقع بينهما من الحرب ، ثم تقارب بعضهما من بعض
حتى تقابضا بالأطراف ، فلم يقدر قانبرى الغزالي أن يتتبع
قيت الرحبى من سرجه مع أنه رجل كبير السن فى عشرة
التسعين ، وقد قعد فى الحبس محبوسا سنين ، ومع ذلك لم
يتغير له لون .

فعلم الغزالي من نفسه الخسة ، ودخل عليه الجبن ،
وقال فى نفسه ، اذا كان هذا فعل هذا الشيخ الهرم ، فكيف
لو وقعت مع شاربك .

ثم انه شجع نفسه ، وأطلق الأمير قيت الرحبي ، تم بعد عنه ، واستعدل عليه بقنطاريته من وزاء ظهره ، فقلبه عن جواده ، وأراد أن ينزل ويقطع رأسه ، وإذا بفارس صرخ عليه صرخة أفلجته ، وطعنه في خاصرته طعنة قلبته عن جواده ، واثنتي ذلك الفارس راجعا الى الحرب والقتال ، فالتهى الغزالي بنفسه عن الأمير قيت الرحبي .

فبادر الأمير قيت الرحبي الى حصانه فركبه ، ودكس خلف ذلك الفارس الذى كشف عنه فاذا به الأمير شار بك ، فدعا له من صميم قلبه ، وأراد أن يكون معه فى القالب ، ومازال يشق الصفوف ويفرق الألوف حتى عجز وكل وبطل جواده ، وكلت سواعده .

فلما علم من جواده العجز التفت واثنتي راجعا حتى خرج من المعركة ، فوجد خيلا أقبلت من كبد البر ، لا يحيط بها الحصر ، واذا بهم عرب غزاة .

كان رسم لهم السلطان سليم أنهم يجتمعون مع العسكر هناك ، ويقاتلون الجراكسة ، فصادفوه على هذه الصفة ، وقد بطل حصاته ، فرشقوه بالحراب ، فمنع عنه اللبس ، فصادفه منهم سهم دخل فى فؤاده ، فوقع على وجه التراب ، فنزلت عليه النهاية فعروه وأخذوا ما كان عليه ، وقتلوه .

هذا ما كان من أمر الأمير قيت الرحبي .

وأما الغزالي ، فان مماليكه سارعوا اليه لما رماه شار بك وحملوه الى وراء حتى أدخلوه فى الوطاق ، وأسقوه السكر ، ووجدوا جرحه سليما .

وأما الأمير شار بك ، فلا زال يقاتل قتال الجبابرة
والفراغة حتى كل من تحته الجواد ، وتضاعف عليه الجراكسة
وزاد ، وطلعت عليهم العربان التي فى تلك البلاد ، وصاحت
عليهم المدافع والبنادق وملاّت القواد ، وفى كل رمى كانت
تنزل تلك البلاد .

فحضرت صفوف الروم كالبحر الزاخر ، وبقيت
الأحجار والرصاص نازلة كالأمطار ، وصارت المدافع
صائحة والحديد مع الأجساد والرءوس طائرة .

قال الراوى : كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع
خلى منهم مائتين فى الشام ، وجاء معه بمصر ستمائة ، منهم
مائة وخمسون مدفعا كبيرا ، والبقية ضربانات كان طول
كل واحدة منها خمسة وعشرين شبرا ، وكان يسحب كل
واحد من الصغار أربعة رءوس خيل ، وأما الكبار فكان
كل واحد يسحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل ، وكان كل
واحد منها مكسيا بجوخ أحمر .

ولما دخل مصر كان أول المدافع فى الريدانية وآخرهم
فى الخانقاه ، وكان أسكره كالنمل فى الوادى ، وكان على
يمينه خيالة راكبون ، كل واحد فى يده مزراق ، وفيهم
بيارق حمراء ، نحو عشرين أو خمسة وعشرين ألفا ، ومثل
ذلك على شماله ، كلهم خيالة بيارق صفراء ، وقدامهم من
اليكنجيرية نحو عشرين ألفا ، كل صف لا يعد ، وقدامه
صفوف بالأعلام والطبل خانات والوزراء والباشوات وكل
من جابهوه من الجراكسة يقطعونه قدامه ، وإن كان رجلا كبيرا
أو أميرا تبعوه مكتوفا الى السلطان سليم ، ويقطعون رأسه

قدامه ، وهو واقف فوق الحصان ، وقدامه مكشوف ، والسعاة قدامه بطاسات من ذهب ، نحو أربعمائة ، وفرقة في رءوسهم الريش الأبيض مشاة ، وفي أيديهم سهام يسمونها صولا ، فكلهم كانوا يقفون قدامه مربوطى الأيدي ، وهم ينظرون الى الأرض بأدب .

وفي رواية سبعة أعلام بأسماء أجداده ، مكتوب عليها أسماؤهم بالذهب ، وأربعة وعشرون علما باسم السلطان سليم ، وكان مكتوب في بعضها ، انا فتحتنا لك فتحا مبينا ، وفي بعضها ، نصر من الله وفتح قريب ، وكان معه علم أبيض أكبر من سائرهما ، سألت عنه ، فقالوا ، علم الاسلام .

ونرجع الى سياق الحديث ، وهم ، أى الجراكسة فى ذلك الحرب الشديد والقتل الميزيد اذ لاح لهم غبار حتى سد الأقطار ، فتنحى كل فريق عن الآخر حتى يروا ما تحت ذلك الغبار ، فما مكثوا غير ساعة حتى وصل أول الخيل وهم يتصايحون ، نحن فرسان غزاة ، ذوو الكفاء والكفالة ، اليوم ترون يا بنى جركس الموت الأحمر ، وتذوقون من سيوفنا الوبال الأكبر ، ويفنى جمعكم وتفرغ كثرتمكم ويقطع أصلكم وفرعكم .

وكان المتكلم بهذا الكلام أميرهم وكبيرهم سلام بن خبير وأخاه حمادا وهما كبراء القوم .

فقصد سلام بن خبير الأمير قانصوه كرت ، فوقع بينهما أنداب من الحرب تحير الناظرين ، وحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وأظهر فنونه وعجائبه .

وحملت فرسان غزالة على الجراكسة حملة واحدة ،
 وحملت الروم من الجانب الآخر ، وأخذوهم بواسطة ،
 فلا تسأل عما قاسوا من الحرب والظعن والضرب في ذلك
 اليوم .

فضايق سلام بن خبير الأمير قانصوه كرت حتى رماه
 البحر ، وما بقي معه سوى عشرين نفرا من مماليكه ، والذين
 مع سلام نحو الألف أو أكثر .

ولما وقع الأمير قانصوه كرت في البحر ثقل على الفرس
 من لبس الحديد ، وقد كان الفرس قد كل من الجرى ، فلم
 يقدر أن يمدى الى ذلك البر ، ففرق هو وفرسه وغالب
 مماليكه ، وذهب تحت الماء ، وما سلم منهم الا القليل .

فكان رحمه الله حسن السيرة والأخلاق ، وكان اذا رآه
 الانسان يقول تبارك الخلاق .

وأما سلام بن خبير ، فانه رجع على الجراكسة رجعة
 منكرة ، وهو ينادى ، بالأخذ الثار .

فوجد شاربك على ما هو عليه من الحرب الشديد ، فله
 دره من فارس الأعداء ، فارس في مائتي فارس ، يقاتل
 ألوا ، فوقعت الجراكسة في كفة النقصان .

فبينما هم كذلك وفي هذه الحالة واذا بعجاج قد ارتفع
 الغبار وثار من ناحية أرض وردان (★) ، وهم يصيحون

(★) ضيعة وردان ، ويذكرها على مبارك في خطه انها خربة وردان . وكانت قرية
 في حدود الجيزة ، وقد تخربت من زمن الفتح ، ويقال ان محلها هو المحل المعروف
 بحسينات وردان ، وان بها قبور جماعة من الصحابة .

بالنصرة لآل عثمان : اليوم يا بنى جركس ، نديقكم الهوان
ويحل بكم النقصان .

فنظروا اليهم واذا هم قانبردى الغزالي ومن معه قد
جاءوهم من جهة أخرى ، فبقيت الجراكسة لا يعرفون من
يقاتلون والى أين يذهبون .

قال صاحب الحديث : ان القوم لما وصلوا ضربوا لهم
ميدانا ، ثم ان الأمير قانبردى الغزالي المارق من أبناء جنسه
برز الى حومة الميدان ، ونادى بأعلى صوته ، يا آل جركس ،
نظرتم قوتكم وشوكتكم ، ونظرتم ما تكون ذولة آل عثمان
ودولتكم ، أين شجعانكم ، أين فرسانكم ، أين سلطانكم ؟
عرفتم مقداركم وندامتكم ، وأنا أحد غبيد الحضرة السلطان
سليم الملك العظيم ، صاحب القوة والجيش الكاسر ، منتشر
البعساكر ، قاصر القياصرة ، كاسر الأكاسرة ، قاتل الفراغة
والجبابرة ، أما معكم أحد من الشجعان يبرز الى الميدان .

فقال السلطان طوما نباى للخاصكى (★) الذى بين يديه :

— ابرز اليه .

فبرز من وقته ، ولما صار في الميدان قال له ذلك الفارس .
الذى هو قانبردى الغزالي :

— يا خاصكى ، ان روحك ضيقت عليك حتى جئت بها
الى الهلاك ، استغنم السلامة ، وارجع الى أهلك .

(★) الخاصكى واحد من الخاصكية وهم الذين يلازمون السلطان فى خلواته . ويسوقون
الحمل الشريف . ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفة والمتعينون
بالأجرة . والمتقربون فى الملكة ، وقد كان عدد الخاصكية فى أيام الملك الناصر محمد بن
تلاون أربعين خاصكيا ، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الملك الأشرف برسبهاء
مقدور ألف خاصكى ، ومنهم من كان صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة .

فقال له الخاصكى : وأنت من أين يا أنجس العرب ،
حتى تبهتنى بهذا الخطاب .

فان قانبردى الغزالى لما جاء فى هذه المرة لبس لبس
العرب ، وتكلم بكلامهم ، وتلثم حتى لا يعرف ، فما ظنه
الخاصكى الا بدويا من عرب غزالة .

ثم إن الخاصكى قام فى سرجه وطمعن طمعية بالمرآق
فخرج من يده كالبرق الخاطف ، فلما نظرها قانبردى الغزالى
جاءت قاصدة صدره ، انحرف لها فى ظهر الجواد وخطفها
من الهواء ، ثم صاح على الخاصكى : خذ جريبتك فانك تقتول
بها ، ثم هزها وطمعته بها . فقطس عنها الخاصكى ،
فصبر عليه حتى استوى على سرجه وعاجله بها قبل ان
ينظرها ، فوقع فى بحره ، فوقع على الأرض طريحا .

ثم ان قانبردى الغزالى جاء فى الميدان وطلب البراز .
كل ذلك ولم يعرفه الجراكسة وما يظنونونه الا بدويا من
الفرسان المجنورة ، فانهم لو عرفوه لرموا بأنفسهم عليه
جميعا ، وقطعوه بسيوفهم ، فانه أول من خانهم ، وأغرى
عليهم أعداءهم هو وخاير بك ، فانه لولا هذان الاثنان ما كان
السلطان سليم يتجول ويدخل أرض مصر مع أنه كان
لا يتنزل عليه بعد أخذه أرض مصر أنه يعمل باشا من
جانبه أحدا من الجراكسة ، ولا يعطى لأحد ذلك من أمراء
الجراكسة لتقدم اطاعته ، فانه كان له عزم وبأس وعظمة
وتكبر وتجبر ، وكان قهارا سفاكا للدماء ، ما كان يرحم فى
محل السياسة ، ولا يشفق على كبير ولا على صغير ، وكانت
همته اذا عاش ان يأخذ الربع المسكون من أيدي الملوك
المتنوعة ، ويصير هو سلطانا على جميعهم .

وكان سبب مجيئه الى مصر كثرة العناد كان حصل من
الأمراء ، وقتل الأولاد ، وعدم طاعته على السكة والخطبة
باسمه ، وكان معركه خاير بك ، ولكن لكل شيء آفة من
جنسه .

فان تيمورلنك لما خرج على الملك الناصر فرج بن
برقوق أخرب حلب والشام ، وأطلق فيهما النار بعد أن نهب
جميع ما فيهما ، ولا قدر أن يتجول ويدخل مصر . وفي
الحقيقة ان السلطان سليما زاد على تيمورلنك بهذه المدافع
والبنادق والضربانات التي اذا سيبوا منها طلقا تزلزل
الدنيا وترعب القلوب ، ولكن اذ أراد الله بأمره هيا أسبابه .

وترجع الى سياق الحديث ، فلزال قانبردى الغزالي تبرز
اليه الفرسان ، واحدا بعد واحد حتى قتل منهم عشرة ،
فهابته الفرسان وقالوا قد تعجبنا من هذا الانسان ، فما
عرفنا هل هو من الانس أم من الجن .

فقال لهم قانبردى : يا آل جرکس ، أريحوا أنفسكم ،
وأبرزوا الى سلطانكم طومانباي ، اما أن يقتلني واما أن
أقتله .

فلما سمع السلطان كلامه تعجب منه ، وقال : ألا تنظرون
الى قوة هذا الفارس واقدامه وشجاعته وكثرة كلامه ، فهل
فيكم من أحد يكفيني شره ؟!

فقال قلج : أنا يا مولانا السلطان .

فقال : ابرز اليه ، وخذ حذرك ، فاني أراه سريع
الحركات ، ولا يخلو أن يكون بطلا من الأبطال المجنورة ،

ولولا أن فرسى قد بطل لبرزت اليه ، ولا أظن أن فيكم أحدا
يقاس به فى فروسيته •

فقال له قلج : أنا أكفيك شره بعناية الله تعالى •

ثم برز اليه قلج ، وكان من الأمراء الأربعينات ، وقد
كان تعين له أن يصير أمير مائة مقدم ألف موضع الأمير كرتباى
الوالى ، ولو كان الأمير شاربك حاضرا فى ذلك الوقت ما
تركه يبرز الى هذا الفارس ، فانه كان من شدة محبته له
يفديه بنفسه فى كل أمر صعب •

وفى الحقيقة أن الجراكسة لو عرفوا أن هذا الفارس
هو قانبرىدى الغزالى ، ما برز اليه الا السلطان طومانباى
بنفسه أو الأمير شاربك ، فانهما يرجحان عليه فى الفروسية •

ثم نزل اليه الأمير قلج ، وحمل عليه ، فوقع بينهم من
الحرب آنداب حتى تعجب الناس من هذين الفارسين •

ثم ان الأمير قلج ضرب قانبرىدى ضربة على رأسه
بالسيف قطعت الخوذة ، ونزلت الى الرفادة والساتير فجرحته
جرحا خفيفا •

فضرب قانبرىدى الغزالى ضربة على يمين الأمير قلج
فأبراها كما تبرى القلم ، فوقعت الى الأرض هى والسيف •

فانبهت الأمير قلج واندهى (٧٩) وتخيل ، فهجم عليه
قانبرىدى وضربه ضربة أطاحت رأسه عن جسده •

فلما عاينت الجراكسة ذلك عسر عليهم قتل الأمير قليج ،
وقالوا ما يقايس هذا البطل الا الأمير شاربك أو السلطان
طومانباي .

ثم ان هذا الفارس جال في هذا الميدان يمينا وشمالا
وصار يعجب بنفسه ويتمايل على ظهر فرسه ، وصار يشتم
الجراكسة بالعربي ، ويقول لهم : يا لئام غير كرام ، من
يقاوم السلطان سليما ، أو يقاوى سلطانه أو يثبت بين يديه
يا كقار ، يا فجار . وأفحش في كلامه حتى أفحم قلوبهم ،
وكل ذلك ولم يعرفوا أنه قانبردى الغزالي .

وقال لهم : اذا كان سلطانكم يزعم أنه فارس أو يقاوم
الفرسان فليبرز الى حومة الميدان ، وينظر بنفسه ان كان
يرجح أو يقع في كفة الخسران .

فقال له السلطان طومانباي : هانت جئت الينا ، هات
ما عندك من فروسيتك وشجاعتك ، ولا تبق ممكنا ، فان
السلطان طومانباي قد تفرس في القتال وصار القتال
سجيته وصنعتة ، فما بقى يتكلف لشيء .

ثم ان السلطان طومانباي قال له :

— انظر يا أخا العرب ، لا أقاتلك ولا أحاربك حتى
أتكلم معك كلاما ، لعل أن يكون فيه صلاح .

فقال له : قل ما عندك .

فقال له السلطان طومانباي : أريد منك أن تخبرني
من أنت أولا ، وما الذي حملك على قتل فرسانى من غير أذية

سبقت منى اليك ، فانى والله ما أدركت نفسى ولا أعلم انى
 بقيت على أحد ولا ظلمت أحدا : ولا افتريت على أحد ،
 وما أمر سلطنتى هذه ، والله ثم والله لم يكن فى غرضى
 ولا خاطرى ، وانما الأمير علان والأمير كرتباى الوالى والأمير
 شاربك أبرموا على وقالوا ، لا نرضى لهذا الأمر الا أنت ،
 فعلمت أنه أمر ابتلانى الله به .

وأما هذا السلطان سليم الذى تدعى أنه ملك عادل ،
 وأنه لا يحب الجور ، كيف يجوز له أن يتعدى علينا ، أو يرمى
 علينا بالنار والمدافع ، ويقتل رجالنا ويسبى نساءنا
 وأولادنا ، ونحن مسلمون مؤمنون موحدون قائمون بحماية
 الدين ، فلما أن بغى علينا وتعدى حده وجب علينا أن نقاتل
 عن أنفسنا وأولادنا وحريمنا وأموالنا ، وفى ذلك إذن من الله
 تعالى ، كما قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وهو أصدق
 القائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
 عليكم » الآية (٨٠) .

ونحن فى الزمن الاول قدرنا عليهم مرارا وعفونا عنهم
 وهم الآن قدروا فما عفوا ، وملكوا فما رجعوا ، وفعلوا فىنا
 ما لم يفعلوه فى عبدة الأصنام والصليبان ، وهم جيرانهم
 ومحاذون لهم ، وأما نحن فانا مسلمون موحدون . فانى
 سألتك بالله تعالى ، وبمحمد رسوله صلى الله عليه وسلم أن
 تكون معنا ونكون نحن وأنت اخوانا من الآن ، أو تتركنا
 لا لنا ولا علينا ، ونحن نستعين بالله عليهم ، وتكفينا شرك .

وان اخترت الحرب والقتال فانى قاتلك الا ان عرفتنى
 بنفسك ، فانك قد قلت لا تريد الا أنا ، فهأنا قد جئتكم

بنفسى ، واكشف لثامك فانى متحير فيك ، وأشكل على
أمرك ، فلا أنت بدوى تعرف ولا جركسى تعرف ، وكلامك
لا يشابه كلام الروم ولا كلام العرب ، وانى أقسم عليك
بالله الذى خلقنى وخلقك الا ما أخبرتنى من أنت .

فكشف له اللثام فاذا هو قانبرىدى الغزالى .

فلما رآه السلطان طومانباى غاب عن صوابه من شدة
القهر ، وقال له : « يا ابن ألف قرنان (٨١) ، ونسل أولاد
الزنا ، يا خبيث يا ملعون يا ابن الملعون ، يا خائن يا ابن
الخائن ، ولهذا تبعث الخوان ، فان الذى ذهبت اليه وصرت
من حزبه شهرته الخيانة ، فان اسمه سليم خان ، لا كان .

وأنت أيضا قد عاهدتنا وختتنا وعاكستنا ، وأغريت
علينا أعداءنا ، فبالله العجب ، كيف طابت نفسك الخبيثة
بذلك ؟ ولكن صدق الله العظيم « الخبيثات للخبيثين » (٨٢) .
الآية .

ثم ان السلطان طومانباى حمل عليه حملة منكرة ، فما
ثبت بين يديه ، الا وقد طعنه السلطان طومانباى طعنة

(٨١) أى يا قواد أو معرص وهى كلمة وردت فى النص قبل ذلك ، وفى العامية
المصرية يوصف القواد حتى الآن بذى القرنين أو أبو قرون أو أبو قرنين . . . ومثل هذه
الألفاظ تكثر كثرة مذهلة فى مجتمع الممالك (العبيد البيض) ويرجع هذا الى أن
أصولهم لم تكن معروفة لديهم ، ولا لدى الشعب الذى يحكمونه ، فهم فى غالبيتهم قد
جلبوا صفارا ، وتم تدريبهم ، وتعليمهم ، وتدريب محل إقامة لهم فى معسكرات .
وينطبق هذا أيضا على مجتمع الانكشارية (الينكجارية) ، والاختلاف فقط فى العرق
لا فى طبيعة الاجتماع ، فممالك الدولة المملوكية الأولى فى غالبيتهم أتراك . وممالك
الدولة المملوكية الثانية فى غالبيتهم جركس ، أو شركس ، والانكشارية فى غالبيتهم دغشمة
وهى خريبة الدم التى كانت تؤخذ من أطفال البلقان .

(٨٢) سورة النور ، ٢٦ .

بقنطاريته قلبته عن ظهر فرسه ، ثم وضع القنطارية على صدره وأراد أن يقتله بها .

فقال له : انى سألتك بالله تعالى ، وتوسلت اليك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبسر شيخك سيدى أبى السعود الجارحى أن تجعلنى عتيقك فى هذا اليوم .

فلما سمع السلطان طومانباى ذلك القسم رق قلبه له ، وذلك من كمال ايمانه .

فقال له : على شرط أنك تكفينا شر هذا العدو الذى جئت به الينا ، وبشرط أنك لا تسحب فى وجه أحد من آل جركس سيفا .

فحلف له الغزالى على ذلك ، وقد شدد عليه فى الايمان .

فعند ذلك رفع السلطان القنطارية عن صدره ، وقال له : قم يا خبيث .

فقال الغزالى وهو ينفذ التراب عن رأسه ، وجاء الى رجل السلطان ، وقبلها فى الركاب ، ودعا له ، وهو يكاد أن يبكى ندما على ما فعل .

وسار الى فرسه وركبها وقال لجماعته : أرجعوا عن القتال ، فقد حلفت له انى لا أقاتله ، وانى واف له بالايمان ، ولكن أخاف اذا رجعت اليه يقتلنى ، وانى راجع من هنا الى محل آخر أقيم الحرب فيه ، وأغير الملبوس الذى رآنى لابسه .

وأما طومانباي ، فاني لم آر الا أن دولته قد زالت لأنه لو قتلني لاكتفى شري ، ولكنه قدر علي وعفا عني ، الى أن وصلت السكين الى العظم .

ثم أنه قصد نحو سنجق السلطان سليم ، وفي هذه الساعة وصلت العساكر التي جلاها السلطان سليم مع الوزير يونس باشا في مصر لما عدى الى بر الجيزة لقتال الأمير شاربك وطومانباي

وكان السبب في قدومهم ارسال مكاتيبه الى يونس باشا في الليلة الماضية ، يأمره يمدى الى بر انبابه بجميع جن معه من العساكر

ولما وصلت هذه العساكر في تلك الساعة الى السلطان سليم ، اشتد ظهره وقويت نفسه .

وأما السلطان طومانباي ، فانه لما عفا عن الغزالي ورجع الى سنجقه ، لم ير تحته الا جماعة قلائل من نماليكه ، وبقيّة الأمراء تشتتوا في الحرب والطعن والضرب ، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة ، فله درهم من فئة قليلة تقاتل هذه الجموع والعساكر التي لم يعلم لها أول من آخر !

فاندشت عقولهم وتحيروا في أمرهم .

فقال لهم الأمير شاربك والأمير قانصوه العادلي :

— يا آل جركس ، اثبتوا فان القتال ليس بكثرة العدد والمدد ، وانما هو بزيادة الصبر والجلد ، واقروا قوله تعالى : «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع

الصايرين ٠٠ « (٨٢) وهأنا أمامكم وفريد عصره السلطان
طومانباي - نصره الله تعالى - يرد عنكم ، فدونكم والحرب ،
ما دمنا في قيد الحياة ، فلا تخافوا من أحد ، ولا يغرركم
كثرتهم ، فاني وعزة الله تعالى لولا هذه النار التي معهم
لقاتلتهم بنفسى ، ولا اكثرث منهم أبدا ، فاني ما رأيت فيهم
فارسا أعجبنى كره وفره ، ليس لهم بأس الا بهذه المدافع
والبنديقيات ، وذلك لا يفيد منهم شيئا ، لأن كل انسان جعل
الله له عمرا لا يزيد بهروبه ولا بثباته ينقص ، وقال
العارفون ، الشجاعة صبر ساعة .

واذا هم يغبار قد ثار من جهة الميمنة فنظروا اليه ،
واذا بصياح آخر وغبار قد ظهر من جهة اليسرة ، ثم بصياح
وغبار قد ظهر من خلف أظهرهم .

فتحيرت الجراكسة في أنفسهم ، الى أين يذهبون .

وسبب ذلك أن قانبردى الغزالي لما رجع متهزما من
السلطان طومانباي الى السلطان سليم وأخبره بأنه صدمهم
وقتل منهم عشرة فوارس ، ولكن شاربك وطومانباي وقانصوه
الجادلى حجبوني عن مرادى ، فاخترت الرجوع اليك بشيء
أريد أن أفعله ، ففى ساعته نشيل الجراكسة .

فقال له السلطان سليم : وما هو يا أبأ منصور ؟

قال : تأمر اياس باشا أغا اليكنجيرية يذهب من جهة
وأنا أذهب بمن معى من جهة أخرى ، وتأمر يونس باشا أن

يأتى من جهة بمن معه من العساكر ، وأنت بمن معك من جهة أخرى ، ونطبق عليهم ، فانهم فئة قليلة ، ما يشبتون معنا ولا ساعة واحدة .

فقال السلطان سليم : نعم الرأى !

ثم أمر بما أشار به قانبردى الغزالى .

فما مضى غير ساعة حتى تفرقوا كما تقدم ، ثم أحاطوا بالجراكسة من كل جهة .

وجاءت عرب غزاة من جهة أخرى .

والسلطان طومانباى ، والأمير شاربك ، والأمير قانصوه ، والأمير يحيى بن أزبك ، والأمير أبرك رأس الجلبان ، والأمير دولتباى ، والأمير رزمك الناشف .

انظر ما فعل هؤلاء الفرسان القليلة فى هذه الألوف المولفة والجموع التى لا تحصى من الكثرة من كل جنس .

فصارت هذه الأمراء المذكورون متحدين ، الركاب فى الركاب لا يفارق بعضهم بعضا ، وبقية العساكر لا يذرون أين يذهبون ، ولا من يقاتلون . وما قتل من الجراكسة أحد بالسيف والعود ، وإنما كان القتل فيهم بالبندق .

وأما الأمراء المذكورون فلم يخرج منهم أحد . . .

وفى هذا اليوم قتل من الجراكسة أكثر من كل يوم بهذه العملة التى عملها قانبردى الغزالى ، وغالب القتل

ما كان الا بالبندق والضربانات وآلات النيران على سائر
الصنوف .

وتم النهار ، ونادى منادى الحرب بالانفصال ، وافترقوا
على هذا الحال ، وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ، ورجعوا
وهم لا يعرفون بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول
ذلك اليوم ، وليس الخبر كالميان .

قال الراوى : ونزل السلطان طومانباى على قرية
وردان (٨٤) ، ونزل السلطان سليم على قرية أسفل منها
على شاطئ النيل السعيد ، بحيث ان كل عسكر منهم ينظر
الآخر رأى العين ، وباتوا تلك الليلة فى أسوأ الأحوال من
شدة ما حصل لهم من القتال .

ثم جلسوا بعد ما أكلوا الطعام جاء لهم من تلك القرية
التي باتوا بها ، وأخذوا فى ضرب الرأى .

فقال لهم السلطان طومانباى ، والله يا اخوانى ، ما أظن
الا أن دولتنا قد زالت ، فأننى أرى أننا كلما فعلنا شيئا
نريد أن تكون فيه المصلحة فما يكون أمرنا فيه الا بضد ما
نريد ، وأرى أن أعداءنا أمرهم يزيد ، فكم قتلنا منهم من
ألف ، ومع ذلك أرى الأمر كلما له يزيد (٨٥) ، وأن الغالب
على ظنى زوال ملكنا . وأن الظفر لعدونا ، وانظروا قول
القائل :

ان أقبل السعد قم قائما واقتبس من الثلج أن شئت نارا
وان رقد السعد فارقد له فما الثلج فى العكس الا خسارا

(٨٤) فى محافظة الجيزة الآن

(٨٥) المعنى : كل مادة يزيد

ثم ان السلطان طومانباي قال لهم :

— يا قوم ، ان هذه الواقعة أضرت بنا وهدمت قوتنا بفقد الأمير قانصوه كرت ، فانه كان ركنا ، ولا بقى لنا رأى الا أن نذهب الى حسن بن مرعى وابن عمه صقر ، شيوخ عرب محارب ، فاني قد وليتهم عليهم ، وأطلقت حسن بن مرعى من الحبس بعد أن كان المرحوم السلطان الغورى كتب على قيده «مخلد» ، وقد أطلقته لما أن صار الأمر لى ، وأخذت عليه اليهود والمواثيق والأيمان المغلظة أن يكون معى ظاهرا وباطنا ، ويقوم معى بالقلب والقلب اذا احتاج الأمر لذلك ، وما ترضى أحسن من سيرنا اليه ونكون نحن وهو على قلب رجل واحد ، ثم بعد ذلك ندبر أمرنا وننظر ما يكون من جانب الله تعالى ، وهو يعلم أنهم باغون علينا .

ثم انه أمر بالرحيل من وقته ، وكان ذلك الوقت نصف الليل .

فقال له بعضهم : فان قام العدو علينا فى هذا الليل ، فكيف يكون الأمر ؟

فقال له السلطان : هل رأيت أو سمعت أن الروم تقاتل ليلا ، فهذا الأمر لا يكون ، وانما اعتماد هؤلاء القوم على النار ، والرماة مشاة لا يقدرّون على المشى بالليل .

فما كانت الا ساعة حتى ركبوا وساروا من وقتهم وهم مستيقظون لأنفسهم حتى وصلوا الى مدينة سخا (★) .

(★) سخا ، بلد من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وكانت كورة ، وقصبة لكورة الغربية فى عهد الدولة الأيوبية وكان بها دار الوالى واليهما ينسب الامام الشيخ على السخاوى المقرئ النحوى اللغوى — والحافظ الشهير محمد شمس الدين السخاوى صاحب كتاب المسود اللامع فى أهل القرن التاسع .

وكان حسن مرعى وابن عمه شكر قباطين بها ، وعربهم منتشرين بها الى سنهور (★) ، فنظروا الى خيل طومانباي وقد أقبلت ، فبادروا الى خيلهم ، فركبت الفرسان وسادات القبيلة ، وركب الأمير حسن بن مرعى أمير العرب والحاكم على تلك البلاد حتى قارب عسكر السلطان ، فترجل عن جواده هو وأولاد عمه وعشيرته .

ثم قدم عليه السلطان ، وقدم هو على السلطان ، فقبل يديه وطلب من السلطان أن ينزل الى منزله للضيافة .

فقال له السلطان : ما نحن فاضون للضيافة ولا لغيرها ، والعدو في أثرنا ، وقامت علينا العربان من عرب غزالة ، لا لقاها الله خيرا ، خصوصا سلام بن خبير ، لا سلمه الله تعالى ، وما جئت لك الا لتنظر لنا محلا نحتسئ فيه ، ثم ندبر أمرنا فيما فيه الصلاح لنا .

فقال له الأمير حسن : اذا كان الأمر كذلك ، أنا أعرف لكم محلا ، يقال له الغابة ، وهو واد كبير واسع ، وافر المياه ، اذا تحصن فيه القوم ووقف على يابه رجل واحد منع من يدخل ولو كثرت ألوف من الناس ، فان هذا الوادي لا يمكن أن يدخله غير فارس ، ولا يمكن أن يدخل منه اثنان متساويان ، لأنه ضيق جدا ، ومن الجانبين أرض ربو سبخة ، كل من زل بقدمه وداس عليها صاغت به (٨٦) ، وهذا الوادي هو

(★) سنهور بلد من محافظة الغربية واقعة في غربى التربة بالقرب من دسوق ، وقد ذكر ابن اياس أن حسن بن مرعى وابن عمه شكر مشايخ عرب البحيرة ، وأن طومانباي توجه الى ضيعة تسمى تروجة بالغربية فلاقاه حسن بن مرعى ، وهو تناقض ظاهر في رواية واحدة لابن اياس .

(٨٦) المعنى : صاغت به أى غاص بها .

قلمتنا اذا قصدنا أحد من أعدائنا ، وعلمنا أنه لا قدرة لنا عليه نذهب الى هذا الوادى فنأمن على أنفسنا منه ، فما لكم أيها السلطان أعدل منه ولا أحسن منه .

فقال له السلطان : اركب وسر بنا على بركة الله اليه ، لعل الله أن يحفظنا به ، ونتحصن ، وما يكون الا ما يريد الله .

فساروا من وقتهم حتى وصلوا الى قم الوادى الذى يدخل منه اليه .

فلما رآه السلطان وقف وغطس قلبه ، وانقبض خاطره وأحس بقلبه انه لا يحصل له من هذا الوادى خير أبدا ، فحبس فرسه ووقف مكانه ، وتحير فى أمره ، والتفت الى أمراء دولته ، وقال لهم :

— انى مخبركم بمنام رأيت من مدة يومين رأيت نفسى انى فى هذا الوادى بعينه ، وأنا على جانب البحر المالح ، وقد قامت فرتينة عظيمة ، وأظلمت الدنيا ولا بقى أحد مع أحد ، واذا بخمسة كلاب سود قد أحاطت بى ، وأرادت أن تفترسنى ، فجذبت سيفى وأردت أن أضربهم به ، واذا به قد طار من يدي ، وسقطت عمامتى ، ودقت الكلاب على وقبضونى ، فصرت بينهم كقطعة لحم ، كل واحد ينتشنى من ناحية فأيست من نفسى ، فانتبهت مرعوبا ، وقد عمى العرق .

فلما سمع منه الأمراء هذا المنام تشوشت خواطرهم ، وقال بعضهم :

— ان هذه الرؤيا لا تدل على خير ، وأن هذا مما يدل على أن الظفر لعدونا ، والنصرة له علينا ، فان وقسوع

العمامة يدل على زوال المنصب ، وأما قيام البحر فانه قيام هذا السلطان علينا ، وأما عدم السيف فانه يدل على عدم القوة ، وأما الكلاب فانهم رعوس الأعداء يقبضون عليك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فان صحت هذه الرؤيا فقد والله زالت دولتنا وانقضت مدتنا .

فقال لهم السلطان : ما بقى لنا حيلة نحتال بها ولا منعة نستعين بها ، قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا وتثلمت سيوفنا ، وقد قامت الدنيا كلها علينا ، فما عسى أن تصنع .

وأما أنا فقد أردت أن أسلم نفسي ، فان كان قد بقى فى عمري بقية فانهم يعطونى الأمان ، وان كان قد فرغ فان كنت على فراشى فانى أموت .

وأما أنتم يا أغوات فقد حاللتكم (٨٧) ، فليذهب كل واحد منكم فى ناحية الى حيث شاء وأراد .

فلما طال الوقوف قال الأمير حسن بن مرعى :

— يا مولانا ، انى أخاف عليكم ، ربما أن يكون العدو قريبا منكم ، فيعسر عليكم الدخول من مضيق فم الوادى ، فادخلوا بنا على بركة الله تعالى ، ثم بعد ذلك اجلسوا واستريحوا ودبروا أمركم كيف تختارون .

قال الناقل : فدخل السلطان طوماتباى من باب الوادى ، ودخل وراءه الأمراء والأجناد .

(٨٧) أى احلتكم من أى ارتباط أو عهد . يقال أحله من وعده أى تنازل له عنه .

فَقَالَتِ الْأَمْرَاءُ . نَحْنُ مَعَكَ لَا نَفَارِقُكَ حَتَّى تَذْهَبَ
أَرْوَاحُنَا .

فَلَا زَالَ بِهِمْ حَسَنُ بْنُ مَرْعَى حَتَّى أَوْصَلَهُمْ إِلَى صَدْرِ
الْوَادِي .

فَضَرَبُوا لِلسُّلْطَانِ خِيْمَةً عَلَى تَلٍ عَالٍ عَلَى جَانِبِ الْبَحْرِ
الْمَالِحِ ، وَنَزَلَتْ بَقِيَّةُ الْأَمْرَاءِ فِي خِيْمَتِهِمْ ، فَمَا هَدَأَتْ نَفُوسَهُمْ
حَتَّى جَاءُوا لِلسُّلْطَانِ لَضَرْبِ الرَّأْيِ (٨٨) .

وَأَمَّا حَسَنُ بْنُ مَرْعَى ، فَإِنَّهُ أَخَذَ أَذْنَا مِنَ السُّلْطَانِ لِيَرْجِعَ
إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَأْخُذَ لَهُمُ الْأَخْبَارَ ، وَيُرْسِلَ لَهُمْ يَعْلَمُهُمْ بِمَا يَقَعُ
بِالتَّفْصِيلِ .

فَإِذْنٌ لَهُ السُّلْطَانُ فِي ذَلِكَ ، وَدَعَا لَهُ .

ثُمَّ قَالَ السُّلْطَانُ لِأَمْرَائِهِ : هَذَا الْوَادِي خَيْرٌ لَنَا مِنْ
قَلْعَتِنَا الَّتِي كُنَّا بِهَا مَا لَمْ يَخْنَأَ حَسَنُ بْنُ مَرْعَى .

فَقَالَتِ الْأَمْرَاءُ كُلُّهُمْ عَلَى لِسَانٍ وَاحِدٍ : اللَّهُ يَخُونُ الْخَائِنَ .

ثُمَّ رَجَعَ حَسَنٌ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَسَأَلَتْهُ أُمُّهُ عَنِ السُّلْطَانِ
طَوْلِهَا نَبَايَ .

فَقَالَ لَهَا : قَدْ أَدْخَلْتَهُ فِي غَايَةِ الْوَادِي ، وَهَآنَا قَدْ
رَجَعَتْ .

فقالت له أمه : فما تحب أن تصنع ؟ أخبرنى بما فى ضميرك .

فقال لها : ان هؤلاء القوم دولتهم قد ولت ، وأمورهم قد حالت ، ولا سيما وعدوهم قد ملك البلاد وحكم العباد ، وولى وعزل من أراد ، وهؤلاء ما عاد لهم من الأمر الى ظهور خيلهم ، وقد تحيرت فى أمرى ، فان قاتلت عنهم فلا قدرة لى على ذلك ، وان قاتلت معهم أوقعت نفسى فى المهالك .

فقالت له أمه ، وكانت من الصالحات : يا ولدى ، الأيمان والعهود التى قد حلفتها أنت وابن عمك له ما تقول فيها ؟

فقال لها : ولهذا أنا متحير فى نفسى ، كيف أصنع .

فهو فى هذا الكلام مع والدته واذا بفرسان القبيلة قد جاءوا مسرعين ، وقد علت أصواتهم ، وهم ينادون : اركب يا أمير حسن ، فاننا ننظر عسكرا جرارا وخيلا ملأت الأقطار .

فركب حسن بن مرعى وسار فى أول الخيل حتى اجتمع بأوائل العسكر القادمين ، واذا بهم عسكر السلطان سليم ، قد جاءوا فى طلب السلطان طومانباى .

والسبب فى ذلك أن السلطان طومانباى لما ركب فى الليل كما تقدم ولم يتبعه أحد ، وطلع النهار ، جلس السلطان سليم وحوله أكابر دولته ، وجاء الأمير خاير بك ، ولم يأت الأمير قانبردى الغزالى ، فسأل عنه السلطان سليم ، ف قيل

له ، انه ركب نصف الليل ومعه خمسة أنفار من مساليكه .
وتبع السلطان طومانباى ، فهو الى الآن لم يأت .

فخاف عليه السلطان سليم ، وقال لخاير بك :

— انظر الى قلة عقل صاحبك ، كيف يخاطر بنفسه .
فانهم ان فطنوا به لا يتجو منهم أبدا ، وانه ان قتل تعطل
أمرنا .

وخشى السلطان أن يطول عليه الأمر ، وحسب حساب
الاعادى التى حول مملكته .

قال : فما رأى عندكم ؟

قالوا : رأى ما يراه الخنكار (٨٩) .

وأطرق رأسه مفكرا فيما يصنع .

واذا بقانبرى الغزالى قد أقبل .

فلما حضر بين يدى السلطان سليم قال له :

— أين كنت يا قنبرى ؟

قال : يا مولانا السلطان ، انى لما رحل طومانباى
نصف الليل أحببت أن أنظر الى أين يذهب ، فركبت ، وتبعتهم
على بعد خشية أن يدروا بى ، فرأيتهم قد سافروا الى ناحية
البحيرة أو الغربية .

فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام قال له : فما رأى

عندك ؟

(٨٩) أى السعيد الموفق ، أو الملك العظيم — محمد السعيد سليمان ، مرجع سهق
نكره ، ص ٩٠ .

قال : الراى عندى أن تعطينى ما أريد من العسكر ،
ويكون صحبتى الأمير خاير بك وأرح نفسك ، فانى أرجو
ألا أرجع الا به أو برأسه •

فقال له السلطان : العسكر بين يديك ، خذ ما شئت
منهم •

• فاختر أن يكون اياس آغا آغاة اليكنجرية بأربعة آلاف
معه ، وخاير بك بأربعة آلاف خيال •

فأمر السلطان بذلك •

ففى الوقت برزت هذه العساكر ، وأمر على العساكر
خرهاد باشا ، يكون سردارا عليهم ، والأمير خاير بك ،
والغزالي يكونان تحت يده ، ويتقيدون برأيه •

فساروا فى أثر السلطان طومانباى ، وهم يسألون من
أهل البلاد ، حتى نزلوا على قبيلة محارب ، وخرج لهم حسن
ابن مرعى كما تقدم • فلما اجتمع بهم قالوا له :

— انا مائرون فى طلب السلطان طومانباى ، هل سمعت
عنه خبرا ؟ الى أين يذهب ؟

فقال لهم : الذى يدلکم عليه ويسلمه لکم من غير حرب
ولا قتال ، ماذا يكون له عندکم ؟

فقالوا له : ان أردت شارطناك على مهما تريد ، وان
جعلت الأمر لنا ولسلطاننا ولمروءتنا فيكون الذى يحصل لك
أكثر مما تؤمل أنت •

فقال لهم : على تسليمه لكم ، وأجعل الأمر بمروءتكم .

فضمن له الوزير فرهاد باشا أن يقدمه عند السلطان على جميع مشايخ العرب ، وأن يقطع أرضه اقطاعا الى أن يموت ، لا يؤخذ منه الدرهم الواحد .

ثم ان الوزير فرهاد باشا خلع عليه قفطانا مذهبا من الخلع السلطانية ، وخلع أيضا على ابن عمه شكر ، ووعدهم بكل خير .

ثم خرج حسن بن مرعى - وابن عمه وهما فرحانان - حتى دخل على والدته .

فقالت له : ما هذه الخلعة ، ومن أين جاءتك ؟

فأخبرها بما وقع له ، وأنه التزم لهم أن يسلمهم السلطان طومانباى .

فقالت له : أنسيت ما فعله معك السلطان طومانباى ؟ قد أطلقك من الحبس ، وأمنك بعد الخوف ، وحلفت له الأيمان بأنك ما تخونه ، فكان جزاؤه منك أن تسلمه لعدوه ، وتظن أنك اذا فعلت تلقى خيرا بعده ، والله لئن فعلت ذلك لأغضبن عليك غضبة تكون سببا لهلاكك .

فقال لها : فما الذى أفعله وقد رهنت لسانى معهم بأنى أسلمه لهم ، واذا لم أفعل ذلك ما سلمت من شرهم ، وربما يبطشون بى فلا ينفعنى لا أنت ولا هو .

فقالت له : ان انراى الصواب أن ترسل فارسا للسلطان طومانباى وتخبره بما وقع ، وأنه يكون على أهبة ، ان شاء

حاربهم وان شاء هرب الى جهة أخرى ، وأما أنت فارجع اليهم فشاغلهم الى أن يطيب الطعام • فبينما يأكلون يكون طومانباى قد عدى بلادا بعيدة ، أو يكون قد تهيأ للحرب فتخلص أنت من الجهتين •

فوافقها على ذلك ، وخرج من عندها ، وهو متردد كيف يصنع ، ويقول لنفسه ، أين عقلك ؟ تقتدى بكلام النساء الناقصات العقل والدين ، وتترك ما يحصل لك من السلطان سليم من العز والجاه والفخر بين العربان بسبب من غدرت به الأيام والليالي ، وفاتت دولته ، وانقضت مدته ، وإذا لم أمسكه أنا مسكه غيرى وفاز بالفخر والعز ، فليس هذا من الصواب فى شيء •

ثم انه اجتمع بابن عمه شكر ، وأخبره بما قالت له أمه •

فقال له شكر : وهل عاقل يبيع عاجله بأجله ، ولا تمل الى الكفة الناقصة فيحصل لك الخسران •

فاتفقوا على أن يكونوا مع السلطان سليم •

وأما السلطان طومانباى فقال لأمرائه : انى أريد أن أخبركم بما رأيتم فى هذه الليلة ، رأيتم أن قائلا يقول لى ، رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام ، ويقول لك ، ان دولتكم قد زالت ، وعمركم قد فرغ ، وأنت جارنا فى الجنة بعد أربعة أيام ، ارجع عن القتال ، فلا فائدة لك فيه ، وأنا قد عزمت على رمى سيفى فى هذا البحر المالح •

وقال لهم ، كل واحد منكم يذهب الى حيث اراد وهذا
آخر اجتماعنا فى الدنيا ، والقيامة تجمعنا فى الآخرة .

قال الناقل : فبينما هم فى هذا الكلام الا وقد رأوا
الخيال قد أقبلت عليهم من بعيد .

فقامت الأمراء كلهم على ساق ، وركب الأمير شاريك
وبقية الأمراء وأتباعهم وحطوا على عدوهم بقلوب كالحديد ،
لكن العدو كثير ، وهم طائفة قليلة ، لكنهم فرسان عارفون
بركوب الخيل ، وأولئك كثير غير عارفين بذلك ، لكن
اعتمادهم الاقوى على الرماية بالبندق والضربانات .

فلما رأهم الغزالي حطوا (٩٠) عليهم قال للعسكر :

فسحوا لهم طريقا حيث ان طومانباى ليس هو معهم .

فصار من عسكر الروم الذى يقرب على الجراكسة
يقطعونهم بالسيوف الى أن وصلوا الى آخر الجراكسة ، وهرب
بعضهم من مضيق الغابة الى خارج .

وأما قانصوه العادلى ، فانه ذهب الى أصهاره من عرب
قطارة ، وكان معهم نحو ألفى فارس راكبة مع القبائل التى
جاءت لنصرة السلطان طومانباى .

فلما رأوه ترك الحرب وفعل بنفسه هذه الفعال ، تركوه
وأخذوا صهرهم ورجعوا ، وصحبهم سيدى يحيى ابن الأمير

أزبك وطلعوا من مضيق الغابة قبل وصول العسكر مع
الذين هربوا .

وأما شاربك الأعور فإنه خرج قبل وصول العسكر ،
وتبعه اثنان من مماليكه ، وكان بينه وبين الأمير أحمد بن
بقر شيخ العرب صعبة أكيدة ، بحيث ان الأمير أحمد هذا
إذا كانت مصلحة في مصر ما كان ينزل الا عند الأمير شاربك ،
فيقوم به الأمير شاربك خير قيام ، ويكرمه غاية الاكرام ،
وليس الخبر كالعيان ، وكان يقضى له جميع مصالحه من
جانب السلطنة ، ويقوم يناصره على أعدائه ، حتى ان الناس
كانت تقول، لولا الأمير شاربك مع الأمير أحمد بن بقر (٩١)
ما كان له حال ، وكانوا يتعجبون من محبته له واکرامه ،
وقيامه بشأنه ، ويحسدونه على ذلك غاية الحسد ، حتى ان
الأمير شاربك كان يقول له : يا أمير أحمد ، طول ما رأى
تميش لا تحمل هما أبدا ، ولا تحسب حساب أحد ولا السلطان
الكبير ، فان الأمير شاربك كان يحسب حساب أقرانه لئلا
يسعوا في هلاكه ، فإنه كان فريد عصره في الفروسية
وركوب الخيل ، وكان اذا ركب ونزل في الميدان عند لعب
الجريد مع الأمراء . تحير النظار ولم يقدر أحد يقبل عليه .

وكان من شدة محبته اذا حصل له مضايقة من السلطان
أو من أحد من الأمراء الأعيان . يذهب الى صديقه أحمد بن
(بقر) ويدبر أمره .

ولما كان من أمر السلطان طومانباي ما كان من تركه
القتال ، وتسليم نفسه للعدو ، وخرج الأمير شاربك من

الغاية ، قال فى نفسه ، ما لى بد من أن أسير الى صاحبى الأمير أحمد بن بقر (بقار) ، وأنزل عنده حتى أدبر نفسى فيما أفعل ، أما انى أسافر الى بلاد العجم وأكون مع سلطانهم أو أسافر الى بلاد اليمن ، ولله التدبير فيما يريد .

والشاعر يقول :

تعذر من صديقك كل يوم وبالأسرار لا تركز اليه
سلمت من العدو فما دهانى سوى من كان معتمدى عليه
فما زال سائرا من بلد ، والدنيا قائمة على ساق ،
والعربان هاجت ، وصار كل مفعول جائزا ، وكل من كان له
عدو قصده فان ظفر به قتله ، والناس مرتابون فى بعضهم
فى أشد ما يكون ، حتى وصل الى النيل السعيد ، وعدى منه
الى الشرقية ، ثم سار الى أن وصل الى الأمير أحمد بن بقر
(بقار) آخر النهار وحده فى منية غمر (★) .

فرحب به وأنزله فى بيته ، وأكرمه غاية الاكرام ،
ثم حكى للأمير أحمد بما وقع لهم مع عدوهم من الأول الى
الآخر ، فكلهم تعجبوا من السلطان طومانباى لأنه أخطأ فى
هذه الفعلة التى فعلها ، وتسليم نفعه لأعدائه ، يستحكمون
فيه كيف شاءوا ، وكيف يرى الهوان بعد العز ، وكان
يقاتل الى أن يقتل ولا يسلم نفسه ، فانهم لا يبقون عليه
أبدا ، وتبقى الاهانة والذل والشماتة من الأعداء أقبح
وأتعس .

فقال الأمير شاربك : قد تم الأمر ، وذهبت دولتنا ،
وما بقى كلام الا التدبير فى المسير من هذه البلاد .

(★) منية غمر : السعاة الآن بميت غمر .

وقصد أن يرسل بحريمه وولده ، ويخرج ليقتصد
بلاداً غير هذه البلاد .

فقال له الأمير أحمد بن بقر (بقار) : يا أمير ، قال
العارفون ، من تأنى نال ما يتمنى ، اصبر حتى ننظر ما يتم
الأمر عليه .

فقال له الأمير شاربك : أين عقلك ؟ حيث ان السلطان
طومانباي سلم نفسه لعدوه ، هل بقي لك بعد ذلك شيء ؟
في غد تأتيك الأخبار بأنه صلب على باب زويلة ، أو علقت
رأسه عليها .

هذا ما جرى للأمير شاربك .

وأما السلطان طومانباي فانه بقي وحيداً فريداً ، وقد
رمى بجميع عدته وسلاحه وملبوسه في البحر المالح حتى
المصباح الغولاذ الذي ليس له نظير في الدنيا ، والقنطارية
المفردة ، حتى الطير الجناح الذي لم يسمح الزمان بمثله ،
فانه كان صاعقة من الصواعق ، لا يضرب به على حديد
الا قطعه ، ولا على حجر الا فلقه ، فكان من تحف الملوك
القدماء .

فعند ذلك حطمت (حطت) عليه العساكر ، يتقدمهم
اياس أغا أغاة اليكنجيرية ، وخايز بك والغزالي وجسن بن
مرعى ، فاقتضى رأيهم أن يقبضوا عليه حياً ، ويأتوا به
للسلطان سليم يفعل به ما يحب ويختار .

ثم أمروا جميع العسكر أن يغمدوا سيوفهم ، فانه قد
رمى سلاحه ولا بقي معه أحد يقاتل عنه .

ففعل الجراكسة كما أمروا ، وعسكر السلطان سليم
كذلك .

ثم حلقوا (٩٢) عليه من كل جانب ، وصار بينهم
كالسبع .

فعند ذلك نزل اياس والغزالي وخاير بك وجاءوا اليه .

فقال له اياس أغا : الأمر أمر الله تعالى ، فقم يا مولانا
السلطان ، اجعل يدك اليمنى فوق اليسرى ، ولا تؤاخذنا
فى ذلك يا مولانا .

وربطوهما من قدام ، وأوثقوهما ، فان الأعيان
لا يكتفون الا من قدام .

ثم قدموا له بغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت
بطنها ، وأحاطت به اليكنجيرية وبقية العسكر ، وجدوا فى
السير ، كأنهم وقعوا بفريسة عظيمة أو لقية ، ولو أمكنهم
أن يطيروا به لطاروا .

فأخذ يتكلم مع اليكنجيرية ، فسألهم عن حالهم وعن قدر
جوامكهم .

فقالوا له : لكل واحد منا ستة عثمانة الى عشرة عثمانة .

فقال لهم : أنتم جئتم من بلادكم الى هنا لأجل ذلك ؟؟
فقالوا : نعم .

فقال لهم : بارك الله فيكم ، وبهذا قد غلبنا سلطانكم لطاعتكم له على هذا القدر اليسير ، والله ان جامكية أحدكم لا تكفى أن تكون جامكية سيايس من سيايسنا ، فوالله ثم والله لو تكونوا عسكري لجعلت لكل واحد منكم ديناراً في كل يوم .

فقال بعضهم لبعض : ما الرأي ؟ نطلق هذا الرجل ، ونكون أعواناً له ، ونأخذ ديناراً في كل يوم ، ونصير عنده في أعز ما يكون . . ؟

فمنهم من استصوب ذلك الكلام ومال اليه ، ومنهم من قال ، لا يفرنكم هذا الكلام ، فانه ما قال لكم ذلك الا لما رأى نفسه وقع في أيديكم ، وهل يكون هذا قط أن يصير لكل واحد منا دينار في كل يوم ؟

فوقع فيهم الهرج .

وما زالوا سائرين به حتى وصلوا الى أوطاق السلطان سليم ، وكانوا قد أرسلوا أولاً (٩٣) وقت قبضهم عليه يبشر السلطان بأنهم مسكوه مسكاً باليد ، وأعلموه كيف كان قبضهم عليه ، وأن شيخ العرب حسن بن مرعى هو الذى كان سبباً فى ذلك ، لأنه ما دلهم على موضعه الا حسن هذا وأنه حسن له عبارة دخوله فى هذا الوادى ، وحبس فيه ، وأنه يستحق كل خير ، فانه لولا حسن هذا ما عرفنا له موضعاً .

(٩٣) الاوشاق أو الاوجاق أحد خدم السلطان ممن يركبون الخيل - عاشور - مرجع

وذكروا للسلطان جميع ما وقع ، وأنهم قادمون به
بالقيد والبند ، بعد ان كان قد رمى سلاحه في البحر المالح ،
وسلم نفسه بالأمان وقد تشتت جميع عساكره ، ومسكنهم
باليد ، وهو واقف على جبل عال بمفرده .

ففرح السلطان بذلك غاية الفرح ، وقال :

— الآن ملكنا ملك مصر .

فما تم الكلام الا وقد أقبلت العساكر ولهم
ضجيج عظيم .

فقام أوطاق السلطان على ساق ، حتى ان السلطان
ارتاب من ذلك ، وظن أن العدو قد هجم على أوطاقه .

فقالوا له : البشارة ، هذا اياس أغا وخاير بك والغزالي
قد جاءوا بغريمك .

فلما وصلوا الى خيمة السلطان سليم ، خرج لهم الوزير
الأعظم يونس باشا ، وأمرهم أن ينزلوا السلطان طومانيا ،
وأخبروه بالواقعة من أولها الى آخرها ، وأنه لولا الشيخ
حسن بن مرعي هذا ما كنا عرفنا له طريقا .

فشكره السلطان على ذلك ، ووعد به بكل خير .

فلما أصبح الله تعالى بالصباح ، أمر السلطان أن يعمل
الديوان ، وأظهر ما عنده من الزينة الملوكية . ورتبوا له
أحسن ترتيب ، وحضر جميع العساكر ، ووقفوا بين يديه
على حسب مراتبهم ، وأوكب موكبا عظيما ، ووقف

اليكنجارية صفوفًا على أحسن ترتيب ، وكذلك المدافع في ناحية العسكر صفوفًا ، وجهزوا النار ، وهم منتظرون أمر السلطان أن يطلقوا عليهم وعلى البنادق نارا وتندق الكامات والطبلخانات التي للسلطان والتي للوزراء والباشات والأمراء .

ثم أمر باحضار السلطان طومانباي والأمير حسن بن مرعى .

فلما حضر السلطان طومانباي أدخلوه من بين هذه العساكر ، ورأى نظام العثمانية في أحسن ما يكون ، ونظر هذه العساكر وهذا الترتيب الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت .

ولما دخلوا به على السلطان سليم خان سلم عليه بسلام الملوك .

فرد عليه السلطان سليم كما يجب ، ولم ينقص مقامه في سلامه .

ثم وقف طومانباي ، فأمره بالجلوس ، فجلس وهو في غاية الندم ، وقال :

— انى كنت طيرا طائرا ، وكانت الأرض واسعة
أذهب الى حيث أريد وأختار ، فسلمت روحى لعدوى ييدى ،
بئس ما كانت فعلة فعلتها أوجبت لى الهم والذلة ! كل ذلك
خطر فى نفسه ، وهو جالس لا يتكلم ولا أحد يتكلم ،
ولا يرفع صوته ولا رأسه .

فنظروا السلطان سليم ، وتأمله بعين الفراسة . فوجد فيه كل شيء يشهد له بالشجاعة والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه .

فتعجب السلطان سليم فيه ، كيف سلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شيء فيه يشهد بأنه جبان أبدا ، بل انه اذا رآه من لا يعرفه شهد له بأنه شجاع بطل ! .

ثم ان السلطان سليما قال فى نفسه ، انما هذا أمر سماوى أصابه وطالع نحس غريب غير صوابه حتى رمى سلاحه وسلم نفسه ، مع أنه قاتل قتال الجبابة ، والا لو هرب كانت الدنيا واسعة بين يديه أينما شاء ذهب ، وحيث طلب هرب .

ثم التفت اليه وقال له : يا طومانباي ، كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين ، أولا انى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى ، وأنت مقيم على ملك مصر ، وأنا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك الأرض ، فأبيت ذلك وقتلت رسلى ، والرسول لا يقتل . فسرنا بمساكرنا لقتالك ، ورفعنا الأعلام ونشرنا المساكير على خراب ديارك ، فأول مقابلتك فى الريدانية هزمناك الى الصعيد ، وأرسلت اليك رسلا الى الصعيد ، ومهمم قضاة بلادكم ، فلم تقبل الصلح وقتلت القضاة ، وتمديت شيم الكرام بقتل الرسل أولا وثانيا .

ثم عاتبه عتابا كثيرا .

فقال له طومانباي ، والله انه لم يكن شيء مما جرى بخاطرى ولا بأمرى أبدا ولا برأى ، وانى لما أرسلت الى من

الشام الرسل أكرمتهم ، وأمرت بنزولهم فى دار الضيافة ،
وفى نيتى أن أفعل ما جاءوا به ، وأرد الجواب كما أمرتنى ،
فلاقاهم الأمير علان وهم سائرون الى بيت الضيافة فقتلهم •

فلما بلغنى عسر ذلك على ، وكذلك الرسل الذين
أرسلتهم جرى فى حقهم ما جرى فى حق غيرهم من غير
رضائى ، وكل هذا ليس بأمرى ولا بإرادتى ، وإنما جرت
بهم المقادير من الرب القدير ، وحتى تجرى الأمور على ذلك
على ما كانت من قديم الزمان ، بأن دولتنا قد زالت وأدبرت
ودولتكم جاءت وأقبلت ، وهذا شئ كتب به الله تعالى فى
القدم ، وأجرى به القلم ، ودارت به الأفلاك وسارت به
الكواكب ، وما آراد الله فلا مرد له ، ولا يغلب الله غالب ،
تبارك وتعالى رب الأفلاك والكواكب ، ولولا ذلك ما قدرت
أنت ولا غيرك على أخذ بلادنا ، فانه لو كان بالقوة والشجاعة
ما كنتم أقوى منا ولا اشجع ، وهأنتم رأيتم كيف فعلنا مع
عسكركم ، وكسرتهم كذا مرة •

وأما قولكم انكم كنتم تريدون السكة والخطبة باسمكم
وأن تكونوا رموس الملوك بخدمة الحرمين الشريفين ، فأنا
والله ما أخذت السلطنة برغبتي وإنما قومى وعسكرى
اختارونى ورغبوا فى أن أكون أنا السلطان عليهم لما علموا
من زهدى فى ذلك المال •

فلما تقلدت ذلك وجب على أن أرد عنهم وأدافع عن
أموالهم وأنفسهم وأولادهم وحريمهم ، وأما أنت فانما
قيامك فى حفظ نفسك لا غير ، خصوصا ونحن مسلمون ،
فكيف تستعمل قتل المسلمين وترمى عليهم بالمدافع واليران ،

كيف بك اذا وقفت بين يدي رب العالمين ؟ فما جوابك ؟ وكل ملك وان تعاظم ملكه فهو لله عبد أصغر ، فما أنت وأنا الا بجملة العبيد .

فتعجب السلطان سليم ثم قال له : أنا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الأعصار والأمصار ، وأنا كنت متوجها الى جهاد الرافضة والفجار ، فلما بنى أميركم الغورى وجاء بالعساكر الى حلب ، واتفق مع الرافضة واختار أن يمشى الى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي .

فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت اليه ، ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتكم ، وبعد حضوري الى الشام سمعت أنك عملت سلطانا على الكبشة الأجلاف وأنت لست لها أهلا ، والسلطنة لا تكون ولا تليق الا برجل يكون أباءه وأجداده سلاطين ، وأنت وقايتباي الذي هو أعظمكم والغورى ما أسماء آبائكم ؟ ومن أين لكم السلطنة ؟ ومن أين لكم الامارة ؟ كلكم أولاد نصارى ، وأنتم ممالك بلا عتاقة حتى بقيتم من قلة عقلكم وقلة أدبكم تعملون الرجل منكم سلطانا ، ثم تعزلونه وتقتلونه ، أى يسد لكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا ، وتطولوا أياديكم على السلاطين ، فأنت وقومك كم قتلت من عسكرى ، كل مسلم واين مسلم ، فما جوابك عند الله تعالى .

فقال له مسرعا : ان الله تعالى قد أجاز لى ذلك ، قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وهو أصدق القائلين : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٩٤) اللهم أن المرحوم الملك الأشرفى قانصوه

الغورى وقع بينك وبينه التنافس ، ودخلت الشياطين بينكم ،
ورمت الأعداى بينك وبينه ، وختم الله تعالى له بالشهادة -
وستقف أنت وهو بين يدى رب العالمين وأحكم الحاكمين ، وأما
أنا فليس بينى وبينك عداوة ولا أحد من عسكرك ولا غيرهم .

فقال له السلطان سليم : والله ما كان قصدى أذيتك
ونويت الرجوع من حلب ولو أطعنى من الأول وجعلت
السكة والخطبة باسمى ، ما جئت لك ولا دست أرضك .

فقال له طومانباى : الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل
الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس
منا ولا أشجع منا ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى
حومة الميدان ، ونحن قوم قد خصنا الله سبعانه وتعالى
بذلك ، ولكن أنا أعرف أن ما عليك أضر من هذين
الشیطانين الخائنين ، فانه لو كان فيهما خير لكان لنا .

فقال السلطان سليم للحاضرين : والله مثل هذا الرجل
لا يقتل ولكن أخروه فى الترسيم (٩٥) حتى ننظر فى أمره .
فأخذه اياس أغا ، وذهب به الى خيمته وأجلسه بها .

وأخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين فى شأنه ،
واذا بالبشارة قد جاءت من عند الأمير أحمد بن بقر (بقرار)
بأنه قبض على شار بك الأعور ، وأنتم ترسلون من يأخذه .

فازداد فرح السلطان سليم بذلك ، وقال : من يذهب اليه
ويأتى به ؟

فقال الغزالي : على ذلك •

فقال له : أنت لها يا أبا منصور •

فقام الغزالي من وقته وخرج وأخذ معه مائتين من نقاوة
المسكر ، فما تم النهار الا وهم في منية غمر ، فوجدوا الأمير
أحمد بن بقر (يقار) واقفا لهم في الانتظار •

فلما اجتمع به قانبردى الغزالي وسلم عليه ، قال له
أحمد بن بقر (بقار) :

— انزل في الضيافة •

قال : لا يمكن ذلك ، فان السلطان سليما ، نصره الله
تعالى ، أمرنى أن أرجع اليه في يومى هذا ، فأسرع لنا
بشاربك • وسر معنا الى السلطان ليكافئك على فعلك ،
ولا تخبرنى كيف مسكته الا ونحن سائرون •

فعند ذلك أحضروه ، وهو مقيد مزند •

ووقع بصره على أحمد بن بقر (بقار) وقانبردى
الغزالي فقال لهم : الله يخون الخائن •

فلم يردا له جوابا •

وركبوه على بغل ، وقيدوه من تحت بطنه وطاروا به
كما يطير الغراب اذا أخذ البيضة •

ثم أخذ أحمد بن بقر (بقار) يعكى لقانبردى كيف
قبض عليه .

فان الأمير شاربك لما خرج من الغابة بعد أن أيس من
السلطان طومانباى وقصد صديقه وحبيبه الأمير أحمد
ابن بقر (بقار) ، فلما وصل اليه أكرمه وزاد فى اكرامه ،
وقال له ، لا تخف ولا تحزن حيثما وصلت الى .

فعكى له الأمير شاربك على ما حصل من السلطان
طومانباى ، وكيف سلم نفسه لعدوه ورمى سلاحه فى البحر
المالح ، وان ذلك كان سببا لانقضاء الدولة .

ثم دخل الليل فنام الأمير شاربك ليأخذ لنفسه الراحة ،
وكان له عدة أيام وليال لم ينم ، ولا طرق النوم عينه ، فنام
واطمأن على نفسه .

فقال أحمد بن بقر (بقار) لأصحابه : خطر عندى شيء
أذكره لكم .

قالوا : وما هو ؟

قال : ان هؤلاء القوم قد زالت دولتهم ، حيث ان
سلطانهم قد سلم نفسه ، وانى أريد أن أفعل كما فعل حسن
ابن مرعى ، وأجعل لى يدا عند السلطان سليم ، وأخذ
الشكرانية على غيرى .

فقالوا له : هذا هو الصواب .

قال : فقمّت من ساعتى ودخلت عليه وهو نائم ، ومعى نحو عشرة أو عشرين نفسا ، فضربتة بالنبوت على رأسه بعد أن نبهته بسرعة •

فلما رفع رأسه وهو مدهى من الضربة التى فى رأسه وقد بطحته أمرت بقية الحاضرين ، فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه ، وأرسلت لكم على الفور أعلمكم بذلك •

فشكره على ذلك قانبرىدى الغزالى ، وقال له : الآن قد اشتفى قلبى من هذا الأعرور الخبيث •

ولا زالوا مجدين السير به حتى أوقفوه بين يدى السلطان سليم ، فتأمّله ، ونظره ، فوجده من أكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليه ، وشجاعته لابسته ، ذو استكانة رهيبة ، ووقار وضخامة وحشمة (٩٦) •

فأراد السلطان سليم أن يختبر كلامه حتى ينظر عقله ، فقال له السلطان سليم :

— كيف تنظر الدنيا يا شاربك ؟

فقال : كلا شيء •

فقال له : حيث كانت كلا شيء فكيف تقاتل عليها وتحارب فيها ؟

قال : ما قاتلت عليها ولا نافست أحدا فيها ، وإنما قاتلت عن مالى وعيالى وعرضى وأولادى ، وكتاب الله تعالى

وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أجازا لي ذلك ، فأما الكتاب فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٩٧) .

وقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » (٩٨) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عياله فهو شهيد » . . فنحن ما نقاتلكم الا باذن من الله ورسوله ، وأنت بأى دليل استحللت دماءنا وأموالنا ؟

فقال السلطان سليم : أولا قد استفتيت عليكم وأجازني العلماء بذلك فانه قد بلغنى أنكم تقتلون ملوككم ، وتأخذون الأمر بالسيف ، ولا تقفون على الحدود الشرعية .

فقال شاربك : أما قتلنا الملوك فهو كلام باطل ، فقد أقام المرحوم السلطان الأشرف قايتباى نحو ثلاثين سنة وهو ملك مصر الى أن مات رحمه الله تعالى . وأما ابنه محمد فقد تعدى الحدود ، ولم يقف على حدود الشرع ولهذا قتلناه ، وأما الذين تولوا بعده فانا لم نر فيهم قابلية للملك ، فلهذا أقمناهم ، فمنهم من حبسناه ، ومنهم من قتلناه اتقاء لشره . وقد اخترنا المرحوم الأمير قانصوه الغورى ، وجعلناه سلطانا ، فأقام الى أن خرج اليك لأمر أراده الله تعالى فى الأزل الى أن حصل ما حصل ، وآخر الحياة الموت ، وما نحو

(٩٧) سورة البقرة ، الآية ١٩٤ .

(٩٨) سورة الحج ، الآية ٣٩ .

باقون من الموت ، فقد قال الله تعالى : « انك ميت وانهم ميتون » (٩٩) .

فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام من شار بك ،
أشار بيده ، أن أخرجوه .

فأخرجوه في الترسيم ، وأقعدوه .

قال الراوى : فى اليوم الذى جاءوا بالسلطان
طومانباى بعد سؤاله وجوابه قبل ما يعطيه الترسيم أشار
اليه بيده ، أن أطلقوا المدافع والضربانات والبنادق ،
ودقت النوبة السلطانية ، ودقت الكاسات والنقاريات
وأطلقوا المدافع والضربانات والبنادق . وكبروا تكبيرات
ثلاثة أيام حتى تزلزلت الأرض ، وضربوا النوبة من الوزير
الأعظم ، وسائر الوزراء والباشات والأمراء ، وبعد آخرها
أشار على ترسيم السلطان طومانباى .

ثم أمر أن ينادى فى جميع مصر بالزينة ، فزين الناس
جميع مصر والقاهرة ، وجميع البيوت والدكاكين ، وأمعن
الناس فى ذلك وأشيع فى سائر اقليم مصر بأن السلطان
طومانباى مسكوه بدلالة حسن بن مرعى .

وصار الناس منهم من يصدق ، ومنهم من الأطراف
والفلاحين من يكذب .

ولما كان فى ليلة الحادى والعشرين من شهر ربيع
الأول ، وكان السلطان طومانباى قد صلى العشاء ، وجلس

وهو كثير التفكير زائد التضجر ، وزائد الحسرات متتابع
العبرات ، أخذته سنة من النوم وهو جالس ، فاذا هو شخص
واقف قدامه .

وقال له : يا طومانباي ، قدم نفسك للرحيل ، فقد
مضى الكثير والقليل وجاء الوقت المعلوم ، فانتبه من نومك
فقد حصل فراقك من أهلك وقومك .

فانتبه مرعوباً فزعاً ، وتعوذ بالله من الشيطان ، وقرأ
ما تيسر من القرآن ، فنزل عليه النوم شيء ثقيل ، فاضطجع
كأنه ميت أو قتيل .

قال : ولم ينزل عليه من النوم طول عمره أثقل من تلك
الساعة .

والسبب في ذلك أن الروح تعلم بفراقها للبدن ،
فتودعه بطيب الوصف .

ثم آفاق بعد ذلك فوجد نفسه كأنه صب عليه ماء من
كثرة العرق ، وكان هو الذي أخبر بذلك عن نفسه للقاضي
أصيل الطويل ، فانه لم يأت أحد من أهل مصر غيره ، وأوصاه
أن يفسله ويكفنه بيده .

وقد فعل ذلك كما أوصاه .

قال الناقل : وما زال السلطان طومانباي على سهرته الى
الصباح ، فلما تباينت الوجوه واذا بالجاويفية قد جاءوا

اليه ، والقابوجية (★) وهم مسرعون • وقالوا له : قم ، فان السلطان يطلبك •

فقام معهم وساروا به الى أن قرب من خيمة السلطان سليم وأوقفوه ، واذا بقابوجى أغاسى قد خرج من عند السلطان ، وقال :

— قد برز أمر السلطان بأن تسيروا به الى باب زويلة وتصلبوه هناك •

وجاءوا له بالبغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت البغلة ، ودارت حوله اليكنجرية العساكر من سائر الطوائف وخرجوا به من أوطاق السلطان الى انبابه ، ونزلوه فى مركب، وعدوا به الى بولاق ، ودخلوا به من مرجوش (★★) الى بين القصرين (★★★) ، وقد انقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء والصياح •

وكان الواحد من عسكر الروم يجيء الى الرجل من أهل مصر ، ويقول له : هذا الرجل الذى على البغلة هو السلطان طومانباى ، أم غيره ؟

فيقول المصرى : بل هو هو •

وكان ذلك اليوم على أهل المملكة أشأم الأيام ، وبكت عليه الأرامل والأيتام •

(★) القابوجية هم الحجاب ، كلمة تركية مفردها قابوجى •

(★★) مرجوش اسم شارع يبتدىء من شارع الكلياتى وينتهى عند أول شارع

الشعرافى ، وقد كان بهذا الشارع عمارة كبيرة يجتمع فيها تجار مصر •

(★★★) بين القصرين ، مكان معروف وقسم الجمالية ، وقد أطلق على شارع يبتدىء

من قرب مسجد الحسين رضى الله عنه •

ذكر

صلب السلطان طومانباي على باب زويلة

قال الراوى : فلما وصلوا به الى باب زويلة وجدوا الحبل مرخيا ، فأسرعوا به ونزلوه من على البغلة ، وصلبوه على غير مهلة - ثم بعد ذلك أنزلوه وساروا به فى نعش الى قبة السلطان الغورى ، فغسله القاضى أصيل الطويل ، وكفنه من ثياب أرسلها له السلطان سليم من خاص الموصلى الرفيع ، ثم صلى عليه القاضى أيضا كما أوصاه ، ودفنوه فى فسقية القبة المذكورة .

وأرسل السلطان سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه .

قال الراوى : انه حضر الصلاة على السلطان طومانباي ، ثم ان الذى فرق الأكياس على الناس فرقها من غير عدد بالنصيب ، أعطاه ثلاث حفئات فضة (★) ، وأعطى القاضى أصيلا مثل ذلك ، وفرق الباقي على الناس من غير عدد بالنصيب .

قال : ثم ان السلطان سليما فى الساعة التى أمر فيها بصلب السلطان طومانباي أحضر الأمير شاربك الأعور ، وأمر بضرب عنقه ، فقطعوا رأسه .

(★) الفضة ربع المليم ، وكانت أصغر وحدة فى العملة مثل البارة ، وتصنع عادة من الفضة ، وأحيانا من النحاس ، وكانت المبالغ الكبيرة تقدر بالاكياس ، والكيس يطلق على مبلغ ٢٥٠٠٠٠ فضة أى خمسة جنيهات .

وجاءت عياله وغلामه الحاج فارس فاستأذنتوا في أخذه ،
فأذن لهم فأخذوه وجاءوا به الى المدرسة البيبرسية (★) ،
و غسلوه ، وصلوا عليه ، ودقنوه في مسجد من داخل الخوخة
التي عند القرن بالقرب من داخل المدرسة المذكورة .

كان هذا آخر مدة الجراكسة ، وهو يوم الأحد ،
الحادى (★★) والعشرين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين
وعشرين وتسعمائة .

قال المؤلف : الذى وصل الى علمى من لفظ سيدى
محمد ابن السلطان الغورى ، أن السلطان سليما لم يكن فى
نيته قتل السلطان طومانباى ، وانما كان السبب فى ذلك
خاير بك نائب حلب وقانبرى الغزالى ، فانهما لما رأيا
السلطان سليما لم يسهل عليه قتله وصرح لهم فى المجلس
العام بأن مثل هذا لا يقتل ، لأنه لما رأى كلامه مسدودا وهو
حق وصدق ، وثبت عنده صدقه وظهر له حاله ، ورأى من
شجاعته ما يفوق الوصف لم يسهل عليه قتله .

وكان يريد أن يأخذه معه الى بلاد الروم ويبقيه عنده
ذخيرة بعد أن يستحلفه الأيمان المغلظة ، وقد ثبت عنده
دينه وصلاحه .

وكان رحمة الله عليه محبوبا لكل من يراه ، فلا يراه
غريب ولا قريب الا أحبه ، وشهد له بالصلاح .

(★) المدرسة البيبرسية ، وكانت ملحقة بجامع بيبرس الموجود بحارة الجودرية

شارع المؤيد .

(★★) ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٢ = أبريل ١٥١٦ وفى هذا اليوم انشأ السلطان

الغورى جامع الغورى بعرب يسار قره ميذان . وقد ذكر ابن اياس أن شقيق طومانباى تم

فى يوم الخميس الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٢ .

فخشي خاير بك على نفسه ، وكذلك قانبردى أن السلطان سليما ان أخذه معه وصار بينهما اتحاد لا يبقى عليهما ، فأخذوا يدبرون الحيلة ويحسنون للسلطان سليم قتله ، وأنه متى أبقي عليه لا يقوم له نظام أبدا ، وربما يفسد عليه عسكره ، فانه رجل شجاع وكريم ، الدنيا عنده لا قيمة لها أبدا ، وخصوصا للأجناد والعساكر .

فغند ذلك اقتضى رأى خاير بك والغزالي بأن يكتبوا للسلطان ورقة ويرسلوها من غير أن يشعر بها أحد من الوزراء ولا من غيرهم .

ومن جملة ما كتبوا فيها : « فليعلم مولانا السلطان أن أهل مصر الذين تشبثوا من الجراكسة لم يصدقوا أن سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه . وكذلك أهل الأقاليم والعربان ، وأيضا فليعلم مولانا الخنكار ، أنك متى أبقيت عليه فقد ضيقت لقبك وسفرك وهلاك عسكرك وأموالك ، فانه بمجرد ما تسافر من هذه البلاد لو كان تحت الأرض خرج منها ، وأفسد عسكرك بالمعطاء ، وتندم حيث لا ينفع الندم ، فان أردت أن تطيعك الممالك والبلاد وتحتوى على جميع البلاد من غير مانع يمنحك عنها ولا مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه ، وأرسل اصلبه على باب زويلة ليراء الخاص والعام ، ويشاع ذلك فى سائر البلاد وتيأس الناس من بقاءه ، وتروق الدنيا وتطمئن على نفسك وتملك هذا الاقليم العظيم الذى ليس له نظير تحت سماء الدنيا . »

ولقد قال بعض الحكماء : عدوك لا تصافيه ، وصديقك لا تجافيه .

وقال آخر : من لم يحسب العواقب ما الدهر له
بصاحب » .

فعند ذلك أمر السلطان سليم بصلب طومانباى ، ورمى
عنق شاربك ، كما تقدم .

ذكر

صفة انسلطان طومانباى ، رحمه الله تعالى

كان رحمة الله عليه على ما حكاه عنه سيدى محمد بن
المرحوم الغورى والقاضى أصيل الطويل ، والأمير رزمك
الناشف وغيرهم ممن رآه وعاشره ، وعرفه ظاهرا وباطنا ،
فاتفق الجميع على أنه كان مقداما خيرا بالحرب ومواقع
الطعن والضرب ، والدخول فى الميدان والخروج منه ،
لا يرهب الأقيال ، ولا يخطر الموت له على بال ، وقد ذكرنا
ذلك فى حروبه ووقائعه ، وكان متوسط الطول ، ذهبى
اللون ، واسع الجبين ، أسود العين والحاجبين واللحية . وكان
دينا صالحا خيرا فاضلا . زائد الأدب والسكون ، والخشوع
والخضوع ، ملازما لزيارة المشايخ ، الأحياء منهم والأموات ،
حتى انه لما غسله الفاسل وقلعه ما عليه من الثياب وجدوا
على بدنه جبة صوف حمراء ، وأوصى أن يدفنوه بها . ولم
يظهر عنه فى حياته شيء من الأفعال الردية أبدا ، لا شرب
الخمر ولا زنا ، ولا فواحش أبدا . وكان قليل الشهامة (١٠٠)
لا يظهر شيئا مما يفعله أهل التجبر والعنف ، وكان الغالب
على حاله السكينة والوقار ، وكان غالبا على نفسه ، رزينا
فى أحواله ، لين الكلمة ذا انخفاض ، كثير الرحمة والشفقة
على كل أحد ، حتى انه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة
فى قتال السلطان سليم صار الناس يتعجبون منه غاية العجب

ولم يكن أحد يظن أنه بهذه الصفة ، وكان الذي عمره ما
 رآه إذا رآه لا يشك في أنه عبد صالح ، فان الصلاح والأنس
 والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه .

وقد تقدم في التاريخ أن السلطان سليما ما هان عليه
 قتله لما رآه وسمع كلامه ، وقال له : يا طومانباي ، لو كنت
 أطمعني على مرادى بأن تجعل السكة والخطبة باسمي ما دخلت
 لك أرضا ولا بلادا ، ولا وقع بيني وبينك حرب أبدا ، ولكن
 لكل شيء سبب حتى جرى القضاء والقدر ، وقتل من قتل ،
 وسلم من سلم .

وكانت زوجته خوند بنت قانبردي الغزالي دويدار
 كبير (★) وتزوجت بعده برجل يقال له ابن الشيخ ابراهيم
 الكلشني . وبقيت بمصر الى أن ماتت ، ولم يخلف السلطان
 طومانباي أولادا لا ذكورا ولا اناثا .

وأكثر في الشعراء من المراثي والقصائد ، ومضى
 كان لم يكن .

وكان القاضي أصيل الطويل دائما يحكي عنه الحكايات
 الغريبة والأمور العجيبة ، التي تشهد له بأنه من عباد الله
 الصالحين . ومات القاضي أصيل في سنة سبعين وتسعمائة .

قال الراوي : قد قدمنا في هذا التاريخ أن السلطان
 طومانباي توفي في يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع

(★) دويدار كبير ، كذا في الأصل ، وقد ذكره ابن اياس دوادار كبير ، وهو لقب
 يطلق بالتركية على حامل الدواة والمقصود به صاحب ديوان الإنشاء .

الأول سنة تسعمائة واثنتين وعشرين (★) وانقطع اسمه من الخطبة على منابر مصر في أول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وكان من حين ضربت له السكة وأقيمت له الخطبة ثلاثة أشهر وخمسة أيام .

قال المؤرخ : وفي الساعة التي أمر السلطان سليم فيها بصلب طومانباى وقتل الأمير شار بك ، أحضر فيها شيخ العرب حسن بن مرعى وابن عمه شكر ، وشيخ العرب أحمد بن بقر (بقار) وخلع عليهم خلعا عظاما من أجل خلع الملوك ، وأعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده اقطاعا له . لا يحمل من مالها نديوان السلطان شيئا ولا درهما واحدا ماداموا فى قيد الحياة .

وأرسلهم الى بلادهم بعد أن أحسن اليهم احسانا جزيلا وأكرمهم اكراما عظيما .

ذكر

تولية الكشف ومشايخ العربان

قال الراوى : ثم أمر السلطان سليم بتولية الكشف ، فولى الأمير جانم على البهنسا والفيوم ، وجانم هذا هو الذى تحارب مع السلطان طومانباى .

وولاهم على ما كانوا عليه فى مناصبهم ، وأمر أن يكتب فى الدواوين لجميع الحكام بعدم المعارضة لجميع أصحاب

(★) جاء التاريخ فى الأصل يوم الأحد الخامس عشر من شهر رمضان سنة تسعمائة واحد وعشرين ، وهو تاريخ لم يقدمه الراوى كما يذكر ، وإنما التاريخ الذى سبق ذكره هو الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة تسعمائة واثنين وعشرين .

الاقطاعات والأرزاق ، والأوقاف والجوامع ، وأولاد الأمراء
وأمراء الجراكسة الذين تخلفوا ، وكل من بيده شيء من
الأرزاق هو باق عليه ، وجعل لعنة الله ثلاث مرات على من
غير أو بدل شيئاً من ذلك ..

ففرح الناس بذلك غاية الفرح .

ثم ان السلطان قال للأمير خاير بك : أريد أن أعلم
قدر مال مصر ، وما يتجمع منها في كل سنة .

قال : يا مولانا الخنكار ، ما يعلم ذلك ولا يعرفه
الا القاضى أبو بكر بن الجيعان .

فأمر باحضاره .

فلما حضر قال له خاير بك : مولانا السلطان يريد أن
تخبره بما يتجمد من مال مصر في كل سنة على وجه
الاختصار .

فقال له القاضى : في غد ان شاء الله تعالى آتية بخبر ذلك .

ثم انصرف ، ورفع الدفاتر التى كان قد جاء بها ،
وجاء فى ثانى يوم وقد كتب جملة خراج مصر على ظفره ،
فأعجب السلطان ذلك ، وقال له : بارك الله فيك ، خير القول
ما قل ودل .

ثم ان السلطان أمر بالرحيل من بر انبابة وجاء الى
المقياس ونزل فيه ، ومعه جميع أكابر دولته وأعيان
أجناده .

ثم ان السلطان خلع على شيخ العرب حماد بن خبير شيخ
عرب غزالة باقليم الجيزة ، وجاء اليه الأمير على بن عمر
شيخ هواردة ، فخلع عليه بأمرية الصعيد بمدينة جرجا ،
وخلع على علم الدين شيخ بنى عدى ، وكتب لهم التواقيع
بذلك وخلع عليهم وانصرفوا .

قال المؤرخ : ومن عجيب ما جرى أن الأمير قانصوه
العادلى لما سمع بشنق السلطان طومانباى وقتل الأمير شار بك ،
كان عليه ذلك اليوم من أشأم الأيام ، وهجر الطعام والمنام .

ثم انه حدث نفسه بأن يتحيل بحيلة على قتل السلطان
سليم ، فسهر ذات ليلة وهو متفكر فيما يفعله وكيف يتوصل
الى ما أراد ، فدبر فى نفسه أن يلبس مثل العرب ويأخذ معه
جماعة من أهل القوة وينزل الى مركب ليلا ويسير بها الى
تحت المقياس ، ويجعل له سلم تسليم ، ويصعد عليه وينزل
الى تحت المقياس ، ويقتل السلطان سليما ويأخذ بثأر قومه ،
وما علم أن الحى ما له قاتل .

ثم انه فعل ذلك حتى وصل الى الطيارة التى فوق
المقياس ، وهى محل السلطان ، فوجد الحرس مستيقظين ،
وسمع حديثهم ، فكمن فى محل وقال فى نفسه : أصبر لهم
الى أن يناموا .

فلما سكث حسهم ظن أنهم قد ناموا ، وكانوا يتناوبون
الحرس بالساعات .

فقام ومشى الى أن قرب منهم ، ففطنوا به ورأوه
بالعين ، فقاموا اليه يتصايحون بالسيوف مسرعين فى طلبه

فرجع هاربا الى الموضع الذى جاء منه وفيه سلم التسليم ،
فما ساعه الا أن رمى بنفسه من فوق الشراريف الى البحر ،
وارتمى فى التيار .

وتبعته جماعته بالقارب فعصلوه وهو عائم ، فأطلعوه
وانحدروا به ، ولم يبلغ مقصوده .

وأما السلطان سليم ، فانه قام مرعوبا من نومه لما سمع
الضجة ، وأطل من أعلى القصر ونظره وهو عائم فى الماء ،
فأمرهم بالرمى عليه بالبندق ، فلم يصبه شئ من ذلك الى أن
وصل الى ساحل بولاق ، وبقي مقهورا لأنه لم يبلغ مقصوده .

وكان فى علم الله الذى بقى من عمر السلطان سليم
ثلاث سنوات ، فانه مات بالقسطنطينية فى سنة ست وعشرين
وتسعمائة ، ودفن بها .

ومن الغرائب ان مدفنه لا يذهب اليه أحد ولا يزوره
الا فى النادر ، فانه كان سفاكا للدماء ، لا يتوقف فى قتل
أحد ، وأما تربة والده المرحوم السلطان بايزيد ، فانها نيرة
عامرة مؤهلة بالناس لا ينقطعون عنه الا ان كان بعد صلاة
العشاء ، فانه كان عبدا صالحا لا يشك فى ولايته .

وكان بينه وبين السلطان قايتباى مودة عظيمة ، ويهدى
بعضهم الى بعض فى كل عام ، ويرسلون لبعضهم السلام ،
ويطلبون من بعضهم الدعاء الى أن توفاهم الله تعالى ، تفمدهم
الله برحمته ورضوانه .

وأعجب من ذلك أن خاير بك ملك الأمراء بمصر لما أن
أقامه السلطان سليم على مصر الى أن يموت ، فأمر بعمل

تربة لنفسه وجعلها فى باب الوزير على طريق القلعة ، يمر عليها الباشات والصناجق والأغوات عند ذهابهم وإيابهم ، فلم يلتفت اليه منهم أحد ، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة ، مع أنها تربة مليحة المنظر ، ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق ، لأنه كان سببا فى هلاك ألوف مؤلفة من الجراكسة والأروام (١٠١) والعرب وغيرهم .

فان بعض الحذاق من المؤرخين قاسوا وقعة الجراكسة مع السلطان سليم على وقعة تيمورلنك الذى أخرب حلب والشام وقتل أهلها عساكر ، فوجدوها قدرها خمس عشرة مرة تقريبا .

قال المؤرخ : ثم ان السلطان سليما انتهى خاطره الى أن يذهب الى الاسكندرية ويتفرج عليها ، ويحيط بها علما ، فرأى مدينتى فوة ورشيد وغيرهما من البلاد . ورأى تلك الأرزاق ورأى الجزات التى كانت فى أيام الجراكسة ، فتعجب من ذلك ، وقال : ان هذا الاقليم لا نظير له فى كثرة الأرزاق والجزات .

ثم انحدر الى رشيد وأحاط بها علما ، ثم طلع الى البر الى الاسكندرية وأقام بها ثلاثة أيام ، ثم رجع ونزل فى المقياس ، وبقي كل ليلة ينزل فى الذهبية التى عمرها السلطان قانصوه الغورى ، وكانت كلها منقوشة بماء الذهب كالأسقف التى فى الغورية وكانت لها بهجة عظيمة ، وكان الحاج عبد القادر الأعرج هو الرئيس الذى يمسك الدفة ويقلع به ويحدر .

فاتفق انه فى بعض الليالى أراد السلطان الطلوع من الذهبية الى المقياس ، فلما قاربت الذهبية سالام المقياس هم السلطان. أن يطلع فلم تصل رجله الى درج المقياس ، وكاد أن يستقط بين الدرج والذهبية ، والحاج عبد القادر واقف يحذائه ليطلعه ، فلما رآه هوى الى البحر وكان يتلاحق به ، فلما حصل الا عنقه ، فأمسكه وجذبه الى الذهبية من الماء ، فساعده عمر السلطان ، فأطلعه الى المركب وقد غاب عن صوابه ، وأيقن بالفرق ، فلما ردت اليه روحه قال له : تمن على يا عبد القادر .

فقال : تمنيت أن أكون معرف البحرين .

فكتب له السلطان أن يأكلها الى الممات من غير أن يحمل منها الى الديوان شيئاً مطلقاً ، وأن يكون مسموع الكلمة منقاد الحرية الى أن يموت ، وأعطاه عطايا الملوك .

ولما أصبح السلطان أمر بالرحيل من المقياس .

فأنزله خاير بك فى بيت ترايبية الذى على بركة الفيل ، فإنه ليس له نظير فى حسن بنائه ومنظره .

فأقام بها أياماً ، ثم أمر بالرحيل الى القسطنطينية ، وكان من أمراء الصناجق أمير سكن فى قناطر السباع ، فهجم عليه طائفة من اليكنجرية ، فقتلوه .

فوصل خبره الى السلطان ، فقبض عليهم وقتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو العشرين رجلاً .

ثم ان السلطان سليما قبل الرحيل (★) بيوم خلع على خاير بك نيابة مصر ، ولقبه ملك الأمراء ، وأبقى عنده خمسة آلاف يكنجى ، ما عدا العسكر الخيالة ، وقال له : أعطيتك هذه المملكة اقطاعا لك الى أن تموت .

وكذلك فعل بقانيردى الغزالى ، فأعطاه الشام اقطاعا له الى أن يموت .

ثم ان السلطان أمر خاير بك بأن كل من جاءه من الجراكسة الهاريين وطلب منه الأمان أن يقبله ويبقيه على منصبه . وأوصاه وأكد عليه فى ضبط البلاد والانتصاف بين العباد .

ثم ان السلطان انصرف وأمر بالسفر (★★) .

فلما سمعت الجراكسة بذلك اطمأنت قلوبهم .

فجاء الأمير رزمك الناشف والأمير باردبك وسيدى على بن سودون الدوادارى وغيرهم ممن كانوا هاريين مختلفين ، وطلبوا الأمان من خاير بك فأمنهم .

(★) ذكر ابن اياس أن ابن عثمان لما رحل عن مصر ترك بها من عساكره ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك نحو خمسة الاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو مائة رام ، وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشاه ، وجعله نائب القلعة ، فبقيم بها ولا ينزل الى المدينة .

(★★) يذكر ابن اياس أن السلطان سليم خرج من مصر وفى صحبته ألف رجل محملة ما بين ذهب وفضة عدا ما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت والخيل والبغال والجمال حتى نقل منها الرخام الفاخر وأخذ منها من كل شيء أحسنه مما لا فرج به أبأوه ولا أجداده من قبله أبدا ، وكذلك ما غنمه وزرأوه ، وفى مدة إقامة ابن عثمان بالقاهرة حصل لاهلها الضرر الشامل ، وبطل منها نحو خمسين صنعة .

واستقل خاير بك بملك مصر ، يتصرف فيها تصرف
الملوك (★) .

وأما سيدى محمد بن الفورى ، فانه أخذه السلطان سليم
معه الى بلاد الروم ، وكذلك الأمير قانصوه العادلى ، فان
السلطان سليما لما أن جاءه قانصوه العادلى فى المركب ،
وطلع من على شراريف المقياس يريد أن يقتل السلطان سليما
كما تقدم ، وقد كان السلطان أرسل خلف خاير بك ،
وقال له :

— لابد أن تأتيني يخبر هذا الرجل الذى خاطر بنفسه
وجاء فى الليل ليقتلنى .

فاستقصى خاير بك الخبر فقبل له : هذا هو الأمير
قانصوه العادلى .

فلما أخبر السلطان به قال له : لابد وأن تأتيني به .

فقال له : يبرز أمرك بالأمان ، فلعل أن يطيع ويدخل
فى يدنا . فحلف السلطان أيمانا مغلفة أنه ان قابله بالأمان
فعليه أمان الله ورسوله ، والخائن يخونه الله تعالى .

فأرسل له خاير بك من استعطف بخاطره ، وقال له ،
ان السلطان قد ندم على ما فعل من قتل طومانباى وشاربك ،

(★) ذكر ابن اياس أن مدة اقامة السلطان سليم بمصر ثمانية اشهر الا أياما .
وانه لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ولا راه احد . ولا انصف مظلوما
من ظالم فى محاكمته ، بل كان مشغولا ببلذاته وسكره واقامته فى المقياس بين الصبيان
المرد ، وما كان يظهر الا عند سلك نماء الممالك الجراكسة وما كان له أمان اذا أعطاء
لاحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقص ومنقوص لا يثبت على قول واحد
كعادة الملوك فى أفعالهم ، وليس له سماعت يعرف . وأما عسكره فكانت عيونهم جائعة
ونفوسهم قذرة (انظر بدائع الزهور لابن اياس ج ٥ ، ص ٢٠٨) .

وما كان قصد السلطان شيئا من ذلك وانما عنادهم هو الذى
أوجب ذلك ، فانهم لو أطاعوه من الأول وجعلوا السنكة
والخطبة باسمه لكف عنهم ورجع الى بلاده وأبقاهم على
بلادهم ، ولكن جرى القلم بما به الاله حكم ، وقد تم الأمر
وما بقى لا شر ولا حرب ، والأولى والأحسن أن تقابل
السلطان وتأمين على نفسك ومالك وعيالك .

فلما سمع الأمير قانصوه العادلى ذلك الكلام طالب خاطره
للمقابلة وقال فى نفسه : أما الموت فلا بد منه ، ومن لم يمت
بالسيف مات بغيره . فتوكل على الله وسلم أمره لله وقدم على
خاير بك ليلا .

فلما اجتمع به خاير بك تلقاه بأحسن ملتقى ، وقال
له : ما بقى كلام وقد مضى ما مضى . وتكلم معه كلاما كثيرا ،
وضمن له من السلطان الأمان ، وأعلمه بأن السلطان لا يخالف
خاير بك فى شيء من ذلك ، فانه كان يعتقد محبته له .

ولما طلع النهار ركب خاير بك وقانصوه العادلى وذهبا
الى السلطان سليم ، فلما وقف بين يديه نظر اليه وتأمله ،
وقال له :

— ما اسمك ؟

فقال : اسمى قانصوه العادلى .

فقال : أنت الذى جئتنى فى الليل وأنا فى المقياس ؟

قال : نعم .

قال : صف لي كيف صنعت ؟

فوصف له جميع ما صنعه .

فقال له السلطان : لأى شيء فعلت ذلك .

قال له قانصوه العادلى : أما تدرى ما صنعت أنت وما فعلت فى سلطاننا ، وما أهلكت من عساكرنا ، وما أخربت من بلادنا وديارنا ، وما يتمت من أطفالنا وما هتكت من حريمنا ، وما أخذت من أموالنا ، وما فعلت معنا من فعل لم يفعله أحد من قبلك ونحن مسلمون مؤمنون موحدون حماة الدين ، ونقرأ كلام رب العالمين ، سنيون ، فما ذنبنا ؟

قال له السلطان سليم : يا قانصوه ، والله ما كان هذا فى خاطرى من الأول ، ولا كان قصدى شيئا من ذلك أبدا ، الا أن ملككم الذى هو قانصوه الثورى لما أرسلت له وكاتبته وأنا ذاهب الى قتال قزلباش الراضى أرسل لى جوابا ناقصا ، وأغلظ على فيه ، ثم أرسلت له ثانيا لما أن بلغنى عنه ما كان يفعله بالناس من المضاررات والقتل فى الأمراء والأعيان فقلت له ، كف عن ذلك وأنصف الناس من بعضهم ، فان كل من كان خادما للحرمين الشريفين لا يكون الا عادلا منصفاً عاملا بالكتاب والسنة متمسكا بالشرعية ، فأرسل لى جوابا بأنه قادم بأشراره ، فتوجهت اليه وجردت عليه ، وقد نصرنى الله تعالى عليه ، ورمى كيده فى نحره ، وانظر كيف ألقى الله تعالى فيكم الفتنة ، كيف كنتم تخونون بعضكم وتفسدون ، فكان ذلك سببا لزوال ملككم ، ولكن هذا ليس هو بقدرتى ولا بقدرتكم ، ولكن هذا بتقدير الله تعالى ، وقد تم الأمر

على ذلك ، ولكن يا قانصوه قد عطف الله قلبى عليك ، وقد
أمنتك على نفسك ومالك وعيالك ولا بقى يحصل لك منى
أذية أبدا .

فقبل الأرض بين يديه ودعا للسلطان واعتذر له بأنه
ما جاء له فى تلك الليلة الا لشدة ما حصل له من القهر
فيما تقدم .

ثم ان السلطان خيره فى أن يقيم فى مصر معززا مكرما
أو يذهب معه الى بلاده .

فاختار الذهاب معه محبة فى ابن أستاذه سيدى محمد
ابن الغورى .

فأخذ السلطان سليم معه ، وأمر عسكره باكرامه ،
وبقى السلطان فى كل يوم يطلبه ويتحدث معه فى الطريق
ويعجبه كلامه وفصاحته وأجوبته ومعرفته وفضله وشجاعته .

وكان السلطان سليم فى كل حين يأمره بأن يلعب بين
يديه بالرمح والسيف وأنداب الحرب ، ويعجبه ذلك ويقول
لمسكره :

— انظروا هل فيكم من أحد يعرف يعمل شيئا من ذلك ؟

فقامت نفس يونس باشا الذى هو الوزير الأعظم ،

فاغلق فى الكلام على السلطان ، وقال له من بعض قوله :

— ما الذى فعلته ؟ أخذت البلاد من الجراكسة ، ثم

أعطيتها لهم ثانيا ، وعاديتهم وقاتلتهم ثم صافيتهم ، فما هذا

الرأى ؟ فلو عرفنا ذلك ما جئنا معك ولا أطعناك فى شىء من ذلك .

فقامت نفس السلطان من هذا الكلام ، فأمر بضرب عنقه فى الحال وقتل غالب أخصائه تبعاً له .

ثم هرب ابن يونس باشا وبعض جماعته الى مصر ، فقبض عليهم خاير بك ، ثم أرسلهم الى السلطان سليم ، فقتل الجميع .

ولما وصل الى دمشق خلع على قانبردى الغزالى ، وأعطاه الشام اقطاعاً الى أن يموت ، لا يؤخذ منه من مالها ولا درهم الواحد .

ثم سار الى القسطنطينية ، وأمر بالزينة ، فأمنت بلاد الروم فى ذلك .

فأقام بها الى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن فى مدفنه الذى كان عمره فى حال حياته بمدينة القسطنطينية ، وكانت وفاته فى سادس شوال ، فكانت مدة سلطنته ثمانى سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام .

ثم آل الملك لولده السلطان سليمان ، وكان من الملوك العادلة ، رحمة الله عليه ، ومكث فى الملك نحو ثمانية وأربعين سنة وشهور لا يختل له نظام أبداً ، وكان ملكاً كريماً عادلاً فاضلاً ، ذا هيبة ووقار .

ذکر

خروج الغزالي نائب الشام وسلطنته بها

قال : فلما بلغ قانبردى الغزالي موت السلطان سليم ،
وقد تولى ابنه السلطان سليمان وهو شاب صغير ، طمعت
نفسه الخبيثة فى أن يتسلطن فى الشام ، ويعيد الملك الى
الجراكسة كما كان فى الأول ، ويكون هو السلطان ، وتعلقت
آماله بالمحال .

فأخبر أخصاءه بما فى نفسه .

فقالوا له : ليس لنا قدرة على ذلك ونحن فئة قليلة ،
ولكن أرسل الى خاير بك صاحب مصر ، أعلمه بذلك ، فان
وافقك على أن تفعل ما قلته فافعل ، والا فلا قدرة لك على
عسكر الروم وكثرتهم ونيرانهم ، فهل نسيت ما تقدم ؟

فقال لهم : انما كان ذلك من السلطان سليم ، وانما
هذا ولد ليس له قدرة على فعل شيء من ذلك ، ولا أظنه يتم
سنة فى الملك ، وما علم أنه يقيم فى الملك ما يقرب من
خمسین سنة .

ثم أرسل أعلم خاير بك بما فى ضميره .

فأرسل له خاير بك جوابا يحذره أنه لا يفعل شيئا من
ذلك ويقول له :

— أما يرضيك اقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك ؟
فاياك ثم اياك أن تتفوه بشيء من ذلك .

فلم يقبل من خاير بك ، وسولت له نفسه الخبيثة بأن يتسلطن .

وأرسل الى خاير بك ثانيا يقول له : ان لم تطعنى على ذلك والا جردت عليك وحاربتك ، اما بى واما بك .

فلما رأى خاير بك منه الجبد ، أرسل يخادعه فى الكلام ويقول له : ان كان ولا بد وأنت معول على ذلك اذهب الى حلب وخذها ، فان ملكتها فأنا مساعد لك فيما تقدم وموافق لك على ما تقول .

ولما جاء الجواب له بذلك فرح به .

وأرسل خلف سيدى محمد ابن الأمير قرقماش ، وقال له : — انظر كتابة الأمير خاير بك ملك الأمراء الذى تقول انه لا يوافق على شيء من ذلك .

فقال له سيدى محمد : والله انى لم أصدق شيئا من ذلك ، وانما خادعك بهذا الكلام لما رأى منك الجبد ، ولكن ان قبلت رأى اترك هذا الأمر عن بالك ، واقعد فى حالك .

فقال له الغزالي : الذى ظهر لى أنك رجل ابن ناس ، وزينة (١٠٢) مربى فى الدلال ، اقع — أنت فى الشام واحفظ لى البلد الى أن أرجع اليك وتنظر الرجال .

فقال له : هأنا قاعد لك هنا ، واذهب حتى أنظر كيف تصنع ، وما أخوفنى عليك !

ثم ان الغزالي جرد على مدينة حلب ، ولفق له عساكر
من كل جنس من عرب ومن جرکس ، ومن كرد ومن دروز ،
ومن سفل العالم ، وممن لا خير فيه .

وخرج من دمشق فى ضجة عظيمة من شرار الناس وممع
لا يرتجى خيره .

ولما وصلت الأخبار الى نائب حلب ، وكان أميرا من
صناجق السلطان سليم روميا لا قدرة له على تلك الجموع ،
فما ساعه الا أن كتب بذلك كتابا ، وأرسله مع عشرة
جاویشية الى السلطان سليمان ، بأن يرسل له عسكرا يرد
الغزالي ، والا أخذت حلب من يدي ، وهأنا محاصر الى أن
يريد الله بأمر يريده .

فعند ذلك أمر السلطان سليمان اياس باشا الذى كان
أغاة اليكنجرية مع السلطان سليم لما أخذ مصر من الجراكسة ،
وأیضا له معرفة تامة بالغزالي وخاير بك من ذلك العهد .

فخرج من مدينة اسلانبول قاصدا الى مدينة حلب ،
وأخذ خمسة آلاف من اليكنجرية وعشرة آلاف من الاسباهية
ومن الضرابزانات وآلات الحرب وشيئا يفوق الوصف .

هذا ما كان من أمر اياس باشا .

وأما الغزالي؛ فانه كان قبل خروجه من دمشق الشام منع
الدعاء للسلطان سليمان فى الخطبة ، وأمر بالدعاء له ،
وأیضا جعل السكة باسمه ، وتسلمن ، وأطاعته العساكر
وأهل الشام ، وخطب له على منابرهما ، وأمر بالزينة
فزينت له زينة لم يعهد مثلها مدة سبعة أيام .

ثم أمر بالتبريز الى مدينة حلب كما تقدم .

ولما وصل اليها ، وجد أبوابها قد قفلت وطلعت الناس على سورها ، فلما قرب منها رموا عليه بالمدافع والأحجار ، فأمر بالاقامة لأجل أن يحاصرها فمكث ثلاثة أشهر ، ولم يقدر على أخذها ، فدخل عليه الشتاء واشتد البرد ، فما وسعه الا الرحيل عنها ، ونوى أنه ان جاء الصيف يرجع اليها ولا يرجع حتى يأخذها طيبة أو غصيبة .

ثم أمر بالرحيل ، فأخذ عساكر حلب وأهلها فى شتمه وسبه ولعنه ، وهو يسمعهم ويسمع كلامهم وصياحهم وضحكهم عليه ، فرجع مخزيا مشتوما مطرودا .

فلما وصل الى دمشق ، تفرقت تلك الجموع الى بلادهم ، وقد دخل عليهم الشتاء ، وقاسوا من البرد والمطر ما لا يوصف .

وأما الغزالي فإنه ضاق صدره ، وجاءته الأخبار بأن باشة حلب قد كاتب السلطان سليمان ، وأخبره بما فعلت ، وان عساكر الروم قد قدمت عليك مع اياس آغا ، وها هم منتظرون ذهاب الشتاء ودخول الصيف ويأتون اليك فى عسكر بسد الأرض ، فانظر كيف تصنع ، فان أمكنك الهروب فاهرب .

وكان المرسل له هذا الخبر رجلا من أصحابه من أهل حلب ، وسفه رأيه .

فعند ذلك اضطرب حال الغزالي وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم ، وكنتم ذلك فى سره ، وبقي حيران فى نفسه

كيف يصنع ، ان هرب ما يسهل عليه ترك البلاد ، وان أقام
لا قدرة له على ملاقات الروم ، وقد تشتتت منه تلك الجموع
التي كان جمعها وذهبت الى بلادها .

وأيضا انه كان قبل ذلك لما أراد أن يتسلطن دبر حيلة
وطلعت ييده ، وهو انه أمر بعمل مولد ، وبأشر في عمله ،
وأمر بأن يحضره جميع عسكر دمشق الذين كانوا مع
السلطان سليم ، وأبقاهم في دمشق مع قانبردى الغزالي من
السناجق والأغوات واليكتجيرية وغيرهم .

فلما اجتمعوا عنده ، مد لهم سماطا طويلا لم يعمل مثله
أحد ، وجلست الأعيان في أعلى السماط ، ثم من دونهم
بالترتيب الى آخر السماط ، فالتهوا في الأكل .

وكانت ممالكه وأتباعه واقفين خلف الذين يأكلون
على السماط وكل واحد منهم سيفه تحت ثيابه ، وهم
يتعاطون الخدمة .

فعند ذلك أشار لهم ، فحطموا أيديهم في الأروام الذين
على السماط فما شعروا الا ورؤوسهم طائرة ، فوقعت
رؤوسهم في الطعام ، فلم ينبج منهم أحد ، فقتلوهم أجمعين ،
وصار الطعام كله رؤوسا ، وتلف الطعام من كثرة الدماء
والقتلى .

فأمر بإخراجهم ورؤوسهم خارج دمشق ، فأكلتهم الذئاب
والحدأة والغربان .

ولما فعل ذلك ، صفت له دمشق ولم يبق عنده من يعارضه
فيما يفعله ، فعند ذلك تسلطن كما تقدم ، وما زال في هم

وغم حتى فرغ الشتاء ودفئت الدنيا ، فجاءته الأخبار بأن
اياس باشا قادم عليك فى عساكر لا تحصى .

فازداد غما الى غمه ، وأمر بالخروج الى ملاقات
العسكر ، وقال اما ببختى واما ببختهم ، ولكنه ندم على
ما فعل غاية الندم حيث لا ينفعه الندم .

وذلك من الحمق ، فان الأحقق يسعى فى هلاك نفسه
وهو لا يشعر .

وأما اياس باشا فانه لما وصل الى حلب ، خرج اليه نائب
حلب وقابله وأخبره بما فعل من اقفال أبواب البلد ، وانه
رمى على الغزالي من أعلى السور ، وانه أقام محاصرا لهم
ثلاثة أشهر ، ثم دخل عليه الشتاء فرجع الى دمشق وذكر له
جميع ما وقع .

فشكره اياس باشا على ما فعل ، وخلع عليه وعلى أغاة
اليكنجيرية الذين كانوا بحلب ، ثم قصد دمشق والتم (١٠٣)
عليه عساكر كثيرة لا تحصى ، فانه بقى كلما دخل مدينة أخذ
منها جماعة ، فصار فى جيش عظيم .

فلما وصل الى ظاهر دمشق ، أرسل جاويزا بكتاب الى
قائبردى الغزالي بأن يتأهب للحرب والقتال والطمع والنزال
وينظر ما تفعله الأبطال ، وأخذ يوبخه ويحط فى ذلك .

ومن جملة ما قال له فيه : انه لو كان فيك خير كان
لأنباء جنسك فالذى ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير

لغير جنسه ، يا خائن يا قاجر يا غدار يا مكار • وأخذ يسبه
سبا مبرحا ، ويسود وجهه ويلعنه •

ويقول له : انما هذه نيتك الخبيثة انقلبت عليك ،
فسوف ترى صنع الله في غد ان شاء الله تعالى •

فلما وصل ذلك الكتاب للغزالي وقرأه ، ازداد غما على
غمه • وضاق صدره ولم ينم تلك الليلة ولا طرق النوم
جفنه ، وأحس بزوال النعمة عنه ، ولم تبق له حيلة يحتال
بها أبدا •

فما ساعه الا ان تأهب للمقتال ، اما له واما عليه ، وقد
تحقق أنه لا خلاص له من ذلك ، وانه قد خسر خسارنا
مبيناً ، ولكنه لم يظهر شيئاً من ذلك لأحد من خلق الله تعالى ،
وكنتم ما عنده •

ولما طلع النهار ، أمر بإقامة الحرب وقد صفت عساكره
ودق طبله ووقف بنفسه يرتب الميمنة والميسرة ، فلما تم
ذلك واذا بعساكر الروم قد أقبلت صفوفاً صفوفاً ، ووقف
اياس باشا والتحم القتال •

فأمر اياس باشا الرماة أنهم لا يرمون حتى يأذن لهم
في الرمي •

فحمل الغزالي على عسكر الروم حملة واحدة ، فشتتهم
بها ومزقهم كل ممزق ، وصار يقاتل قتال من آيس من
الحياة فقتل من الروم مقتلة عظيمة •

فلما عاين اياس باشا ذلك ، أمر الرماة بأن ترمي
بالبنادق والمدافع والضرايبانات فما شعر الغزالي الا والدنيا

قد انقلبت والقيامة قد قامت وانطبق الجو من الدخان والغبار .

فما كانت الا ساعة واحدة ، وقد ذهبت تلك العساكر والجموع وما سلم منهم الا طويل العمر ، وبقي الغزالي واقفا لا يعرف كيف يصنع ولا أين يذهب ، فالتفت فوجد صنجقه واقفا ليس عنده أحد ، فجاء الى حامل الصنجق ، وكان شابا شجاعا اسمه علي بالي ، رباه الغزالي عنده من صغره ، ولكنه ليس جركسيا ، فلما رآه الغزالي شجاعا قربه اليه حتى جعله حامل لوائه ، وكان يصرخ ويقول : ان عليا هذا عندي أعز من ولدي .

فلما رآه واقفا والصنجق في يده قال له :

— يا ولدي .. اني متى أنت تقف وعساكرنا كلهم هلكوا وتشتتوا ؟

قال : والى أين أذهب ؟ روعي قبل روحك ، لا أفارقك حتى تذهب روعي .

فشكره الغزالي على ذلك . وقال له : يا ولدي ما بقي لنا غير الفرار من هذا العسكر الجرار .

فقال له : والله يا سيدي ما عملت فينا خيرا ، وما ضرك لو كنت باقيا على ما أنت عليه آمنا على نفسك ، وان كنت سلطنا مخفيا سميت في هلاك نفسك وأهلكتنا في جرتك .

قال : ما كنت أظن أن الأمر كذلك ، وان العساكر تفر مني وينقلب الأمر .

فقال له على : ان العارفين قالوا من لم يحسب العواقب
ما الدهر له بصاحب .

فقال : يا ولدى ، مادام هذا الدخان والغبار قائما اقلع
هذا الصنجق من على رمحه وضعه فى مخلاته ، وارم الرمح
وادفن المخلاة فى هذا الكوم العالى ، ودعنا ننزل عن خيلنا
ونقلع لبسنا ونغير حالتنا ، وننجو بأنفسنا ، فاذا رأونا
لا يعرفوننا .

ثم ان الغزالى نزل عن فرسه ، وخلع ما عليه من اللبس
والبولاد الذى لا نظير له ، ودفنه فى التراب وبقي بطن
القميص ورأسه مكشوفة كأنه قرنندلى ، اذا رآه من لا يعرفه
لا يعرفه ، وليط وجهه بالتراب ، وصار كأنه كان مدفونا فى
التراب وطلع .

وأما على بالى فلما رأى ذلك قال له : والله يا سيدى
ليس عندك من الرأى شيء ، فاننا لو كنا على ظهور خيلنا
كنا هربنا وحمينا أنفسنا حتى نخلص من محل الحرب ، ثم
ننزل على بعد ونختفى فى مكان لا يعرفنا أحد ، وأما نزولنا
فى محل المعركة فلا فائدة فيه .

ثم ان عليا ركب فرسه ثانيا ، وأخذ عدته وهم بالهروب
فقال له الغزالى :

— هكذا يا على تذهب وتخليتنى للمدو ؟

فقال له : وما الذى أصنع ؟ أنا قلت لك افعل بنا هذه
الفعال القبيحة التى لا يفعلها الا المجانين ؟

فبينما هم في هذه الحالة الا وقد انجلى الدخان يسيرا ،
ونظر الناس بعضهم بعضا ، واذا بمنادى اياس باشا ينادى ،
كل من جاءنا بالغزالي أو برأسه أو دلنا عليه أو على مكانه
أعطيناه جميع ما يتمناه .

فدكس على بفرسه الى نحو الميدان ، واذا بهم طائفة
من السلحدارية واليكنجيرية .

فلما وصل اليهم قال لهم : أنا أدلكم على موضعه .

فقالوا له : أين هو ؟

فقال لهم : أنا أعرف محله ، وهو بالقرب منكم ولكن
ما أدلكم عليه حتى تعاهدوني على ما أريد .

قالوا له : لك ذلك .

قال : أريد أن أكون أمير سنجق ، فأتى أنا حامل
صنجه وأنا من أولاد الشام ، ونحن طائعون للسلطان
سليمان باطنا ، وكذلك سيدي محمد بن قرقماس .

فقال له الأغا : لك منا جميع ما تريد ان دللتنا عليه .

فقال لهم : اتبعوني .

وقصدوا نحو الغزالي وهو واقف يبرم كما تبرم
القرندلية ، وهو يقول : هو .. هو .

وقصده بذلك حيلة منه لئلا يعرفوه .

فقال لهم على : هو هذا القرندي ، فهو الغزالي .

فقالوا له : أنت تتمسخر بنا يا فاعل يا تارك .

وأخذوا يشتمونه ويسبونونه ، وهموا بقتله .

فقال لهم : امهلوا على ، أنا بين أيديكم ، ان لم يكن

هو الغزالي . والا فرأسي عوض كلامي .

فقالوا له ان الغزالي كان بآله الحرب من الحديد .

قال : نعم .

وحكى لهم ما فعل .

فجاءوا اليه وأحاطوا به ومسكوه ، وهو يهدر كالمجذوب

ويقول : هو .. هو .. هو .

فقالوا له : أنت الغزالي ؟

فقال لهم بعد أن قبضوا عليه وأرادوا قتله : أنا رجل

درويش عريان ومن أين لي أن أكون كالغزالي .

فتحبروا في أمره ، وعلى بالي يحلف ويقول : لا تصدقوه ،

ولكن تعالوا أنا أدلكم على لبسه وفرسه وسلاحه ، انهم على

ذلك الكوم العالي .

فأخذهم وذهب بهم اليه ، واذا بملبوسه كله وصنجه

مدفونان في التراب .

فطلعوه ورأوه فعرفوه ورأوا فرسه عند ذلك المكان ،

وهو ينكر .

ويقول : أنا رجل درويش ، كيف تصدقوا هذا الكذاب ،
انظروا الى حالي .

فلما تحيروا فى أمره قال لهم : أنا أقطع رأسه وأذهب
بها الى اياس باشا فانه يعرفه ، فاذا لم يكن هو فرأسي عوض
عن رأسه .

وبجذب سيفه وضرب رأسه فأطاحها ، وأخذها فى
مخلاته ، وقال أنا وأنتم الى اياس باشا .

وأخذوا معهم ملبوسه وفرسه .

فلما وقفوا بين يدى اياس باشا تقدم ذلك الأغا ، وأخبر
اياس باشا بما وقع .

فقال لهم هاتوا الرأس حتى أنظره ، فانا أعرفه غاية
المعرفة ، فوضعوه بين يديه ، فتأمله ، وقال هذا رأس الغزالي
بلا شك .

ثم قال لهم : أين الذى دلکم عليه ؟

فقالوا له : هذا الرجل .

فسأله عن حاله .

فأخبره بجميع ما فعل الغزالي .

فعند ذلك خلع عليه خلعة عظيمة ، وعمله أمير صنجق ،
وكذلك سيدى محمد بن قرقماس .

ومن أغرب ما وقع أنه فى يوم قتل الغزالى وقف رجل على باب الجامع الأزهر ، وناذى بأعلى صوته : يا جماعة ، ان الغزالى قتل اليوم فاذا لم تصدقونى فاكتبوا تاريخ هذا اليوم .

فكان كما قال .

ذكر

تاريخ قطع رأس الغزالى الخائن

فما مضى الا أيام قليلة حتى جاءت الأولاقية من عند أياس باشا الى خاير بك ملك مصر بما وقع ، وإن الغزالى قطعت رأسه فى اليوم الفلانى وكان العاشر من ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة (★) .

ثم ان اياس باشا أرسل برأس الغزالى الى السلطان سليمان مع الأولاقية ، فزينت البلاد وحصل السرور للسلطان ثم أرسل السلطان الجواب لاياس باشا وشكره على ما فعل ، وأمره بالآلا يمكن العسكر من ائذاء أحد من الرعايا ، ويأمره باقامة الحدود على الوجه الشرعى ، وأن ينصف فى أحكامه الى آخره .

وأما خاير بك ، فانه لما بلغه قتل الغزالى تكدر عيشه وأوصى وأعتق مماليكه .

فقال زوجته : تعيش رأسك وتبقى .

وكانت تسمى خوند مصر بيك (★) وكان قد تزوجها قبله الملك الناصر محمد بن قايتباي ، وبقيت عازبة مدة سلطنة الغوري الى أن تولى خاير بك فتزوجها ، فانه لم يكن في النساء أسخى منها في عصرها .

وكانت خازندارته تسمى دولتباي ، وكانت خوند مصر بيك كاتبة .

فقال لها : ان بين عمرى وعمره مدة سنة ، فكان كذلك .

فما تم العام الا وقد مات خاير بك بفرخ الجمر (★★) ، ودفن في تربته التي عمرها في طريق القلعة بالقرب من باب الوزير (★★★) ، وهي المعروفة الآن بالخيربكية .

وكانت الناس تسمع صراخه في القبر وهو يصيح حتى ضجبت الناس من ذلك .

وكان موته عبرة لمن اعتبر ، وهكذا الدنيا تفعل بأهلها ، فهنيئاً لمن أعرض عنها ، وقنع منها باليسير ، وترك الكثير عن باله ، فتباً لها من دنيا غدارة ، وكفى ذماً لها قوله سبحانه وتعالى : « فلا تغرتكم الحياة الدنيا » . (الآية) .

(★) خوند أو خونده = امرأة أو سيدة وجمعها خوندات . وهي جارية الملك التي ولدت منه . ويثال تولى عقد تزويج جارية السلطان أم بقتة . ونساء مصر يطلقنها على زوجة الملك فيقال صارت خوند الكبرى . والعادة القديمة أنه تكون الخوندات اربعاً : خوند الخوندات ، وهي خوند الكبرى ، وخوند الثانية والثالثة والرابعة . وكذلك تطلق على اخت زوجة الملك ، وتطلق على السيد الأمير ، وهي كلمة فارسية .

(★★) هو الطاعون .

(★★★) باب الوزير ، أحد ابواب القراقة تحت القلعة . وقد سمي به الشارع الذي يبدأ من نهاية شارع التبانة من عند جامع ابراهيم أغا الى قبلى جامع الامير سيف الدين .

قال الراوى . ثم ان السلطان سليمان رحمة الله عليه
 شرع فى التوجه الى الغزو فى سبيل الله تعالى لأخذ بلاد
 روس (★) .

فانه قد كان قوى بأسهم وزاد فسادهم ، وارتفعت
 رؤوسهم بعد موت السلطان سليم ، وفرحوا بموته فرحا
 شديدا ، وطعموا فى أخذ بلاد المسلمين ، وحدثتهم نفوسهم
 الخبيثة بما لا قدرة لهم عليه ، وظنوا أن ولده السلطان
 سليمان لا قدرة له على حرب ولا غيره ، ولد صغير ، فأظهر
 الله سبحانه وتعالى سر نصرته الاسلام ، وجعله صاحب الكلام
 والعدل والانصاف .

وكان قد بلغ السلطان سليمان بأن عند خاير أثر من
 آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسله له (١٠٤) وأرسل
 له بعضاً من ثياب ، فلم يجدوا السلطان سليمان بالقسطنطينية ،
 وكان قد توجه فى الغزاة الى بلاد رودس (١٠٥) فقاتلهم
 وضايقهم ، وعجز ملك رودس .

قال الراوى : لما عجز ملك رودس عن محاربة السلطان ،
 كتب ورقة وربطها فى عود نشاب ، ورمى بالقوس ، فوقعت
 فى وطاق الوزير ، مضمونها ، أن سلطان رودس يريد

(★) فى المخطوطة رقم ٧١٤ جزيرة رودس ، وفى تاريخ ابن اياس جزيرة

رودس .

(١٠٤) المقصود أن خاير بك هو الذى أرسله له .

(١٠٥) فى الأصل (روسيا) وهو غالباً خطأ مطبعى . يحدثنا محمد فريد عن فتح

السلطان سليمان لرودى فيقول : « وبعد ذلك أخذ السلطان - سليمان - فى الاستعداد

للفتح جزيرة رودس . لتكون حلقة اتصال بين مصر والقسطنطينية من جهة البحر

ولكى لا يكون للمسيحيين مركز حصين فى وسط بلاده تلجأ اليه عمارات (اساطيل)

الدول المعادية للدولة العثمانية وقت الحرب . » محمد فريد ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢ -

الأمان لنفسه وماله • قرأوا النشابة وأوصلوها الى الوزير .
والوزير دخلها للسلطان ، فلما قرأها قال للوزير : أرسل
اليه ان كان صحيحا يريد الأمان فقد أعطيته الأمان ، وأخذ
البلاد ووقع الصلح ، وهى الى الآن مع آل عثمان •

قال الراوى : لما مات خاير بك ، أرسل السلطان الى مصر
باشا يسمى قاسم باشا ، وكان مسالما وكان عنده لئين فى
حكمه ، وكان كاشف الفيوم والبهنسا جانم المذكور سابقا ،
وكاشف المحلة اينال الطويل ، ولأه المحلة خاير بك بعد
الصنjq الذى ولأه السلطان سليم •

ثم ان جانم واينال الطويل نوبأ على العصيان وغزوا على
حسن بن مرعى وابن عمه شكر ، وقتلوهما لكونهما غمزوا
على طومانباى ، وأنهما يأخذان (★) البلاد من العثمانة ،
وقالا : قد مات الفاتح - وهو السلطان سليم - وهذا ولده
السلطان سليمان نيس له قدرة على المحاربة ولو جاءنا
حاربناه •

فجمع كل منهما ما قدر عليه من الأشقياء وأوباش
الرجال وساروا الى الشرقية يعكسوا فيها ، فبلغ خبرهم الى
مصطفى وكان باشة مصر ذلك الزمن •

فجمع الصناjq والأغوات والعساكر ، وأراد أن يجرد
عليهم بنفسه •

(★) فى الأصل يأخذوا •

فطلع القاضي موسى بن بركات الى الباشا وقال له :
يا مولانا الوزير ، لا تحمل هما بسبب هؤلاء ، اكتب الى
كتابا بالأمان وأنا أتى بهم اليك ان شاء الله .

فكتبت له كتابا بالأمان واقسم عليه بالاقسام موسى بن
بركات .

وتوجه اليهم ، واجتمع باينال ، وقال له :

— ما جاء بك يا قاضي ؟

فقال له : جئت في أمر صغير يسير .

وأخذ يخادعه بالكلام ، وقال له سأذكر لك ما جئت
فيه .

فقال اينال : أنا أعرف ما جئت فيه ، وهو أنك تريد
الصلح بيننا وبين الباشا ، وبعد أن يقابلنا يقتلنا ، وتصير
أنت مشكورا عنده يا كلب يا ابن الكلب .

فأخذ يلين الكلام لما أن أغلظ عليه اينال .

فقال له : ان الباشا حلف لكم بأنه لا يضركم .

فقال : تكذب .

وازداد غيظا .

وقال : يا أسود ، جئت الينا تعسفس وراءنا ، دايروا
أكتافه .

فأداروه .

وطلع من الخيمة حافيا مكشوف الرأس . وضرب ضربة
أطاح رأسه .

ثم اجتمع معهم الجراكسة الأشقياء ، وجاء الخبر
الى الباشا بأن اينال وجانم قطعوا رأس موسى بن بركات ،
وان الاشقياء مجتمعون للحرب .

فلما بلغ الباشا ذلك امر بخروج العسكر .

فأول من خرج موسى آغا آغا الانكشارية ، والأغوات
الثلاثة ، وأرسل معهم زربطانات كثير . ثم انه أبطل
بلك (١٠٦) الجراكسة لم يرسله معهم .

فلما اقبلوا على العدو أرسلوا يقولون له : فى غد
الحرب .

فلما أصبحوا ، بادروا للحرب والقتال والطعن والجidal
الى نصف النهار ، فجرت الجراكسة من كثرة النيران ،
وأفحش جانم فى القتل ، الا وقد عثر جواده ، فانكسرت
رجله فوقع من على ظهره ، وطلب غيره فلم يأتها أحد .

فحطت العساكر عليه . وقطعوا رأسه وعلقوها على
رمح ، ونادوا عليها ، جانم قتل وهذه رأسه .

فلما سمع اينال ذلك هرب الى نحو غزة .

(١٠٦) أى هوج الجراكسة ، وبلكات النظام أى فرق النظام — محمد السعيد سليمان .
مرجع سابق ، ص ٤٤ .

وقطعوا رأس الصنجق الذى يستحق قطعها ، وتركوا
الهيوشة ، ورجعوا الى مصر منصورين مؤيدين .

ثم انهم لما دخلوا مصر أمر الباشا بتعليق رأس جانم
على باب زويلة ، ثم أرسلها للسلطان سليمان .

قال الراوى : وكان الوزير الأعظم أحمد باشا ، فعزله
السلطان وولى ابراهيم باشا .

ثم ان أحمد باشا جلس فى بيته وهو غضبان الى أن
أرسله الى مصر باشا ، فعصى على السلطان وتتمرد ، وقتل
فى أيامه بقية الجراكسة ، وحرقهم بالنار ، طلعوا المدافع
من السرداب الذى بمصر القديمة وقتلهم الانكشارية .

وكانت المبايعة له فى بر الجيزة فقفلوا عليه باب
القلعة وحاصروهم الى أن غلبهم وأهلكهم أجمعين ، وصادر
جميع الخواجات والتجار وصار يضربهم بمقارع وكسارات .

وكان أحمد بن المرقبان دفتر دار ، وقعد شوية أيام ،
وشنقه وحبس جانم الحمزاوى وظلم العباد .

فى ذات يوم نزل الحمام الذى بالمراغة ، وكان هناك
صنجق يدعى محمد بيك ، فلبس عدته ، وأخذ مماليكه وصار
ينادى : الله ينصر السلطان سليمان ، من جاءنا عليه الأمان .

حتى التم عليه عسكر جرار الى أن أوقفوا على باب
الحمام ، فطلع من السطوح الى المستوقد ، ونفذ الى القلعة .

فلما أن كان الليل ، رحل بمماليكه الى عند أحمد بن بقر (بقرار) .

فلما أصبح الصباح جاءت العسكر الى القلعة فوجدوها خالية .

فعند ذلك قالوا : نتبع أثره .

فسألوا بعض من رآه وهو رايع .

فقالوا لهم : نزل من على عرب اليسار .

فاستمروا يقصون جرتة ويسألون ، والركب الكثير ما تخفى جرتة ، حتى وقعوا به هو ومماليكه ، وجميع من معه .

ثم انهم مسكوه ، وقطعوا رأسه ، وأرسلوها للسلطان من وقتها وساعتها .

قال الراوى : هذا ما كان من أمر أحمد باشا .

وأما السلطان سليمان ، فإنه لما علم بعصيانه جهز له ابراهيم باشا الوزير الى مصر بعساكر ملأت الأرض من كل جنس ، فأخذ معه من الأعيان أغاة الانكشارية وأحمد أغا والأمير مصطفى ، وجاء معهم خلق كثير ، فصادفوا الرأس فى الطريق ، ففرح ابراهيم باشا بذلك وقال : لا بد أن أذهب الى مصر ، وأنظرها وأدبر أمرها .

فجد فى السير الى أن وصل الى الشام .

فلما رآه سليمان باشا باشة الشام - وكان سليمان باشا هذا ولاء اياس آغا موضع الغزالي - ملاقة حسنة ، وقدم له مقدمة مليحة وحظي منه ابراهيم باشا ، فقال له : امض معي الى مصر أقيمك فيها باشا ، فان معي من الخنكار خطا همايونيا أختار من أريد .

فجاء سليمان باشا الى مصر صحبتته .

فلما دخل ابراهيم باشا الوزير الى مصر ولي سليمان باشا باشة مصر ، وأجلسه ورتب الأمور كما أراد ، وهو الذي قرر الجوالى وجعلها موقوفة على العلماء ، وأقر سليمان باشا على مصر ، وأخذ الحمزاوى معه .

وسبب أخذ الحمزاوى هو أنه كان تكلم مع ابراهيم باشا الوزير بسبب مال مصر الذى يتجمد كل عام ، ما أفعل به ؟ .

فان السلطان سليم لما أخذ مصر من الجراكسة ، قال له خاير بك :

— المال الذى يتجمد ، ما أفعل به ؟

قال : أعط المساكين جوامكهم بالتمام من غير اسراف ، وما بقى ضعه فى بيت المال للمسلمين لوقت الاحتياج اليه .

فبقى الأمر على ذلك الى أن جاء ابراهيم باشا كما تقدم .

ثم رجع ورجع معه جانم الحمزاوى .

واجتمع ابراهيم بالسلطان وأخبره بجميع ما فعل ،
وحسن له عبارة بأن غالب مال مصر ضائع ، يتصرف فيه
الكتبة ، وسأله ضبط هذا المال وارساله فى كل عام للصرف
منه على العساكر ، وفى المصالح والغزاة وغيرها .

فأمر السلطان سليمان أن يكون جانم الحمزاوى.
دفتردار على ذلك ، من غير ظلم لأحد ويضبطه على وجه
الانصاف .

فأول سنة ضبطها جاءت سبعة أحمال ، وفى ثانى سنة
جاءت ثمانية أحمال ، وبقيت على ذلك الى أن سافر سليمان
باشا الى الهند وتولى خسرو باشا ، فأرسلها اثنى عشر حملا
بزيادة أربعة أحمال ، فلم يقبل السلطان سليمان الأربعة
أحمال ، وأبقاها على باب الديوان مدة شهر خشية من أن
تكون قد أخذت من أربابها بالظلم .

وأمر بإحضار سليمان باشا وخسرو باشا وقال له :

— لا بد أن تخبرونى هذه الأربعة من أين جاءت ؟

فقال خسرو باشا : سليمان باشا تهاون فى ضبط المال.
فلم ينم ، وأنا قد اهتممت فى ضبطه فنما معى . .

فقال السلطان : قد حصل فى هذا المال الشك ، فأنا
لا أدخله فى خزانتى .

فصرف على غير ما أدخل به الى القسطنطينية .

قال : فلما رجع سليمان من الهند رجع خسرو باشا ،
وأقام سليمان عدة سنين ثم عزل .

وتولى مصر داود باشا الى أن مات بها •

ثم تولى بعده محمد باشا قريب السلطان •

ثم عزل عنها •

ثم تولى بعده على باشا الطواشى ، وكان من أهل الدين فى الصلاح فأقام بها الى أن مات ، ودفن بالقرافة ، بالقرب من تربة القاضى بكار ، رحمهم الله رحمة بالغة ، فانه كان من أهل الله تعالى والصلاح شاهد له •

وهذا آخر ما انتهى من وقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم ، وكان الفراغ من كتابة هذه السيرة يوم السبت سادس عشر صفر الخير من شهور سنة خمس وستين وألف (١٠٦٥ هـ) •

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم •

ملحق (★)

مصر والقاهرة

لم تكن القاهرة عند الفتح العربى لمصر معروفة معالمها على النحو الذى نعهدها عليه الآن ، أو على نحو قريب منه ، وانما كان مكانها الجزء من الأرض الذى يشغله حاليا حى مصر القديمة وما حوله الى الشرق دون الجبل والى الجنوب ، وكان اسمها مصر والفسطاط ، فلم يكن لفظ القاهرة قد عرف بعد .

ولما قدم القائد جوهر الصقلى بعساكر الفاطميين الى ساحل الفسطاط وقت الزوال من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر شعبان سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، نزل شمال الفسطاط فى الأرض التى فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى وبين القصرين ، وما جاورها من الأماكن التى بين الجبل والخليج .

وكانت هذه الأرض رمالا فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالمطرية ، يمر بها الناس عند سيرهم من الفسطاط الى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى أول الاسلام بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبين الخليج الذى يمر بجانب الجبل شرقى العباسية ، وكان ذلك الخليج يمر بقربها وقد زال هذا الخليج الآن ولم يبق له أثر .

عند نزول جوهر بهذه الرحلة لم يكن بها بنيان غير البساتين ، وأماكن قليلة ، منها بستان الأخشيد ، محمد بن

طنج المعروف بالكافوري وكان هذا البستان شرقى الخليج، ومحلّه الآن فيما بين جامع الشعراى والسكة الجديدة قريبا من قنطرة الموسيقى ممتدا فى الجهة الشرقية الى النحاسين ، وكانت مساحة البستان تبلغ ستة وثلاثين فداناً ، وبجانبه من الجهة القبلىة ميدان الاخشىد ، ومحلّه الآن من شاطىء الخليج الشرقى الى شارع السكرىة والغورىة ، وكان فى محل الجامع الأحمر دير للنصارى يعرف بدير العظام .

وكان بهذه الرملة أيضا موضع آخر يعرف بقصر الشوك ، تنزله بنو عذرة ، وصار عند بناء القاهرة خطأ يعرف بقصر الشوك .

وفى تلك الحقبة كان الخليج المصرى ينتهى عند قنطرة يناها عبد العزيز بن مروان سنة تسع وستين ، وموضعها الآن نهاية حارة السيدة زينب ، وكانت الحارة طريقا لا بناء فيه ، يمر الناس من فوق هذه القنطرة الى الشاطىء الغربى للخليج والى ساحل النيل ، وكان فى غربى الخليج تجاه معسكر جوهر قرية اسمها : أم دنين عرفت فيما بعد بالمقسى ، وهى الآن جزء من أجزاء القاهرة على يسار السالك لشارع كلوت بك الى سكة الحديد ممتدا الى الشارع الواقع عليه جامع اولاد عنان ، وكان الخليج فاصلا بينهما وبين الرملة .

وكان فيما بين قرية أم دنين والشاطىء الغربى فضاء لا بناء فيه ، ثم صار بعد بناء القاهرة ميدانا توضع فيه الغلال ، وقد سماه المقرىزى ميدان القمح ، وهو الآن من أجزاء قسم باب الشعرىة ، وكان الواقف بهذا الفضاء يرى النيل عن يمينه من بعد اذا استقبل المغرب ، وعن يساره بستان المقسى محل الأزبكية ، وبعده بساتين حتى الفسطاط .

وكان المسافر من الفسطاط الى الشام من العسكر والتجار وغيرهم ينزل بطرف هذه الرملة فى الموضع الذى كان يعرف اذ ذاك بمنية الاصبع ثم عرف زمن الفاطميين بالجندق ، ويعرف الآن بالدمرداش ، ثم يسافر من منية الاصبع الى بلبيس والعلاقة ثم الى القرما ، ولم يكن هذا الطريق معروفا قديما ، وانما عرف بعد خراب تنيس والقرما ، وكان من يسافر من الفسطاط الى الحجاز برا ينزل ببجب عميرة المسمى أولا ببركة الجب ، والآن يسمى ببركة الحاج وكانت حافة الخليج الشرقية هى الطريق العام .

وكان القادم من الفسطاط الى القاهرة يجد عن يمينه منازل العسكر فى حمل التلال التى تشاهد آثارها الآن قريبا من نهاية شارع السد بالسيدة زينب ، ثم يجد عدة أديرة وكنائس موضع قسم السيدة زينب ، ثم بركة البغالة وبركة الفيل الى سور القاهرة ، وكانت العامة تجلس فى هذا الطريق أمام السور للتفرج على الخليج وما وراءه من البساتين والبرك .

وأما بر الخليج الغربى ، فكان بأوله من الشمال قنطرة عبد العزيز بن مروان ، وفى شمالها البستان الزهرى ممتدا الى مكان باب اللوق ، ويتصل به عدة بساتين أخرى الى المقسى ، وجميعها مطل على النيل ، ولم يكن للشاطيء الغربى للخليج عرض كبير ، وانما يمر النيل فى غربى البساتين على الموضع الذى يعرف الآن بباب اللوق ، وأوله عند جامع الطباخ ويمتد جهة الغرب الى ساحل النيل .

وكانت الفسطاط (مصر القديمة) اذ ذاك مدينة كبيرة ، وهى مستقر الملك ومقام الأمراء ، واليهما تجبى ثمرات الاقاليم ، وكانت ذات عمارة كثيرة السكان ، وكان حدها الشرقى من باب القرافة تحت قلعة الجبل امتدا الى بركة الحبش التى تعرف الآن بالبساتين ، والحد الغربى قناطر السباع الى دير الطين امتدا على ساحل النيل ، والحد القبلى من شاطئ النيل عند دير الطين الى نهاية الحد الشرقى حيث البساتين ، والحد البحرى من قناطر السباع الى قلعة الجبل ، وما بين تلك الحدود كان مشحونا بالعمارة من الدور الفاخرة والأسواق والمباني وكان منها العسكر والقطائع .

وقد تخرب كل هذا واندرست معالمه ولم يبق منه الا القليل جدا ، مثل قسم السيدة زينب وقلعة الكبش وجامع طولون ، والسيدة نفيسة الى آخر مبنى قسم الخليفة وقرة ميدان .

ولما دخلت عساكر المعز لدين الله الفاطمى البلاد المصرية سار الى الفسطاط ، ثم اختار القائد جوهر الصقلى أن يبنى فى شمالها بعيدا عنها فاخطط للعسكر مكانا فى الرملة تجاه قرية أم دنين . وبنى القصر وأدخل فيه دير العظام ، ومحلّه الآن جامع الأقمر ، واختطت كل قبيلة مكانا عرف بها ، وأدار جوهر السور حول منشآته وسمى ما اختطه المنصورية .

وفى خطط المقرئى ، ان القاهرة فى أول الأمر كانت تسمى القلعة ، والطايبية ، والمعقل ، والحصن وقد قصد

جواهر باختطاطها فى هذا الموضع أن تكون حصنا حصينا
للفسطاط ممن يقصدها من جهتها البحرية ، خصوصا
القرامطة الذين كانت بأيديهم بلاد الشام القاصية .

وكانت القاهرة اذ ذاك بين ثلاثة خنادق ، خندق
قبليها ، وهو الذى حفره عمرو بن العاص ، وكان شرقى
قبر الامام الشافعى ، وخندق اليحاميى وأوله الجبل الأحمر
المسمى بجبل اليحاميى ، وخندق من غربيها وهو الخليج
الذى كان معروفا الى عهد قريب ، ومحلّه الآن شارع
بور سعيد ، ولما أدار جوهر الصقلى سورها حفر لها الخندق
الرابع بحريها وأدخل فى السور بستان الأخشيد ومياهه
وجعل دير العظام وقصر الشوك ضمن القصر الكبير ، فكان
البستان بين القصر والخليج ، وكان البستان كبيرا جدا ،
ومحلّه الآن حارات اليهود والخرنفش حتى شارع النحاسين .

وكان فى السور الذى بناه جوهر عدة أبواب ، ففى
الجهة البحرية باب النصر القديم ، وقد كان بجوار زاوية
القاصد ، وباب الفتوح القديم وكان بجوار حارة بين
السيارج ، وبالجهة القبلىة بابان متلاصقان ، يسميان بابى
زويلة ، ومكانهما بجوار سبيل العقادين ، وفى الجهة الشرقىة
الباب المحروق القديم وباب البرقىة ، وكان خارج حارة
البرقىة التى اختطها جماعة من أهل برقة ، وهى التى تعرف
اليوم بالدراسة وفى الجهة الغربىة باب سعادة ، وباب آخر
يسمى باب القنطرة ، أقيم بالقرب من القنطرة التى بناها
جوهر على الخليج ، يمر منه السالك من باب مرجوش الى
باب الشعرىة ، وباب ثالث بالقرب من مسجد المؤيد ، وباب
رابع يعرف بباب الخوخة ومحلّه تجاه جامع الشيخ فرج .

وكان الذهاب من الفسطاط الى عين شمس (المطرية) يسير على ساحل النيل القديم ثم يسير على شاطئ الخليج الشرقى ، فيتكون عن يمينه بركة الفيل الصغيرة (بركة البغالة) ثم يلي هذه البركة بركة الفيل الكبيرة وتمتد بركة الفيل الكبيرة الى قرب باب زويلة ، ويحدها من جهة الشرق شارع السروجية ، وكان بساحلها الشرقى بساتين تمتد الى الرميطة والسيدة نفيسة وتتصل بها بساتين أخرى عند القطائع والفسطاط الى النيل ، ومن جهة الغرب الطريق المار شرقى الخليج ، وهو الشارع المعروف الآن بدرب الجماميز وعلى حافة هذه البركة بنى بعد هذا جامع بشتاك (تكتب أحيانا بشتك) وغيره من المباني ، ومن الجهة القبليّة الجسر الأعظم وهو الطريق الذى يمر تحت قلعة الكباش ويوصل من الصليبية الى قسم السيدة زينب ، ويحدها من الجهة البحرية الشارع المعروف بشارع تحت الربع .

وكان السالك على حافة هذه البركة من الجهة الغربية فى طول الخليج يشاهد غربى الخليج النيل وبينه وبين الخليج بساتين على ضفته الغربية ممتدة الى قنطرة باب الخلق ، فاذا حاذى السالك القاهرة كانت عن يمينه وجملة بساتين أخرى عن يساره ممتدة الى النيل ، والى قنطرة البكرية الموجودة الآن بشارع العباسية قرب جامع الظاهر شمالا .

وكان فى شمال القاهرة مزارع وبساتين ممتدة الى المطرية ، ولم يكن فى الجهة الشرقية الا جبل الجيوشى .

ولما استقر الفاطميون فى مصر أحدثوا فى ضواحيها الأربع المباني الفخمة والمناظر البهيجة والبساتين النضرة .

ثم ان جوهرا بنى الجامع الأزهر قبلى القصر الكبير ، وجعل بين الجامع والقصر اصطبل القصر ، وبه الخيول الخاصة بالخليفة ، وكان مفصولا عن الجامع برحبة ، ومحل الاصطبل حاليا شارع الشنوانى وما عليه من المباني والأزقة ، وبني مدفنا لآباء المعز لدين الله الذين أحضر معه أجسادهم فى توابيت من بلاد المغرب ، وكان هذا المدفن مكان خان الخليلي المعروف الآن .

ولما كانت الشدة (١٠٧) فى زمن الخليفة المستنصر وطلب عساكر الأتراك منه النفقة فمأطلمهم هجموا على هذه التربة وائتهبوها بما فيها من قناديل الذهب والمداخن والمجامر وحلى المحاريب ، ثم لما زال ملكهم وانقرضوا وتداولت الأيام والدول وأنشأ الأمير جهار كس الخليلي أيام الناصر بن قلاوون خانه المعروف بخان الخليلي ، أخرج من هذه التربة عظام الفاطميين فألقيت فى المزابل على كيما ن البرقية .

وأما الفسطاط فكانت مقر الأعيان وأرباب الثروة ورجال العلوم والصنائع والحرف ، وكانت الثروة اذ ذاك كبيرة والتجارة واسعة بسبب اتساع ملك الفاطميين ، فانه كان ممتدا الى أقصى بلاد الشام والمغرب ، وكانت تأتيتها البضائع مما دخل تحت ملكهم ومن غيره ، وقد ساح فى بلاد مصر بعد بناء القاهرة بخمسين عاما عالم من الفرس ، اسمه الناصرى خسرو ، ووصف القاهرة والفسطاط ، فقال فى رحلته المعروفة بسفر نامة :

« ان الفسطاط تظهر من بعد كالجبل ، فيها منازل من سبع طبقات فاكثر وسبعة جوامع كبار ٠٠ وان القاهرة

لا يوجد لها شبيه في الدنيا ، وقد حُسبت فيها عشرين ألف دكان ، جميعها ملك السلطان ، وأغلبها مؤجر بعشرة دنانير ، والعمامات والوكائل وغيرها من المباني لا يحصى عددها ، وكلها ملك السلطان ، لأنه كان ممنوعا في القاهرة التملك لغيره » .

واستمر العمران في مصر والقاهرة وكثرت المباني الى أن كان حريق مصر الذي قام به شاور بن مجير السعدي الوزير وأمير الجيوش في عهد الخليفة القاصد لدين الله بن عبد الله بن يوسف آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، فقد تحالف شاور مع جيوش الفرنج على مقاومة أسد الدين شيركوه وأحدث بمصر حريقا استمر أربعة وخمسين يوما وأتى على كل ما فيها من المباني ، فأصبحت الخراب والتلال التي تشاهد الآن جنوبى أرض المدابغ بالقرب من كنيسة مارجرجس بالقاهرة ، وأما القاهرة فقد نمت وزادت بعد خراب الفسطاط واتسعت دائرتها بانتقال من انتقل اليها ممن كان في الفسطاط وغيرها ، الى أن حصل فيها الوباء العظيم فعمم الخراب وشرع الناس في هدم الدور .

ولما زالت الدولة الفاطمية واستقرت الدولة الأيوبية جد صلاح الدين الأيوبي في العمارات وأباح سكنى القاهرة للمخاص وألغام ، فزادت في الاتساع وهدم حارات العبيد ، وموضعها اليوم الداودية والقربية ، وجعل مكانها بستانا وبنى قلعة الجبل وسور القاهرة وهدم ما كان هنالك من المساجد وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصفار التي كانت بالجيزة تجاه مصر ، وكانت كثيرة العدد ، ونقل حجارتها وبنى بها السور والقلعة ، وبنى قناطر الجيزة لسهولة نقل الأحجار عليها .

وفى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بنيت قلعة جزيرة الروضة ، وانتقل السلطان إليها وبنى الناس على ساحل النيل المقابل للجزيرة الدور العظيمة وسكنها عليه القوم ، ومكانها حاليا جنينة السادات بمصر القديمة ، وامتدت العمارات الى المدرسة المعزية بأخر مصر العتيقة ، وكانت هذه الجهة من أعمر الجهات تتصل مبانيها بالعمارة الممتدة الى الكبش وجبل يشكر الى دير الطين ، وتزايدت العمارات بالحسينية حتى صارت من الريدانية الى باب الفتوح ، وعمر ما حول بركة الفيل والصليبة الى جامع ابن طولون وما جاوره الى المشهد النفيسى ، وحكر الناس ارض الزهرى وما قرب منها وهو من قناطر السباع الى منشأة الوهرانى ، ومن قناطر السباع الى البركة الناصرية الى باب اللوق الى المقسى ، وبنى السلطان القصر الأبلق بالقلمنة وعمل بجانبه بستانا متسعا ، وكان ذلك القصر مشرفا على الرميلة وقرية ميدان وكان بداخله ثلاثة قصور ، وجميع قصور الأمراء ترفع اليها المياه من النيل بدواليب تديرها الحيوانات ، فتنقلها من موضع الى أعلى منه حتى تصل الى القلعة .

وفى عهد قلاوون حفر خليج من النيل لتمر فيه المراكب الى ناحية سرياقوس وأخذ الناس فى العمارة على حافتي الخليج فيما بين المقسى وساحل النيل ببولاك ، وكثرت العماير على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط الى حيث يتصل بالخليج الكبير فى أرض الطبالة والى سرياقوس وتنافس الناس فى السكنى هناك .

وكان النيل قد انحسر عن جانب المقسى الغربى ، وصار هناك رمال متصلة من بحريها بجزيرة الفيل ومن قبليها

بأراضى اللوق ، فعمر الناس فى تلك الرمال ، وهى الجهة التى تعرف اليوم بببلاق ، وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور حتى لم يبق فيها مكان بغير عمارة ، وكثرت المباني من الجهة القبلىة الى القاهرة ، وعمرت القرافة من باب القرافة الى بركة الحبش طولاً ومن القرافة الكبرى الى الجبل عرضاً ، واتصلت مصر بالقاهرة حتى صارتا بلداً واحداً .

ويذكر المقرئى فى خططه أن عدد ميادين القاهرة كان تسعة وأربعين ، وأنه فى زمن الدولة الفاطمية كان القصر الكبير والقصر الصغير منفصلين بميادين كبيرة ، وفى مواضع أخرى من القاهرة كانت هناك رحاب واسعة تجاه منازل الأمراء ، ولما زالت الدولة الفاطمية كان عدد الميادين داخل القاهرة عشرة ، وبقي ذلك فى الدولة الأيوبية الى زمن السلاطين الجراكسة ، فكثرت البناء داخل القاهرة وخارجها ، ولما حصل البناء خارج البلد فيما كان هناك من البساتين كان خارج القاهرة من جهاتها القبلىة والغربية والبحرية عبارة عن قصور وبساتين تتخللها ميادين كبيرة ، فى الجهة القبلىة ميدان ابن طولون ، وميدان الملك العادل أمام الكيش على بركة الفيل ، وميدان المهارة والميدان الناصرى ، وكانا فى الأرض الواقعة تجاه القصر العينى والقصر العالى ، وفى الجهة الغربية كان ميدان الصالح والميدان الظاهرى فى الأرض الواقعة تجاه قصر النيل ، وميدان العزيز تجاه منظره اللؤلؤة من أرض بركة الأزبكية ، وفى الجهة البحرية كان ميدان قراقوش الذى يوجد فى بعض مساحته جامع الظاهر .

وكان الحكام يتأثقون فى قصورهم فى تلك الميادين ، وكانت أيام خروجهم إليها أيام فرح وسرور ، وكان الناس يجدون بعد فراغهم من الأعمال فى المواسم والأعياد المحلات العديدة للنزهة والرياضة .

ولقد كان شكل القاهرة فى زمن القائد جوهر مريعا تقريبا ، وطول كل ضلع من أضلاعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه نحو ثلاثمائة وأربعين فداناً ، منها نحو سبعين فداناً بنى عليها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافورى ومثلها للميادين ، فيكون الباقي وهو الذى توزع على الفرق العسكرية مائتى فدان فى نحو عشرين حارة ، رسمت بجانبى القاهرة ، وكان سور المدينة بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً ، وفى سنة ست وثمانين وأربعمائة هدم السور وبنيت الأبواب من حجر وجعل عرض السور الجديد نحو سبعة أمتار ، وبلغت مساحة القاهرة أربعمائة فدان .

وفى سنة ست وستين وخمسمائة ، فى زمن صلاح الدين الأيوبي شرع فى عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة وبناء من الحجارة ، ولكنه مات قبل أن يكمل ، وجعل خلفه خندقاً .

وكان شكل السور غير منتظم ، وهو عبارة عن شكل كثير الأضلاع ، وقد زال أكثر الأبواب وتغير شكل المدينة الى ما هى عليه الآن .

1. 11. 1919

1

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

1. 11. 1919

مسرد بأهم المصطلحات المندوكية والعثمانية الواردة بالكتاب

انظر مادة أمير كبير

أمير سلاح

راجع مادة أمير كبير

أمير كبير

وظيفة ذات شأن عظيم . يقوم
بخدمته شاغلها ٢٥٠٠ مملوك .
وشاغلها من مقدمي الألوف . ونانت
الوظائف حسب منازل أصحابها
كالتالي : أمير كبير ، ثم يليه أمير
سلاح ثم أمير مجلس ثم أمير دوا دار
الكبير ، ثم أمير أخور الكبير . ثم
رئيس نوبة النواب ثم أمير حاجب
الحجاب ثم أمير خازندار الكبير ،
ثم أمير الحاج الشريف ، ولا تشغل
هذه الوظائف الا من جملة مقدمي
الألوف .

أمير مجلس

يدير مجلس السلطان أو الأمير .
آثار لهذا المنصب الفلقشندي في
صبح الأعشى .

الانكشارية

أو اليكنجيرية أو الينكجيرية من
الكلمة التركية Yeni بمعنى جديد
و كرى Kery بمعنى عسكر - أي
بمعنى العسكر الجدد ، وهم جيش من
المشاه أنشئ في عهد السلطان
العثماني أورخان ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م .

(١)

اتابك

ويكتب أيضا أطابك ، مقدم
العسكر .

أجناد الحلقة

هم الأكثر عددا في التشكيل
العسكري المملوكي ، وكانوا بمثابة
الجيش الدائم للدولة . عنهم
انظر ص ٤٧

أكديش

والجمع أكادش وأكاديش -
فارسية دخلت التركية - فرس
هجين .

أمير أخور

المشرف على اسطبل السلطان
أو الأمير .

أمير الحاج الشريف

انظر مادة أمير كبير

أمير حاجب الحجاب

انظر مادة أمير كبير

أمير خازندار الكبير

انظر مادة أمير كبير
أمير دوا دار الكبير

أو العياط تعني الصباح وهي في
اللهجة اللبنانية بهذا المعنى ،
وانصرف معناها عند العامة في مصر
الى البكاء ، ويستخدمها ابن زنبيل
بالمعنى الاول .

(ج)

الجاشنكير

في الأصل وظيفة يقوم شاغلها
بتذوق المأكول والمشروب قبل
السلطان أو الأمير خوفا من أن يكون
مسموما .

جامكية

راتب

الجراكسة :

هم أبناء شعب موطنه غرب
القوقاز وقسم من الشاطئ الشرقي
للبحر الأسود ، وقد هاجروا الى
تركيا وسوريا والأردن ، وقد غلب
عنصرهم على دولة المماليك الثانيه .

الجنيب

هو الفرس الذي يسير بلا راكب
الى جانب فرس آخر مركوب .

(خ)

الخاصكية

خاصة السلطان من المماليك ،
وهو الذي قام شخصيا بالاشراف
على تربيتهم . وهم أكثر قربا وحظرة
من الأجلاب .

الخانقاه

كلمة فارسية معناها بيت العبادة .
يقيم فيها الصوفية .

كان جنوده عزابا وفي عهد السلطان
سليم سمح لهم بالزواج بشرط كبر
السن ، ثم أطلق حق الزواج .
وارتبط الانكشاريه بالطريقة
الصوفية البكتاشية .

أولاقية السلطان

أي رسل السلطان .

(ب)

البريد

مسافة تقدر باثنى عشر ميلا .

البكاوية

طريقة صوفية تنتسب للشيخ اسد
الأبو بكرى . ذكر على مبارك راويته
ووصفها .

بورصة

وتكتب أحيانا برصه ، منطقته
ومدينة بأسيا الصغرى . كانت
عاصمة للدولة العثمانية فى الفترة
من ١٣٢٧ الى ١٣٦١ ، ثم انتقلت
العاصمة الى أدرنة ثم الى استانبول
(اسطنبول) سنة ١٤٥٣

(ت)

الترايبى

والجمع ترايبون أى المماليك
الذين تم جلبهم أطفالا وتمت
تربيتهم منذ الطفولة الى أن صاروا
فرسانا .

الترسيم

التحفظ وتحديد الإقامة .
التعيين

خوند

أو خونده ، سيده وجميعها
خوندات وهي جارية الملك التى ولدت
منه . ونساء مصر يطلقن على زوجه
الحاكم وتطلق كذلك على أخت زوجة
الملك وتطلق على السيد الأمير وهي
فارسية .

أزعر

جمع أزعر ، والمقصود العوام من
أهل المدن ممن ليسوا بمالك
أو بدوا .

(س)

السردار

أى القائد ، من الفارسية : سر
بمعنى الرأس ، ودار بمعنى صاحب .

(د)

الدبابة

والجمع دبابات . آلة حربية
تشبه البرج المتحرك على عجلات .
هذا البرج من عدة أدوار . تستخدم
فى مهاجمة الحصون وتسلق
الأسوار .

(هـ)

الصنجق

أو السنجق ، مفرد صناجق .
كلمة تركية معناها العلم (بفتح
العين) أو اللواء وقد تطلق على
القسم من الولاية الكبيرة والصنجق
أيضا هو حاكم هذا القسم من
الولاية ، وقد تكون الصنجقية مجرد
رتبة دون أن يكون حاملها حاكما .

الدوادار

أى شاغل وظيفة الدوادارية أى
حمل دواة السلطان وإبلاغه بالرسائل
الصادرة عنه وتقديم الشكاوى
إليه .

الصوباشى

وظيفة عسكرية فى الجيش التركى
وكان راتب النفر الصوباشى
٣٠ ديناراً شهرياً ، بينما راتب نفر
الانكشارية ١٥ ديناراً .

(و)

داس نوبة النواب

انظر أمير كبير

(ط)

الركيز

الجزء الأسفل من السيف

طبلخانه

(ق)

الزردخانه

بيت الزرد أى بيت السلاح ،
وتطلق أحيانا على السلاح نفسه .

طبل خانه أو تكتب متصلة
طبلخانه أو طبلخانه هي دار بها من
الكوسات التى تدق على باب السلطان
وأربع طبل (طبالات) كبيرة وأربعة
زمر (جمع زمار) وعشرون نفيرا
ولها رئيس وعدة خدم .

(ع)

عراده

والجمع عرادات ، وهي آلة حربية أصغر من المنجنيق ترمى بالحجارة الى بعيد .

العلوج

المفرد علج . كلمة تطلق على من تحول للإسلام ولم يحسن اسلامه .

(ف)

فرخ الجهر

كلمة تطلق على مرض الطاعون

الفلاوية

أو الفلاتية هو أوباش الناس .

(ق)

القرانصة

الجند القرانيص وهم الموصولون بالديوان ، أصحاب الأرزاق الكبيرة ويكونون في منزلة أمراء الخمسوات . ويسمون أيضا الوغاد .

القابوجيه

الحجاب والمفرد قابوجي

(ك)

الكاشف

جمعها كشاف أو كشفه (بفتح الكاف والشين والفاء) ، ومنصب الكاشف كان يفوق منصب والي الاقليم في عهد السلطنة المملوكية .

كردوس

الكردوس أو الكردوسه وجمعها كراديس هي الفرقة الحربية الراكبة .

(م)

المجاليب

الماليك الذين يشتريهم السلطان ويعهد لقدمي الماليك بتدريبتهم وتعليمهم ، لذلك فهم أقل حظوة من الخاصكية الذين يدربهم السلطان شخصيا .

المشاعلية

المكلفون بتنفيذ أحكام الوالي وكان عملهم - في الاصل - السير أمام الوالي بالمشاعل .

المرد

جمع أمرد ، وهو الصبي البجيل الذي لم تنبت لجنته ولم ينبت شاربته .

مكاحل البارود

آلة حربية تقذف النفط .

المكحل

مستول مكاحل البارود وهي المدافع على أنواعها .

(و)

الوطاق

هو الخيمة الكبيرة تمتد للقادة وتسمى أيضا خيام المعسكر . وجمعها وطاقات .

(ي)

اليزك

بفتح الياء والزاي هو رئيس العسس .

اليكنجريه

انظر الانكشارية

الكشاف

حسبنا الألف واللام من الترتيب *

اعتبرنا (ابن) و (ابو) داخل الترتيب *

اعتبرنا باشا ضمن الاسم المملوكى ودخلت فى الهجاء *

(١)

ابن هرسك : ٩٠

ابو ايوب الأنصارى ، مدفن : ٨٦

ابو بحر بن الجيعان : ٢٥٩

ابو حمزة : ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٠

أبو زيد ، نائب قلعة الروم : ٧٩

ابو السعيد الجارحى : ٢١٩

ابو فندون : ١٩ ، ٢٠ ، ٣٨

أبو الغداء : ٢١

ابن المغاخر والمعالى . الأمير : ٧٨

ابو يزيد ، الأمير : ١٩٦

الأجالب : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦

أجداد الحلقة : ٤٧

أحمد ، (أخو السلطان سليم) : ٨٤ ،

٨٥

أحمد باشا : ٢٨٨ ، ٢٨٩

أحمد البدوى : ٩٧ ، ١١٦

أحمد بن بقار

انظر أحمد بن بقار

أحمد بن بقار : ٨١ ، ١٧٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٩

أحمد بن الرمال

انظر

أحمد بن زئيل

أحمد بن زئيل : ٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ،

٩٩ ، ١٧٠

أحمد بن المرقبان : ٢٨٨ ،

أحمد الرفاعى : ٩٧

أبراج الحصار : ٥٢

أبراهيم باشا : ٢٨٨ ، ٢٩٠

أبراهيم السمرقى : ٩٧ ، ١١٦

أبوت ، الأمير : ٧٨ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٧٠ ،

١٨٦ ، ١٩١ ، ٢٢٢

أبن ابن سوار : ١٦

أبن اياس : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٥

أبن ابيك : ٢٤ ، ٣٩

أبن تغرى بردى : ٢٤

أبن الجيعان ، شرق السين ، ابو ابياء : ٣٩

أبن حبيب ، الحسن بن عمر : ٣٩

أبن خلكان ، ابو العباس : ٣٩

أبن دقماق : ٢٤

أبن زئيل ، انظر أحمد الرمال : ١٠ ، ١٢ ،

١٤ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٢

أبن شاكط الكتبى : ٤٠

أبن شاة سوار : ٩٠

أبن شاهين غرس الدين الظاهرى : ٤٠

أبن عبد الظاهر ، محبى الدين : ٤٠

أبن عداس : ٣٠

أبن الشيخ إبراهيم الكلشنى : ٢٥٧

أبن عمر الأمير على ، شيخ جرجا : ٨٠

أبن فضل الله العمري : ٢٢

أبن الملاح : ٣٦

- أحمد السندويي : ٢٠
أحمد تسليبي ، ابن عبد الغني الحنظلي المصري
٤١
أخشيائي ، أمير مجلس : ٩٧
الأخشيدي : ٢٩٣
أرزمك ، الأمير : ٧٧
أرض روم ، في الأناضول : ٨٤
أركماس ، أمير سلاح : ٧٧ ، ٩٧ ، ١٦١
الأرمن : ٢٠
أزيك المكحل . الأمير : ١١١ ، ١٣٣ ، ٢٦١
الآزبكية ، حى الآزبكية ، ١١٣ ، ٢٩٤
الآزهر : ٩
إسبانيا : ٣٧
الإسبانية : ٢٧٢
إستانبول : ٨٤ ، ١٠٥
أسد الدين شيركوه : ٣٠٠
إسطنبول
أنظر
إستانبول
إسكندر السادس : ١١
الإسكندرية : ٢٠٦ ، ٢٦٢
إسلامبول ،
أنظر إستانبول
إسماعيل شاة : ١٣ ، ٥٣
إسماعيل الصفوي
أنظر
إسماعيل شاة
إسنا : ٨
أصلان بن يداق ، أمير : ٧٩ ، ٩٨ ، ١٠٢
أصيل الطويل : ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
أخنة : ١٣٠
أطلس ، كشف المحلة : ٨٠
أطفيح : ١٤٦ ، ١٧٥ ، ١٨٠
الغاة الإنكشارية : ٢٨٧
أقباي الطوبل ، الأمير : ٧٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣
١١٣
أقبودي الغزالي ، نائب حماة : ٧٩
الإقطاع : ٦٥ ، ٧١
أكتوبر ، معركة : ٥٨
- الإكراد ، دولة : ٦٦
إمبابة ، موقعة : ٧٢
أم دبيس ، قرية : ٢٩٤
أم دينار ، قرية : ٢٠٦ ، ٢٠٧
أمير الحاج الشريف
أنظر
أمير كبير
أمير حاجب الحجاب
أنظر
أمير كبير
أمير خازن دار الكبير
أنظر
أمير كبير
أمير دوا دار الكبير
أنظر
أمير كبير
أمير سلاح
أنظر
أمير كبير
أمير كبير : ٧٧
أمير كيرنجاي : ١٣٨
أمير مجلس
أنظر
أمير كبير
أمير المؤمنين خليج : ٢٩٣
الأناضول : ١٠ ، ١٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٨٧
أنس باي حاجب الحجاب : ٧٨ ، ٩٩ ، ١١١ ،
١٣٣
الانكشارية : ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ،
٨٩ ، ١٢٤ ، ١٥٢ ، ١٧٥ ، ٢٠٩ ،
٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٣ ،
٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩
أهرام المجيزة : ١٦٤ ، ٣٠٠
أوريا : ١٠ ، ٣٧ ، ٦١
أورخان : ١٠ ، ٥٩
أولاد النهرمة
أنظر
أولاد الناس

اسبحر الاسود : ٨٤

اسبحر المتوسط : ٣٧

البحرية . مصاليك : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧

بحسبى . الامير : ٣٦ ، ٤٦ ، ٧٧ ، ٩٩ ، ١٢٣

بدير العظام : ٢٩٤

البرتغاليون : ١٥ ، ٥٤

برديك الامير : ١٩٦

برسبى الاشرفى . كشاف أسبوط : ٨٠ ، ١٠١ ، ١٢٣

برصة

انظر

بورصة

برقة : ٢٩٧

برقوق : ٦٩ ، ٢١٤

بركة الانبياء : ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٣٠٢

بركة البغلة : ٢٩٥ ، ٢٩٨

بركة الحب : ٢٩٥

بركة الحاج : ٢٥ ، ٢٩٥

بركة الحبش : ٣٠ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢

بركة الفيل : ٢٦٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠١

بركة النصرانية : ١١٢ ، ٣٠١

بريس دافين : ٨

بريساين ، حتى : ٢٩٦

بستان ، المقسى : ٢٩٤

بسمارك : ٢٤٦

البشرية : ٨

البشناق ، بلاد : ١١

بغداد : ٦٩

البيدادي الحنبلى : ٣٦

البكرية : ٢٠٤ ، ٢٠٥

البكرى الصديقى ، محمد بن ابي سرور : ٤١

البكرية : ٢٩٨

بكطاش : ٥٩

بلاد الاطحية : ١٦٩

بلاد البقدان : ١١

بليس : ٢٩٥

البلقان : ٥٨

اولاد الناس : ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٤٧

الاولاحية : ٢٨٢

اياس ، انما : ١٥٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٧٣

اياس ، باشا : ٢٢١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

ايزونطو ، نهر : ١١

الايطاليون : ١١

اينال : ٢٨٦ ، ٢٨٧

اينال الاجنود : ١٠٣

اينال الطويل : ٢٨٥

ايمان الثالث : ١٠
الايبوية ، دولة : ٤٤ ، ٦٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢

(ب)

باب البحر : ٢٨

باب برسية : ٢٩٧

باب الجبية : ٨٣

باب الخلق : ١١٤ ، ٢٩٨

باب الخوخة : ٢٩٧

باب زويلة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨

باب سعادة : ٢٩٧

باب السعوية : ١٧٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧

باب الفتوح : ٢٩٧ ، ٣٠١

باب الفرافة : ٢٩ ، ٣٠٢

باب الفترة : ١٧٥ ، ٢٩٧

باب اللوق : ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

باب مرجوش : ٢٩٧

باب النصر : ١٧٦ ، ٢٩٧

بايزيد ، السلطان : ١٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٢٦١

بايزيد خان الثالث

انظر

بايزيد ، السلطان

مجلدیں

اصطلاح

سلسلہ

الجامع الزمر : ٢١ ، ٢٨٢ ، ١٩٣ ، ٢٩٩

الجامع الزمر : ٢٩٤ ، ٢٩٦

جامع اولاد عنان : ١٩٤

جامع پشتك : ٢٩٨

جامع الحاکم : ٢١

جامع السعراقی : ٢٩٤

جامع السیخ فرج : ٢٩٧

جامع شیخو : ٣٠

جامع الطبایح : ٢٩٥

جامع طولون : ٢٩٦

جامع الظاهر : ٢٩٨ ، ٣٠٢

الجامع المؤیدی : ٢٩

جامعکيه : ٢٣٩

جانبلاط ، الابج : ١٦١

جان بردی الغزالی ، الامیر : ٩٦ ، ٩٩

١٢٣

جانبلاط ابو ترسين ، الامیر : ٧٨ ، ٩٩

١١٤ ، ١٣٣

جان بردی ، نائب البيرة : ٧٩

جان بردی ، نائب بیروت : ٩٩

جائیم الاشرقی ، کشف الفیوم وبنسا :

٨٠ ، ٩٧

جائیم احمدزوی : ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

جائیم دوادار ، الامیر : ١٢٣

جائیم السیقی : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨

١٦٠ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨

الجباووشية : ١٩٠ ، ٢٥١

الجبل الأحمر : ٢٦

جبل الجبوشی : ٢٩٨

جبل الیحامیم : ٢٩٧

جبل یشکر : ٣٠١

الجراسکة ، المالیک : ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩

٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩١

٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٢

١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦

البنساقینین : ١١٠

البنساقية ، جمهورية : ١١

البنساق : ١٢٣ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥

بنو قشاری : ٥٩

بنو حرام : ١٧٧

بنو عذرة : ٢٩٤

بورسعيد ، شارع : ٢٩٧

بورصة : ٦١ ، ٨٤

جولاق : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٢٥٢ ، ٣٠١

٣٠٢

بول كولز : ٦٢

بولونيا : ١١

بیرس ، ابن عم السلطان الغوری : ٩٨

بیرس الدوادار الفاصری المنصوری : ٢٠

بيت قراية : ١١٣

بيت جانبلاط : ١١٣

بيت یزبك : ١١٣

البيرة : ١٣ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩١

بیروت : ٧٩

بین القصرین : ٢٥٢ ، ٢٩٣

(ت)

تالی بت اسخزسان ، الامیر : ٧٨

تالی بت السجی ، الامیر : ٩٦ ، ١١١

تاسن : ٨٤

التجافه : ٥١

الترکمانی الصالحی : ٦٧

تشلدیران : ١٢ ، ١٥٥

تمران الاشرقی ، الامیر : ٧٩

نعم الزدکائی الامیر : ٧٨

نعم الزدکاش ، الامیر : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٦١

١٨٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٦

نئیس : ٢٩٥

توران شاة : ٦٦

نیمور بهادر خان : ١١٨

تیمور لک : ٥٦ ، ٢١٤ ، ٢٦٢

(ج)

الجاشنکیر : ٦٧

حسن بن مرعي . شيخ الغريبة : ٢١ .
 ٣٢ ، ٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
 ٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ .
 ٢٤٧ ، ١٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ .

الحسينية : ٣٠١

حلب . ١٧ . ٧٩ . ٩١ . ٩٤ . ٩٧ . ١٠٢ .
 ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٨٨ ، ٢١٤ .
 ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

حماد بن الخير . شيخ الجيزة : ٨٠ .
 ١٦٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٦٠ .

حمام يشته : ١١٢

حصاة : ٧٩

الحماوى : ١١٠

حتى الانتشارية : ٨٧

(خ)

خسكية : ٤٦ . ١٠٢

حان انطوني : ٢٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩

السانده : ١٢٧ ، ٢٠٩

خان يونس : ١٢٣

خاير بك . امير : ٢٠ ، ٢٧ . ٧٧ ، ٧٩ .

٨٣ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١٠ .

١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .

١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .

١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٥ .

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٠ .

٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ .

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

خدايردى . الامير : ٧٧

الخرنقش : ٢٩٧

خسرو باشا : ٢٩١

خليل بن شامين الظاهري : ٢٤

خندق الحماميم : ٢٩٧

الخواسان : ٥٤

١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦١ .
 ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٩٠ .
 ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .
 ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ١١٥ ، ٢١٦ .
 ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ .
 ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ .
 ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ .
 ٢٨٨ ، ٣٠٢ .

أنشزرى . شمس الدين ابو عبد الله : ٣٩

النجيزة الوسطى : ٢٨

الجبليان : ٤٦ . ٥٢ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٦ .

جلجوكية : ١٨٩

جماعة الفلاح : ٤٣

الجندي : ٢٩٥

جنگيز خان : ٧

جنوب اريتريا : ٥٤

جذبة السادات : ٣٠١

جهرس الخليجي : ٢٩٩

الجوالى : ٢٩٠

الجوسن : ٥١

جوهر الصقلي : ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

٢٩٩ ، ٣٠٣ .

الجولى ، شيخ البحيرة : ٨٠

الجيزة : ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٨٥ .

١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٢٠ .

٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠

جيلان : ١٠٧

(ح)

حارة برجوان : ٣٨

حارة اليهود : ٢٩٧

الحجاز : ١٥

حجازى بن بغداد ، شيخ المنوفية : ٨٠

حدرة البقر : ٢٨ ، ١١١

حدرة الحقة : ١٣٥

حرب اكتوبر : ٥٢

حسام الدين ، الامير : ١٣٢

ربرت الناصف ، الأمير : ١٧٢ ، ١٧٣ ،
٢٢٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤
برمه : ٢٩ ، ٣٠ ، ٢٩٦
الرميلة : ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
الروافض : ٥٨
رودس : ٢٨٤

الروس ، مملكة : ١٠

الروضة : ٣٠١

الروميلي : ٥٣

الريداية : ٧ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٤ ،
٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ،
٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٣٠١

الزافان : ١٣٣

زاوية القاضي : ٢٩٧

زئيرك زاده : ٩١

الزعر : ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٢٤ ، ١٧٧

زملطو ، قلعة : ٩٤

زعلطى ، مدينة : ٩١

الزهرى : ٣٠١

الزولو ، ٥٥

زينب ، السيدة : ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦

(س)

ساحل النيل : ٢٩٨

السبعيات : ١٨٧

سبين العقادين : ٢٩٧

سفا ، مدينة : ٢٢٤

السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد

الرحمن : ٤٠

سرياقوس : ٣٠١

سفر ثامة : ٢٩٩

السلجقة : ١٠

سلام بن خبير : ١٦٣ ، ١٩٤ ، ٢١٠ ، ٢١١

٢٢٥

السليمانية : ٢٧٩

سليم ، السلطان : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،

١٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،

٦٠ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،

خوشن : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،

١٨٣ ، ١٨٤

خوش كلى ، امير : ١١٣ ، ١٢٣

خوند بنت قانيردى الغزالي : ٢٥٧

خوند مصر بيك : ٢٨٣

الخيريكية : ٢٨٣

(د)

داود يانسا : ٢٩٢

الداودية : ٣٠٠

دياياب : ٥٢

درب انجمين : ٢٩٨

دروغ : ٢٧٢

المدشيشة : ١١٢

الدمرداش احمد : ٤٢

دمشق : ١٠٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٥

دمياط : ٣٦

دهشور : ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٩٨

دوليتاى ، متولى القدس والرملة : ٧٩ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ،

٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٨٣

ديار بكر : ٣٥

الديار بكري ، حسين بن محمد : ٤١

دير الطير : ٢٩٦ ، ٣٠١

دير العظام : ٢٩٦ ، ٢٩٧

ديوان الانشاء : ٢٢

(ذ)

الذهبي ، شمس الدين احمد

(ر)

راس الرجاء الصالح : ١٥ ، ٥٧

راس سوية الحزم : ١١٢

راس الصليبية : ٢٨ ، ١١٢

راس المدايح : ١١١

راس ثوية الثواب : ٧٧

(ش)

شاركيت ، الأمير : ٣٠ ، ١٣٣ ، ١٥١ ،
 ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ،
 ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
 ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ،
 ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠

شارع تحت الربيع : ٢٩٨

شارع السد : ٢٩٥

شارع السروجية : ٢٩٨

شارع السكرية : ٢٩٤

شارع الشنواني : ٢٩٩

الشافعي ، ، الامام : ٢٩٧

السلام : ٧ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ١٠٨ ، ١١٧ ،

١٢٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،

٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ،

٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩

شاوور بن مجير السعدى : ٣٠٠

شاه اسماعيل ، سلطان عجم : ٨٨ ، ٨٩ ،

٩٤

الضجاعي ، شمس الدين : ٤٠

شجرة الدر : ٦٧

الشرقية : ٢٣٦ ، ٢٨٥

الشرية الاسلامية : ٦٩

الشيخ عماد الدين : ٢٨

الشيخونية : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧

الشيعة : ٥٨

الشيعة ، المذهب : ١٢

(ص)

صاروخان : ٨٤

الصالح نجم الدين ايوب : ٦٦

صعيد مصر : ٨ ، ١٣٣ ، ١٩٦ ، ٢٤٢

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،

١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ،

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ،

٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ -

٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ،

٢٥٤ ، ٢٥٥ - ٢٦٠ ، ٢٦٧ ،

٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٤ ،

٢٨٥ ، ٢٩٠

سليمان ، السلطان : ٤٩ ، ٦٢ ، ٢٦٩ ،

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،

٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩١

سليمان باشا : ٢٩٠

سنان باشا : ٢٦

السنجي : ١٤٤

سنهور : ٢٢٥

سوار شاة : ٣٤

السودان : ٥٥

سودون الدوادار : ١١٣

سودون الدوادارى : ٢٦

سودون العجمي ، امير كبير : ٧٧ ، ٩٧ ،

٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٤ ،

سور القورية : ١١١

سويقة البقلي : ١١٣

سويقة السباعين : ١١٤

سويقة العزة : ١١٤

سيباى ، نائب دمشق : ١٤ ، ٥٣ ، ٧٩ ، ٨١ ،

٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،

السيوطي ، جلال الدين : ٣٩ ، ٤٠

صفد : ٧٩
 الصقدي ، صلاح الدين خليل بن أبيك : ٤٠
 الصفوية ، الدولة : ١٢
 صلاح الدين الأيوبي : ٦٦ ، ٦٠٣
 الصليبية : ٢٨ ، ٣١ ، ٦٩ ، ١١١ ، ٢٩٨ ، ٣٠١
 الصليبيين : ٢١ ، ٥٦ ، ٦٦

(ط)

الطابية : ٢٩٦
 الطبق : ١٨
 طرا : ٢٦ ، ١٢٣ ، ١٣٥
 طرابزان : ٦١ ، ٨٤
 طرابزون : انظر طرابزان
 طرابلس : ٧٩
 طوخ : ٢٣
 طومان باي ، السلطان : ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ - ١٣٩ ، ١٤٤ - ١٥٥ ، ١٥٨ - ١٦٥ ، ١٦٨ - ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ - ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠

(ظ)

الظاهر برقوق : ٢٣ ، ٦٧ ، ٦٨

(ع)

العبادة : ٨
 العباسية ، دولة : ٦٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨
 عبد العزيز بن مروان : ٢٩٤ ، ٢٩٥
 عبد القادر الاعرج : ٢٦٢ ، ٢٦٣
 عبد القادر الجيلاني : ٩٧ ، ١١٦
 عبد اللطيف البغدادي : ٢٣
 عثمان قائم مقام ، الأمير : ١٦١

العمادية ، دولة : ٥٧
 العمادية : ١٢٣
 العرادات : ٥٢ ، ٥٣
 العريان : ١٠١ ، ١٢٢
 العسقلاني ، ابن حجر : ٢٥ ، ٢٨
 علام ، الأمير : ١١٢
 علاء الدولة : ١٢ ، ١٣ ، ٨٨ ، ٩٠
 العلاقة : ٢٩٥

علان ، الأمير : ٢٧ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢١٧ ، ٢٤٣
 العلوج : ٢٧ ، ١٩٥
 على باشا الطواشي : ٢٩٢
 على باي ، نائب نمياط : ٨٠
 على بن أبي طالب : ١٢٩
 على بن سودون : ٢٦٤
 على بن عمر ، شيخ هواره : ٢٦٠
 على دولات : ٧٩
 عمر بن الخطاب : ١٠١ ، ٢٩٣
 عمرو بن العاص : ٢٩٧
 عنتاب : ٩٥
 العياق : ٢٨
 عين شمس : ٢٩٣ ، ٢٩٨
 العيني ، بدر الدين محمود : ٤١

(هـ)

الغاية : ٢٢٥
 غزاة ، عرب : ١٦٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٦٠
 الغزالي : ١٠١ ، ١١٠
 غزوة : ٨١ ، ١٢٢ ، ٢٨٧
 الغورية : ٢٦٢ ، ٢٩٤

(ف)

فارص : ٥٨
 الفاسي ، أحمد بن محمد الفهري : ٤٢
 الفاطمية ، دولة : ٦٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢

قائينباى السلطان : ٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٢٣ ،
١٥٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦١

قاييد آغا : ١١٢

قاييك راس نوبة : الامير : ١٦١

قبيلة الهواوير : ٢٣ ، ٤٨ ، ١٤٥

القدس الشريف : ٧٩

القراصنة : ٤٦ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ،
١١٦

الغرامطة : ٢٩٧

الغراييص : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٢

قريمان : الامير : ١٢٣

قرقور : ١٢ ، ٦١ ، ٨٧

القرم : ٦٧

قرة ميدان : ٢٩٦

قرية ام دنيس : ٢٩٦

قز لمباش : ٢٦٧

القسطنطينية : ١٠ ، ١١ ، ٥٧ ، ٨٤ ، ٨٦

٨٧ ، ١٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩

٢٨٤ ، ٢٩١

قسم الخليفة : ٢٩٦

قسم السيدة زينب : ٢٩٨

الصر الابيق : ٣٠١

قصر الشوك : ٢٩٤ ، ٢٩٧

قضا بردي ، نائب الاسكندرية : ٨٠

القطائع : ٢٩٨

قطز : ٥٢

قطيا : نائب : ٧٨ ، ٧٩

قلاووز : ٣٠١

قلج ، الامير : ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢١٤

قلعة الجبل : ٢٩٦

قلعة الروضة : ٦٦

قلعة الروم : ٧٩

قلعة الكش : ١١٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨

القشندى ، ابو العباس : ٢٣

قناطر السباع : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٢٩٦

٣٠٩

قنبرى الغزالى ، الامير

انظر

الفاطميون : ٢٩٥ ، ٢٩٨

الفرما : ٢٩٥

فرهاد باشا ، الوزير الاعظم : ٨٦ ، ١٢٥

١٢١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

غريول ، اقليم : ١١

المسطاط : ٢٩٢ - ٣٠٠

الفلاح : ٧١

الفلاوية : ١٧٧

فلورنسا جمهورية : ١١

غوة : ٢٦٢

القيوم : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٨٧ ، ٢٥٨

٢٨١

١

(ق)

السابوچية : ٢٥٢

سالم يسا : ١٨٧

العاصد سيدن اسه ، الخليفة الفاطمى : ٣٠٠

قصى العصاه : ٦٩

قنبرى العزالى : ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧١

١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥

٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ - ٢١٦ ، ٢١٨ - ٢٢٢

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

٢٦٤ ، ٢٧٠ - ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠

٢٩٦

قانسوه بن السلطان جركس : ٧٨ ، ٩٨

قانسوه ابو سنة ، الاسير : ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٩

قانسوه استدار ، الاسير : ١٢٣

قانسوه القاجر ، الامير : ٧٧

قانسوه انعادلى : ٨٠ ، ١٣٣ ، ١٧٣

١٧٩ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧

٢٢٠ - ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ - ٢٦٨

قانسوه الغورى

انظر

قانسوه الغورى

القاهرة : ٧ ، ٢٦ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨

٧٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨

٣٠٢ ، ٣٠٣

قائمه بدي الغزالي

قنصوه ، ابو سنة ١١٣ ، ١٢٣

قنصوه اصله : ١١٤

قنصوه ، بن السلطان جركس : ١٠٤

قنصوه رجلة : ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٤

قنصوه روح لو : ٣١

قنصوه الغوري : ١٢ - ١٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ،

٤٤ ، ٤٧ ، ٥١ - ٥٣ ، ٨٠ - ٨٣ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ - ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

١٠٠ - ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١ ، ١٥٥ ،

١٦٤ ، ١٨٩ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،

٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٣

قنصوه الفاجر : ١١١ ، ١٣٣ ، ١٦١

قنصوه كرت ، الامير : ٩٩ ، ١١٢ ، ١٢٣ ،

١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ،

٢١١ ، ٢٢٤

قنطوره قنيدار : ٢٨

القوانين السرية : ٦٩

قنبت رحبي ، الامير : ١٦٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،

٢٠٨

قيصر به : ٩٥

كشافو التراب : ٧١

كلوت بك : ٢٩٤

كمال اغا : ٨٥

كنيسة مار جرجس : ٣٠٠

كورون : ١١

الكوفة : ٨٧

كيان الريش : ١٧٤

(ل)

لا لا بن عثمان : ٢٦

لود فيجو فارتيما : ٤٨ ، ٤٩

لولجن : ١٨٩

(م)

مماى . الامير : ١١٣ ، ١٦١

المر : ١١ ، ١٢

مجنس الحرب : ٥٢

محارب : ٢٣١

محب الدين احمد بن نصر الله : ٣٦

محب الدين الحمدي : ٤٣

محب الدين ، قريب السلطان سليمان :

٢٩٢

محمد ، بن السلطان الغوري : ٧٧ ، ٩٧ ،

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٦

١٨٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨

محمد بن طلفح : ٢٩٣

محمد بن طومان باي : ١١٥

محمد بن قرقماش ، الامير : ٢٧١ ، ٢٧٩ ،

٢٨١ ، ٢٧٩

محمد علي :

محمد فريد : ١٢

محمود بن رمضان : ١٣٠

محمود الثاني : ٦٠

مدرسة امير اخور : ١١٢

مدرسة الناصطية : ١١٣

المدرسة البيديسية : ٢٥٤

مدرسة السلطان الغوري : ٣٤

مدرسة لاجين : ١١٢

(ك)

الكاشف : ٦٥

كافور الاخشيدي

انظر

الاخشيدي ، محمد بن طلفح

الكيش : ١٣٥ ، ٣٠١

كرتباي الوالى : ٩٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١

١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ، ٢١٥ ،

٢١٧

كرت بك الوالى ، الامير : ٧٨

كرت : ٢٧٢

الكرك : ٦٦ ، ٦٨

كركوردي :

انظر :

قرقوردي :

المنوقية : ١٣٢ ، ١٣٣
منية ابن خصيب : ١٥٨
منية الأصيبغ : ٢٩٥
منية غص : ٢٣٦
مودون : ١١
موسكو : ١١
الموسكى : ٢٩٤
موسى بن بركات : ٢٨٦
ميدان بن طولون : ٣٠٢
ميدان الاخشيدي : ٢٩٤
ميدان انصالح : ٣٠٢
الميدان الظاهري : ٣٠٢
ميدان قراقوش : ٣٠٢
ميدان القمح : ٢٩٤
ميدان الملك العادل : ٣٠٢
ميدان المهارة : ٣٠٢
الميدان الناصري : ٣٠٢
ميلانو : ١١
مبكل ونتر : ١٤ ، ٢٠ ، ٤٣

(ن)

نابليون بوتابرت : ٧ ، ٤٤ ، ٥٥
نابولي : ١١
الناصر بن قلاوون : ٢٩٩
ناصر الدين بن الحسن ، الأمير : ١١٧
ناصر الدين بن الحنّاش ، الأمير : ١١٠ ، ١١٨
الناصر محمد بن قايتباي : ٢٢ ، ٢١٤ ، ٢٨٣
الناصرى خسرو : ٢٩٩
الناصرية : ٢٨
ناورين : ١١
النبي نوح : ١٥٥
تجم الدين أيوب : ٣٠١
النحاسين : ٢٩٤ - ٢٩٧
نذيسة ، السيدة : ٢٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨
نقطباي الأمير : ٧٧ ، ٧٨ ، ١٦١
النيل : ٢٢٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١

المدرسة المعزية : ٣٠١
مراد خان الثاني : ١٠
مرج دابق : ٧ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٢ ،
٩٧ ، ١٥٥

مرجوش : ٢٢ ، ٢٥٢
مرعش : ١٣ ، ٨٨
المرقب : ٢١
المنستر ، الخليفة : ٢٩٩
مسجد المويد : ٢٩٧
مسد ، الأمير : ١٢٣
المشهد النفيس : ٣٠١
مصر القديمة : ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠١
مصر العتيقة
أنظر مصر القديمة
المطرية : ٢٩٣ ، ٢٩٨
مظفر الدين موسى : ٦٧
المعز بن الدين ايبك الخاشنكير : ٦٧
المعز لدين الله الغاسمي : ٢٩٦ ، ٢٩٩
المحل : ٢٩٦
المغرب : ٢٩٩

مغلباي ، الأمير : ١٣ ، ٩٢ ، ١٦١
المغنيسيا : ٦١ ، ٨٤ ، ٨٧
المقول : ١٠ ، ٢٠ ، ٥٢ ، ٥٦
المقريزي ، تقي الدين : ٣٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٣٠٢

المقسي : ٢٣ ، ٣٠١
المكنيات : ١٨٧
مكة (المكرمة) : ٢٢
المناداه ، قرية : ١٧٧
منجنقات : ٥٢ ، ٥٣
منشاة اليهوداقي : ٣٠١
المنصور ، حاجي بن الاشرف : ٦٨
المنصور ، قلاوون : ٢٠
المنصورية : ٢٩٦
منقلاوط : ١٩٢
مفكاش ، الأمير : ٦٨

يشبك ملوخية ، الأمير : ١٦١
الكنجيرية
انظر .

الانكشارية

يلبقا المرحمانى : ٣٦
يلبقا الخاصكى : ٦٧
يلبقا الناصرى : ٦٨
اليهود : ١٥٤
يوسف الشريينى : ١٩ ، ٢٠
اليونان : ١١ ، ٣٧

يونس باشا نائب عنتاب : ٧٩ ، ٩٥ ،
١٢٢ ، ١٣١ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٨٥

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨
يونس البدوى ، كشاف دمنهور : ٨٠
يونس المصرى

انظر

لودفيجو فارتيما

هكس ، حملة : ٥٥
الهند : ١٥ ، ٥٧ ، ٢٩١
النوارة : انظر قبيلة الهوارة :
الهولنديين : ٥٤

(و)

الورثانى ، الحسين بن محمد : ٤٢
وردان ، قرية : ٢٢٣
الوهاد : ١٠٠

(ى)

يحبى بن ازيك ، الأمير : ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٢٢ ،
٢٣٥

يزيك المكمل ، الأمير : ٧٨
يشبك المدودان ، الأمير ، ٢٦ ، ٨٩

- جوزيف داموس
سبع معارك فاصلة في العصور
الوسطى
- ليناير تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية إزاء مصر
- جون شيندر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في
السلة
- بيير البيير
المصحافة
- د. غريمال وهبة
ر. الكوميديا الإلهية لدانتي
في الفن التشكيلي
- رمسيس عوض
لأدب الروسي قبل الثورة
البلشفية وبعدها
- محمد معمر جلال
بكتة عدم الإحتياط في علم
ملاهير
- فرانكلين ل. باومر
الفكر الأوربي الحديث ١ ج.
- شوكيت الربيبي
الفن التشكيلي المعاصر في
الوطن العربي
- محي الدين أحمد حسبر
المتكلمة الأسرية والأبناء الصغار
- ج. داملي الدرو
نظريات الفيلم الكبري
- جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصي
- جوهان دورشدر
لحياة في الكون كيف نخطات
هالين توجد
- عائدة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الطاع الاستراتيجي
حرب الفضاء
- السيد عليوة
إدارة المصراعات الدولية
- مصطفى عناني
الميكروكمبيوتر
- جموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب الياباني
الشعر - الدراما - الحكاية -
القصة القصيرة
- بيل شول وأدينييت
القوة النفسية للأفلام
- صفاء خلوصي
فن الترجمة
- والف في مائلر
تولستوي
- فيكتور برومبير
ستندال
- فيكتور موجر
رسائل وأحاديث من المنفى
- ليزر ميرنبروج
لجزء والنقل « مصاورات في مضمار
الغيزياء الذرية »
- سنتي هوك
المقارن للفلاسف ' ماركس
والماركسيون
- ف. ع. - دينكوف
فن الأدب الروائي عند تولستوي
- هادي نعمان الهيلي
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه
وسلالته »
- د. نعمة رحيم العزاوي
أحمد حسن الزيات كاتباً وثقافاً
- فاصل أحمد الطائي
أعلام العرب في الكيمياء
- جلال المشعري
فكرة المسرح
- منرى ياربيوس
الخصيم
- د. السيد عليوة
صنع القرار السياسي في
مؤسسات الإدارة العامة
- جانكوب برونفسكي
التطور للمضاري للامكان
- د. روجر ستروجران
هل تستطيع تعلم الإختلاق
للانطفال ؟
- كاثي خير
قريبة الدواجن
١. سينسر
الموتى وعالمهم في مصر
القيمة
- د. ناعوم بيتروفيتش
العمل والطب
- برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى
- ي. راندو نكايامو جابوتسكي
الالكترونيات والحياة الحديثة
- ألدس هكسلي
نقطة مقابل نقطة
- ت. و. فريمان
الجغرافيا في مائة عام
- رايبراند وليامز
الثقافة والمجتمع
- ج. فوريس و. ج. فيكستر مور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج.
- ليسترنج راي
الأرض الغامضة
- والتر لآن
الرواية الإنجليزية
- لويس فارغاس
المشهد التي في المسرح
- فرانسوا دوامس
الاله مصر
- د. قدرى حفني وآخرون
الإنسان المصري على الشاشة
- أولج فولكف
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
- هاشم النحاس
الهوية القومية في السينما
- ديفيد وليام ماكدرال
مجموعات النقود - صيانتها
تصنيفها - عرضها
- عزيز الشوان
الموسيقى تصوير نفسي ومتنق
- د. معمر جاسم الرموي
عصر الرواية
- ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية
- جون لويس
الإنسان ذلك الكائن المفرد
- جول ويست
الرواية الحديثة - الإنجليزية
والفرنسية
- عبد المصطفى شعراوي
الشرح المصري المعاصر
أصله وبيئاته
- أنور السادات
هي معجزة هذا المعاصر والإنسان

هريستيان ساليه
السنطاريو في السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الامريكى

جورج مستاينر
بين كولستوى وبوستوفسكى
٢

يانك لاترين
رومانتيكية والوالعية

محمود سامى عطا الله
الغلام التسجيلى

جوزيف بنس
رحلة جوزيف بنس

ستاتلى جيه سولومون
انواع الفيلم الامريكى

مارى بى نالى
القمصر والببيض والسود

جوزيف م بيرج
فن الترجمة على الافلام

كريستيان ديروش نويلكر
المرأة الفرعونية

جوزيف يتداهام
موجز تاريخ العلم والحضارة
في الصين

ليوناردو دافتشى
نظرية التصوير

ت ج ه
كلوزر المفارقة

رونولف فون هابسبرج
رحلة الامير رونولف الى الشرق
٣

ماكروم براديرى
الرواية اليوم

وليم هارسين
رحلة ماركو بولو ٣

مفردى بيربين
تاريخ اوريا في المصور الوسطى

دينيد شتينر
نظرية الاسب المتناسق وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وأخلاق المستقبل

رونالد دافيد لانتج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بيوير
يحنا عن عالم الفضل

فورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم
والتكنولوجيا

د نياردونوج
الازهر في الف عام

ستيفن رانسيمان
العملات الصليبية

د ج ولز
معالم تاريخ الانسانية
٤

حورستاف جرونبيارم
حضارة الاسلام

د عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتوت الى مصر والصحار
٣

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ايتولد جزل وآخرون
الظلال من الخامسة الى العاشرة
٢

يادى اريتمرد
الافريقيا - الطريق الاخر

د محمد زينهم
فن الزواج

برنسلو مالبينوفسكى
المصور والعلم والدين

اسم متز
الحضارة الاسلامية

قانس بكارد
انهم يصنعون البشر

د عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتومان
كوفلا المتعدد

سوندراى
الفلسفة اليهودية

مارتن فان كريله
هرمب المستقبل

فرانسيس ج برجين
الاعلام التطبيقى

عبد مبادر
المصرية المصرية من محمد على
لمساهدات

ج كارنايل
المبسط الخفايا للهتسمية

ترومان ليبهارت
فن الماييم والبايتوميم

انزارد دوبرتو
الفكر الكي المتعدد

ريليام ه ماثيود
ما هي الجيولوجيا

وديس نير براند
صناع الخلود

زيجموند مير
جماليات فن الاخراج

حوناثان ريبلى سميت
الحملة الصليبية الاولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج بتر
الكلايس القبطية القديمة في
مصر ٢

ريتشارد شافت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
فن كتاب الاستا المقدس

الحاج يروش المصرى
رحلات فاروقيا

هربرت ثيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بولر نيكولز
السينما الخيالية

ادوارد هيرى
عن النقد السينمائى الامريكى

نقثالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن اوزمعت
التاريخ من شتى جوانبه ٣

مونى براج وآخرون
السينما العربية من الخليج الى
البحر

فاسى مكارد
انهم يصنعون البشر ٢

حاصر محمد الحزار
ماسترمت

د ابرار كريم اذ
من هم القاتر

ج س ميرور
الكاتب الحديث وعالمه
٢

ميرريال عبد الملك
حديث النهر

من روائع الادب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المظفرة

اسرار المصور نوكا
ماتريبيد روز
ما بعد الحداثة

روبرت سكوتز وآخرون اتفاق أدب الخيال العلمي	ونفرد هولز كانت ملكة على مصر	المسيد نصر الدين السيد اطلالات على الزمن الاثني
ب. من ديفيز المفهوم الحديث للمكان والزمان	جيمس مثرى برست تاريخ مصر	ممدوح عطية البرنامج النووي الاسرائيلي والامن القومي العربي (
من. هوارد اشهر الرحلات الى غرب افريقيا	بول داليز الطائفت الثلاث الاظيرة	د. ليوبوسكاليا الحب
و. بارتولد تاريخ الترك في اسيا الوسطى	جورجف وهاري فيلدمان فيثامية العلم	ايغور ايماناس محمل تاريخ الاقلام الانجليزى
فلاديمير تيمانيانو تاريخ اوريا الشرقية	ج. كرننتو المضارة الفيليقية	هيربرت ريد التربية من طريق الفن
هابرويل هاجارسيا ماركيز الجفرال في المتاهة	لرلمست كاسيرو في المعرفة التاريخية	وليام بينز معجم التكتولوجيا الحيوية
هنرى برجسون الشمسك	كنت ١. كنتن ومسيس الثاني	الفين تولغر تحول السلطة ٢ ج
د. مصطفى محمود سليمان الزلازل	جان بول سارتر وآخرون مطابقات من المرحح العالمى	يوسف شرارة مشكلات القرن الحامى والعشرين والعلاقات المتولية
م. و. هرنج هسمير المهلس	يوزالند ، وجاسك بانسن الطلل المصرى القديم	رولاند جاكسون الكيمياء فى خدمة الانسان
١. ر. جرنى الحديثون	نيكولاس مايز ضلوك هولز	ت. ج. جيمز المياة ايام الفراحة
ستينو موسكاتى الحقنارات السامية	ميجيل دى ليهس الغفران	هرج كالشمان لماذا تكتسب الحروب ٢ ج
د. المبرت حورائى تاريخ الشعوب العربية	جوسيبى دى اونا موسولنى	حسام الدين زكريا تظنون بيونكر
	الويز جرايت موتسارت	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٠٠٢/١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 5928 — X

